ساحر الكتب

لتحويلك إلى الجروب أضغط هنا

لتحويلك إلى الموقع أضغط هنا

للمزيد من الروايات والكتب الحصرية
انضموا لجروب ساحر الكتب

او زيارة موقعنا sa7eralkutub.com

بوابةُ سُلَيمان روايـة

محمد نجيب عبد الله
نسخة الكترونية خاصة بكندل أمازون
الغلاف: كريم آدم
المراجعة اللغوية: محمود سلام أبو مالك
رقم الإيداع: ١٤٢٨٣ / ٢٠١٨
الترقيم الدولي: ٢ - ٠٣٨ - ٨٢٤ - ٩٧٧ - ٩٧٨
جميع الحقوق محفوظة

١٨٦ عمارات امتداد رمسيس ٢ أمام أرض المعارض مدينة نصر
هاتف: ٠٢٢٠٨١٢٠٠٦
rewaq2011@gmail.com
facebook.com/Rewaq.Publishing

إِلَى أَرْوَاحٍ عَالِقَةٍ فِي هَذَا الْعَبَثِ، ظَامِئَةٍ لِمَا هُوَ أَرْقَى، رَافِضَةٍ لِكُلِّ سَخِيفٍ غَثٍّ، مُفَتِّشَةٍ عَنْ أَيِّ جَمَالٍ، توّاقة إلى تَحْقِيقِ حُلْمٍ أَوْ أَمَلٍ، بَاحِثَةٍ عَنْ حَيَوَاتِهَا الْمُتَسَرْسِبَةِ مِنْ أَيْدِي الأَيَّامِ..

إِلَيْهِم..

أُهْدِي هَذَا اللَّحْن.

مـا قبــل البـدايـــة:

«... أرى كل شـيء بعينيّ، رغم أني أسـبح في بحر من الضياء والبهاء والأبّهة الخالصة، لا أعرف على وجه التحديد أين أنا، بيد أن الأمر لم يعد مهمًّا لي ولا لكم ولا لأحد. أدرك الآن أننا لا نعرف أي شـيء وربما إنني الآن أيضًا لا أعرف أي شـيء...»

الوتر الأول

ـ وتر صول ـ

«الكمان آلة وترية ذات أربعة أوتار، ومن أشهر الآلات التي استخدمت في الموسيقى الكلاسيكية، ويوصف صوتها بأحن أصوات الآلات الموسيقية».

١. أيها الملك السلطان.. أقبِل

بعض الليالي تؤمن باختلافها، فتجمع خيوطًا من الكون، مبعثرة بين جنباته، وتغزل منها الحدث.

شيء غريب يسري فيه، كأنه أثر دواء ما أو فيروس غامض يحتل حيّز جسمه. ريقه جاف بصورة غير مسبوقة. لم يحدث هذا معه من قبل. شحنة كهربائية تمتد حتى أطراف أنامله. رعدة تشمل ساقيه. ضربات قلبه تتسارع. يبدأ إلهام جديد كأنه وحي يغمره. الأنغام تتوالى في سرعة أمام عينيه. نوتة كاملة لم يعزفها قبلًا. الأمر لا يشبه حتّى أيّ مقطوعة معروفة. استغرب أنه يراها متكاملة ما يشبه المعجزة. قليل جدًّا من المقطوعات الموسيقية ألَّفها عازفوها في جلسة واحدة، فهي لا تأتي هكذا دون تمهيد ولا مقدّمات على هذا النحو من الاكتمال.

وقبل أن يغادره إلهامه الأقرب إلى الوحي.. قرّر أن يستأنف العزف من جديد.

يتحوّل ذهنه إلى مساحات بيضاء شاسعة، تبرز بعض الألوان من أفق بعيد لا يُرى. تقترب منه متخذة شكل أنغام. لا يذكر على وجه التحديد أيّ المؤلفين العظام كانت تأتيه ألحانه على هذا الشكل. الآن تبدأ في صنع موجات شبيهه تمامًا بكيفية عمل الـ(إيكوالايزر) مكتسبة أبعادًا ثلاثية. عيونه ما زالت مفتوحة وهو ما لا يحدث معه عادةً أثناء العزف، على الأقل قبل الآن.

الغرفة ترتج في عنف كأنه زلزال، ولو أن زلزالًا ينتزع غرفته من مكانها الآن.. ما أمكنه أن يتوقف. صداع رهيب يمزّق جمجمته يختلف عن كل نوبات الصداع التي عانى منها في الشهور الأخيرة، وبدايات دوار خافتة تحاول أن تنتشله مما هو فيه بإصرار. ليبدأ الحائط الأول للغرفة أمامه يتلاشى ويتفتّت إلى ذرّات تختفي في الفراغ ويرى رحابة السماء خلفها، تتسع عيناه في دهشة وهو يواصل العزف في جنون غير مصدّق، يدرك أنه الآن في حالة من مخاتلة الوعي، يتأكد من ذلك حين يصدمه تلاشي الحائط الثاني عن شماله فالثالث عن يمينه بنفس الشكل والكيفية.

يرى سريره يطير في السماء ويتفكّك إلى ألواح خشبية تتشظّى حتى تختفي عن نظره والعزف مستمر.

يصير وحده تمامًا على سطح العمارة..

يرى البيوت حوله في مكانها فيظن أنه في تمام الوعي، أو فقدانه..

في هذه اللحظة شملته دفقة نور عارمة تغشي بصره وجوارحه، بل يحسها تكاد تعصف بجسده تمامًا كأنه انفجار نجم أو الجانب الآخر من ثقب أسود. يباعد

بين ساقيه محاولًا الإبقاء على نفسه متّزنًا فلا يسقط ولا يطير. يحس كما لو أن يديه التحمتا بفرس الكمان وقوسه. لوهلة يظن أنه قد توقف عن العزف مأخوذًا بما يحدث له ولا يدركه، لولا أنه ما زال يسمع النغمات قوية عالية بصورة غير مسبوقة، كأنما العزف من داخله هو وقد زال كل أثر للصداع وللدوار.
يسمع النغمات بعقله وأذنيه، بل يهتز جلده من وقعها عليه.
عيناه مفتوحتان، ولكنه يسبح في دفقة من نور صافٍ، فلا يرى.
لا يشعر بجسده أو جوارحه أو أي من الموجودات حوله.
لا يدرِ كم مرّ عليه من وقت في رحلة إسرائه الخاصة تلك، فالوقت عدم..
والحياة عدم..
والفناء عدم..
وكل شيء عدم..
فى نهاية الفراغ.
يتبدّى له بناء ضخم كأنه قصر من نوع ما، لولا أن روعة وبهاء الضوء الذي يسبح فيه حوّلاه إلى صورة باهتة غامضة لا يمكن تمييز ملامحها ولا تفاصيلها.
القصر يقترب في سرعة رهيبة وتبدأ ملامحه تبين.
ما أشبهه بقصور بارونات القرون الوسطى الأوربّية، أو معجزة سلطانٍ صينيٍّ ما منذ سحيق الزمن.

«أيها الملكُ السلطانُ أقبِل..
أيها الملكُ السلطانُ أقبِل..
رعيّتُك في انتظارك..
ها قد زارنا السعد..
ها قد جاء الهناء..
أيها الملكُ السلطانُ أقبِل..
أيها الملكُ السلطانُ أقبِل..
رعيّتُك في انتظارك..
اكتب لنا تاريخًا..
ليس له من فَناء».

من أين أتت تلك الكلمات؟ وكيف تردد صداها في فراغ؟
فجأة يتوقف العزف كأنه انقطاع الكهرباء.
يخفت مرأى القصر وشدة الضوء وتتوقف رحلة الإسراء.
يعود بجسده المهتز وساقيه المتباعدتين والكمان في يده.

وبنفس السرعة الرهيبة ومن نقطة غير مرئية في السماء،
تلتئم الشظايا الخشبية لتكوّن ألواحًا تتشكّل ليعود سريره ودولابه وملابسه وتعاود التراص في أماكنها.
كتبه..
كل متعلقاته..
تعود مكانها كأنه تصوير عكسي.
تتجمّع الذرّات المتلاشية ليطير الحائط الأول عائدًا مكانه، فالثاني فالثالث فالرابع في دويّ شديد ورجّة تماثل أو تزيد على رجّة التلاشي الأول.
يختفي الضوء تمامًا وتبدأ عيناه اعتياد ضوء الغرفة العادي.
اختفت السماء من حوله.
وما عاد للقصر الأسطوري من أثر.
ما زالت تتردّد في أذنه الجُمل الغريبة التي سمعها.
«أيها الملكُ السلطانُ أقبِل.. أيها الملكُ السلطانُ أقبِل...».
لا يدرك كُنه ما حدث له، ينظر حوله نظرة المذهول المغيّب، نفس النظرة التي نراها ممّن يستعيدون الوعي بعد إغماءة.
تزداد الهزة فيرتعش جسده في شدّةٍ من أصابته الحمّى.
تنسحب الكهرباء وتتوارى حتى يحسّها تخرج من أطرافه.
ما زالت ضربات قلبه متسارعة للحد الذي يحدو بها لأن تتوقّف.
الآن يستعيد كُنه الواقع والموجودات حوله.
الآن تخرج آخر نغمة من جسده كأنها آخر جندي يغادر أرض المعركة.
يعود إنسانًا عاديًّا له اسم وجسد وحياة.
يعود إنسانًا من النوعية التي تأتيه جارته البسيطة المسكينة الجميلة حسنية في هذا الوقت المتأخر جدًّا تغالب فضولها وافتتانها بالحدث الجلل الذي تراه للمرة الأولى، مستعيدة الواقع والحدث والوقت الآني، طارقة بابه في تصميم، هاتفة:
ـ الحقني يا سي سليمان أفندي.. الحقني أرجوك.. غيتني.. أرجوك...!

٢. نـوّارة الـحي

يختار الجاني عادة ضحاياه، وليس العكس.
أسمعتم قبلًا عن ضحية اختارت دورها في اللعبة أو اختارت كُنه جانيها؟
هكذا هي الأقدار حين تختار تحت ستار من الأسماء المختلفة.
تتزوج الفتاة الشخصَ الخطأ.. فيسمّونه القسمة والنصيب، أو تصطدم بك سيارة مسرعة لتتركك قعيدًا تمارس الحياة من خلال كرسي معدني متحرّك.. فيقولون ويتقوّلون عن القدر والمكتوب على الجبين، أو ربما تتأذّى مسامعك لكل مصمصة شفاهٍ لأمك التي تجلس جوارها على نفس تلك الكنبة السحّارة المغطاة بمرتبة رقيقة صلبة مُسندًا كوعك إلي مخدة أسطوانية تصلح للاحتضان في الليالي الموحشة، لأنك تخرّجت من كلّيتك المتوسطة منذ فترة تخطّت قدرتك على الحصر ولم يصبك الدور بعدُ في أي منحى من مناحي الحياة، هي فقط تأسى لك، ويكون الاسم الجاهز.. هو الحظ.
هكذا كانت حياة حسنية مزيجًا من هذا وذاك وتلك.
الفتاة الشابة البضة المشهورة بالطيبة والمروءة، التي فقدت والديها في رحلة عُمرِهما للأراضي المقدسة لتأدية الفريضة، فكان عُمرُهما ذاتُه ثمنًا للرحلة التاريخية تلك، التي بذل لها الأب الحاج كل رخيص وغالٍ. وأوصت الأم قبل المغادرة ابنتها الشابة بأخيها المعاق محمود خيرًا. فضربت الفتاة صدرها نصف المكشوف مؤكدة بصوت واضح أن الصغير سيكون في عينيها، ستكون خادمته وأخته وأمه وأباه طوال فترة الغياب، التي طالت حتى صارت أبدية.
نوّارة الحي بدأ سناؤها يذوي ويُحتضر، والشعر الناعم الفاحم الذي كان يبين أغلبه تحت الطرحة الخفيفة أمسى مخبوءًا في صرامة تحت وطأة المنديل المربوط بإحكام كأنه علاج للصداع. أضحت درجات اللون الأسود لبسها الوحيد المتنوع، وإن تمرّدت، اكتسب الأسود شريطًا ذهبيًّا أو فضيًّا في الجانبين.
الفتاة التي كانت مطمعًا لشباب الحي صارت عبئًا ثقيلًا حتى على خالها وزوجته اللذين لم يحتملا أبناء الأخت الراحلة كثيرًا فخفّت الزيارات، ومن ثمّ المساعدات المادية والمعنوية.
حسنية عاشت عمرها كلّه على الكفاف، ولكنه كفاف اختلط جيدًا بالعفاف، تتوارى رويدًا رويدًا في كهفها المظلم لا تغادره إلا لمامًا، مكتفية بالجنيهات القليلة من تلك الحرفة البسيطة التي تعلّمتها وأنعم اللـه عليها بأهل خير كفلوا لها الاستمرارية، إذ تقوم بـسرفلة العبايات على ماكينة خياطة بدائية وهبها لها الحاج مصطفى صاحب المشغل في طرف الحارة الآخر ولم يطلب

منها ثمنها، بل هو من يجلب لها القماش ويأخذ منها الحصيلة ليتولى بيعها بعد ذلك ويحاسبها بالقطعة نقدًا وفورًا دون انتظار ولا مماطلة.
لا تنكر المحاولة المنفردة للجار منذ الطفولة نادر الذي يرغب في ضمّها لزوجتيه الحاليتين، إلا أنها على الرغم من حالتها تلك.. لم تكن لترغب لنفسها زواجًا من هذا النوع الرقمي الذي يصنع من المرأة شيئًا مملوكًا ضمن مجموعة أشياء.
قد يستغرب الناس رفاهية القبول والإيجاب عند البعض، ولكن اختلاف نوعيات البشر دومًا تصنع تلك الفرص المتعددة التي لا تنتهي لإثارة الدهشة.
هكذا توتّرت الأمور إلى حدٍّ ما بين الجارين اللذين كانا في ما مضى ودودَين، ولو أن أُمَّيهما –رحمهما اللـه– شهدتا هذا الوضع.. لما ارتضتاه.
تذكر ذلك الماضي السحيق الذي ربما هو في حقيقة الأمر إرهاصات حياة سابقة لم تعشها من الأصل، حيث تتقافز بضفيرتيها الناعمتين ومريلتها القصيرة هابطة في حيوية درجات السلم، ليلحق بها نادر الذي كان الأهل يتعاملون معه على أنه الأخ الحامي والجار الأمين، فينطلقا لفورهما في رحلتهما القصيرة نحو المدرسة.
تجتر في جلساتها مع نفسها العديد والعديد من الذكريات التي اختزنتها أيام ممارستها للحياة، قبل أن تخلد لهذا البيات الشتويّ شبه الإجباريّ، مكتفية بهذا الاجترار والذي يأتي محمّلًا بالمرار في كثيرٍ من مراحله وفقراته.
تترقرق تلك الغلالة الشفيفة الباهرة من دموع في مقلتيها وهي تحوّل وجهها الذي نحل وشحب.. المستند إلى إحدى يديها بصورة شبه دائمة.. نحو كيان أكثر نحولًا وشحوبًا هو الأخ الصغير محمود.
ذلك الطفل الذي حوّلته مضاعفات حمّى شوكية أصابته في الصغر.. إلى هذا الشاب الذي هو أقرب ما يكون إلى الهيكل العظمي الحيّ.
محمود الذي يسيل اللُّعاب من أحد جانبي فمه، فتميل بجذعها للأمام تمسحه. تربّت عليه في رفق كأنها تخشى عليه أن ينكسر. محمود الذي ربما لا يستطيع مغادرة الفراش وحده ليبدأ رحلة عذاب مضنية نحو الحمّام. بل يظل يتأرجح بساقيه المتداخلتين أثناء المشي كالمقص الكبير، يتدلى لسانه وتصدر عنه أصوات غير مفهومة وتزوغ نظرات عينيه الغائرتين داخل محجرين سوداوين، يبلّل اللعاب ـوالبول أحيانًاـ جلبابه القصير ويصنع مع بقايا بقع الطعام العالقة لوحة سيريالية رسمها فنّان بوهيمي مجهول الهوية. تراه وقد تشعّث شعره ونبتت شعيرات ذقنه العجرودية على غير هدى، غير قادر على الكلام بصورة سليمة، محدود الذكاء بشكل يبقيه معتمدًا على الآخرين في ديمومة مقيتة.
تأملت الجسد النائم في حنوٍّ.
لا تنكر أن علاقتها بأخيها كثيرًا ما كانت تشوبها نوبات من لوم النفس والندم حين تضبط نفسها متمنية له الموت ومن ثمّ الراحة الأبدية، ربما لهما معًا.

تبسمل وتحوقل وتستعيذ بالشيطان وتكثر من سيد الاستغفار ودعاء ضُرّ سيدنا أيوب وسيدنا يونس في بطن الحوت. تدرك أن هذا الخاطر، الذي لا يتجاوز حدود الخاطر، وليد الخيال، ويقبع في قرار سحيق من الذهن لا يغادره، فهو مثلًا لم يجرؤ أن يطفو على السطح ليمسّ لسانها أو شفتيها، هو خاطر لم يصل حتى حدود التمنّي الحقيقية، بل هو أشبه بأمنية شخص آخر غيرها تراه من بعيد ولا تجرؤ أن تكونه، هو نوع من أنواع الخيانة المستترة للوصية الأخيرة لوالدةٍ حاجّة شهيدة هي الآن منعّمة مكرّمة في الدرجات العُلى من الجنّة.

يرتجف الجسد الناحل ارتجافات عابرة كتوابع زلزال محدود، هي ارتجافات أقرب لرعدة باردة تعتريه وتنحسر. تشيح بوجهها نحو الجهة الأخرى، فيصطدم مجال رؤيتها دون قصد أو تعمّد ببقايا مرآة صدئة فقدت إطارها ولمعان سطحها منذ اكتسب أصحاب البيت الحاليون صفة اليُتم ذات لحظة فارقة في الحياة. عضّت شفتها السُّفلى في مرارة، لتنقلها آلة الزمن السخيفة التي تسيطر على حياتها مرة أخرى للماضي الحُلم، فترى نفسها الأخرى الأقرب للوهمية تقرص خديها لتكسبهما الحمرة والتورد اللازمين وهي تستعد للنزول إلى العم عدلي البقال لشراء بعض الطلبات لأمها، أو تحيّن أي فرصة أخرى مواتية للخروج من باب الشقة والظهور العلني أمام الجماهير.

تزداد رعدة محمود وتكتسب شكلًا هو أشبه بالتشنّج، فتزدرد لعابها في خوف واضطراب، يبدأ التشنّج في الازدياد ليشمل الجسد كله وتبدأ أسنانه غير المنتظمة المصفرّة المقوسة للخارج في الاصطكاك في عنف. لم تكن تلك المرّة الأولى التي تصيبه فيها تلك التشنجات فهي من بقايا إصابة الطفولة، ولكنها هذه المرة تبدو غير كل مرة.

تبدأ الرغاوي البيضاء المختلطة بالدم في الفوران خارجة من فمه كالحمم البركانية، الظهر مقوّس في حدة والعظام تختلج وتصطرع وتصطك، صرخات عاتية هادرة متألمة، ثم تلك البقعة الكبيرة من بول تبلّل أسفله. كان الوقت متأخرًا للغاية فأخذت تهرول عبر أرجاء المنزل باحثة عن حقنة مهدئة، إذ تعلّمت بالخبرة كيفية إعطاء الحقن عن طريق العضل بنفسها، فلم تجد. فاكتفت بأن دسّت السرنجة البلاستيكية في فمه كيلا يعضّ لسانه كما فعل من قبل واستلزم الأمر خياطة وغُرَز.

تناولت التليفون المحمول في عصبية وبدأت تطلب رقم الطبيب المعالج.

ـ هذا الرقم قد يكون مغل...

جاوبها الصوت المعدني اللعين.

كالمجنونة تطلب رقم الصيدلية المجاورة.

يرن الجرس طويلًا كالدهر بلا مجيب، ككل شيء تطلبه في الحياة تصرّ الدنيا أن ما تحتاج إليه حقًّا، لا تحصل عليه كل مرة وأي مرة.

النوبة لا تنتهي، والجسد الناحل أمامها في سبيله للتفتّت كخبز يابس.
تخرج على غير هُدى، ودون أي خطة مسبقة أو قرار، تفتح باب الشقة والوقت يقترب من الفجر، تفكّر لوهلة أن ترن جرس الباب على نادر وزوجتيه، ولكن الأصوات التي سمعتها في تلك اللحظة وداعبت أذنيها، سمّرتها مكانها وحوّلتها إلى ما تشبه المنوّمة المسحورة. كعازف الناي الذي تبعته فئران المدينة، وجدت نفسها لا تسير على الأرض، كأنها غلالة رقيقة تطفو في خدر لذيذ نحو الصوت الذي كان مصدره سطوح العمارة حيث يسكن جارهم الغريب الأطوار سليمان. من المفترض أن تعني هذه الأصوات أنه مستيقظ، ويمكنه أن يساعدها في جلب الدواء اللازم أو مساعدتها للذهاب إلى مستشفى إذا ما استلزم الأمر، لكن الأكثر دهشةً وغرابةً أن تلك الأصوات كأنها كانت تأمرها بالصعود للسطح أمرًا لا فكاك منه، وليس مجرد رغبة منها لاستجلاب الغوث والمساعدة.
في وجلٍ دفعت باب السطوح لتقترب أكثر وأكثر من الصوت الآمر بسحره.
لقد نسي الأستاذ سليمان شباك الحجرة التي يقطنها مفتوحًا على غير العادة، وهذا سرّ سماعها له هذه المرّة. في بطء شديد تقترب لتراه ممسكًا بكمان صغير مغمض العينين في حالة من حالات التجلّي والتوحد مع الكون. عيناه مغمضة وجسده يهتز ويرتج ـكأنها أيضًا تشنجاتـ مع كل نغمة تتصاعد كالوحي من بين أنامله.
وأخيرًا تمكّنت حسنية من أن تغالب فضولها وافتتانها بالحدث الجلل الذي تراه للمرة الأولى، وتستعيد الواقع والحدث والوقت الآني، فطرقت الباب في تصميم هاتفة:
ـ الحقني يا سي سليمان أفندي.. الحقني أرجوك.. غيتني.. أرجوووووك...
هكذا ينجح الواقع دومًا في أن يصرع الخيال.
وهكذا وجد الثلاثيني الشاب نفسه مدفوعًا بالواجب لنجدة الجارة الملهوفة، ولم يكن العازف المبدع مدركًا أنه هو أيضًا بصدد رؤية أشياء ربما يراها للمرة الأولى، تمامًا كـحسنية.
فمن أين لفنان شاب وعازف كمان يعيش بين الألحان والأحلام أن يرى نوبة صرع تكاد تقضي على معاقٍ نحيل؟!
هرولا نزولًا ومحمود ما زالت تشنجاته مستمرة، وهكذا ولج سليمان من باب الشقة المفتوح ليصل في سرعة إلى تجربته الحياتية الجديدة.
لا يعرف سليمان أرقام تليفونات لأطباء ولكنه يستطيع أن يشتري الدواء من الصيدلية التي لا يجيب تليفونها. وهكذا لم تمر سوى دقائق قليلة حتى اقتحم الغرفة مرة أخرى حاملًا الدواء المطلوب ليجد جسد حسنية الطري البضّ محتضنًا الهيكل العظمي المرتجف في تشبّث. كانت تبكي وتولول وتهتز للأمام

والوراء في حركة بندولية ومحمود في إطار من ذراعيها المحتويتين. كانت تبكي وتنشج، ومحمود يرتج وتصطك أسنانه وعظامه.
وقف سليمان بباب الغرفة وهو يناول حسنية الكيس.
رفعت نحوه عينين مهزومتين، وروحًا جريحة، وأنثى محطّمة تحت وطأة الظروف والأحوال.
كانت عجوزًا مخبوءة في جسد شابة.
تعيسة بدرجة جميلة فاتنة أخّاذة.
وكيف لرجل أن يقاوم فتنة امرأة مثلها في حالة احتياج؟
تناست حسنية العينين اللتين تحتويانها في حنوٍ لتجذب الكيس البلاستيكي بقوّة، وفي ثوانٍ كانت السرنجة قد امتلأت بذلك السائل الأحمر المحمّل بالآمال والرغبات في تهدئة المسكين الذي يتشنّج ويكاد يقضي نحبه.
بخبرة بالغة دسّت المحقن في إلية محمود التي لا عضل فيها، وتسرّب السائل الأحمر إلى جسده في بطء وليونة، لأعينٌ أربعة صارت هي محور الكون بالنسبة إليها.
دقائق كالدهر بطيئة طويلة لزجة.
نظرات متبادلة وجسدان يختلجان في ترّقب.. يراقبان جسدًا يختلج إذ تنحسر عنه نوبة الصرع في تدريج بطيء كأنه جزر متعاظم لمحيط هو الكون ذاته.
تتباعد الاختلاجات والتشنجات وتخفت حدتها رويدًا رويدًا.
حتى تهدأ تمامًا.
الثور الجامح خمد.
الآن تقترب حسنية في تؤدة، تقبّل رأس الجسد الواهن الذي أضعفته التشنجات أكثر فأكثر، تربّت عليه مرّة أخيرة، لا تتأفف من لعابه الذي اختلط ببعض الدماء، ولا من بوله الذي بلّل ملابسه والملاءة، فتبدأ في شدّ الغطاء عليه لتدفئته، تقبّله ثانية، ثم تتنهّد تنهيدة حارة طويلة وجسدها بدأ يرتجّ في عنف.
تلتفت جهة سليمان الذي ظل واقفًا بالباب يتشظّى الضوء الخارجي عن محيط جسده في أسطورية، وهو يعقد ساعديه أمام صدره فاغرًا ثغره في ذهول.
كانت هذه هي اللحظة التي استسلمت فيها حسنية للبكاء العنيف المُزَلزِل الغاسل للأرواح.
ترتجف كعصفورة بلّلها المطر.
لم يتردد سليمان بروحه المرهفة وأحاسيسه التي تأجّجت الآن أكثر ممّا يحتمل، حيث تجاهد دمعتا تأثّر للإفلات من أسر مآقيه، ففَتَح ذراعيه على آخرهما، إلى أبعد مدى ممكن، كأنه كون رحيب.

لم تنطق الشفاه، ولم يتحدث المنطق ولا القواعد ولا الأصول، وحسنية تجد نفسها مرغمةً على غير وعي منها، مندفعةً نحو ذلك الحضن الإنساني المفتوح أمامها على مصراعيه.

ذلك الحضن الذي افتقدته ربما لزمن بعيد.

ذلك الحضن الذي ربما كان السبب الرئيس لرفضها زواج نادر.

ذلك الحضن الذي لم تكن لتجده أبدًا معه إن قبلت.

فهو الأمان والتفريغ لكل الشحنات السالبة للروح، هو سر المرأة ومفتاحها عبر العصور مهما كانت ثقافتها أو سنّها أو مستواها الاجتماعي، وهو نفس السر الذي يبدو خافيًا عن كل أو بعض الرجال.

الحضن تمامًا كالسائل الأحمر في السرنجة، وربما أبلغ أثرًا وأبقى.

وعندما سرى أثر الحضن في جسدها، بدأت تشنجات حسنية الداخلية تهدأ وتخفت رويدًا رويدًا، لم تتوقف عن البكاء، لكن الغليان داخلها ينحسر في هدوء.

كان هذا بمنزلة الإذن لـسليمان كي يربّت هو على ظهرها في تعاطف ويمسح على رأسها في ود.

لا يكون الحضن حضنًا إلا إذا كان طويلًا ممتدًا تلقائيًا إنسانيًا بلا رغبات أو اعتبارات أو مقدّمات. فقد يشوّه الحضن شهوة، ويلوثه قطعًا شبهة الاعتياد. لذا فقد بدا حضنهما حينها مثاليًّا للغاية.

وما زاد من دهشة سليمان...

أنه كان أيضًا يحتاج إلى مثل هذا الحضن.

٣. مرخاتلة وعـي

ـ آلو، أيوه يا سليمان، مايسترو عايزك، تعالى الأوبرا النهاردا الساعة خمسة، ما تتأخرش زي المرة اللي فاتت. إنت حر بقى! ومتنساش ميعادك قبلها في الكافيتيريا مع الزبونة اللي ظبّطتك معاها، إلهي يتمر فيك يا نجم!

لم يكن سليمان قد أتم استيقاظه بعد، أو بالأحرى لم يكتمل نومه. ليلة الأمس كانت طويلة وامتدت حتى الصباح. نظر لساعته فوجدها تقترب من الثانية عشرة ظهرًا. ما يزال الحلم الذي رآه بالأمس ماثلًا أمام عينيه، ولكن لم يكن هذا ما يهمّه. بل كان كل تفكيره منصبًّا على المقطوعة التي عزفها ولم تكتمل. حاول أن يسترجع اللحن مرّة أخرى فلم يستطع.

نظر لتليفونه فوجد رسالة من تلميذته الجديدة التي اقتحمت حياته مؤخرًا، هند، عن والد مجنون وكمان مكسور واستغاثة ما أشبهها باستغاثة البارحة. وعلى الرغم من أن الفرصة جاءته على طبق من فضّة الآن ليتحجّج وينسحب قبل أن تتطوّر الأمور بينهما أكثر، فإن قوّة مُسيطرة أجبرته أن يرسل إليها ردًّا لطيفًا، بل يعرض عليها كمنجته الاحتياطية بديلًا أثناء دروس التمرين.

كانت غرفته على سطوح العمارة عبارة عن منطقة استقبال، بها سرير ومكتبة وطاولة صغيرة بكرسيين وكومودينو قديم متهالك، ثم ملحقين صغيرين عبارة عن حمام ضيّق وأوفيس.

أثناء الاستحمام السريع المنعش قبل أن ينزل لمقابلة عمل مؤقت جديد، بدأ يدندن لحنًا معروفًا لـباجانيني في محاولة ساذجة جديدة لاسترجاع لحن الليلة الماضية دون جدوى.

تعاوده ذكرى الأمس طازجة حيّة، للوهم طعم كالحقيقة، ولكن أي حقيقة تلك في جدران طائرة ونفق ضوئي في السماء وقصر لم يرَ له مثيلًا من قبل في حياته؟

هل تكون المقطوعة التي يجاهد لتذكّرها الآن وهمًا أيضًا اختلقه في حلمه؟

كل العازفين على مرّ العصور حلموا بمقطوعتهم الخالدة التي لم يسبقهم إليها أحد، أتطغى أحلام اليقظة على أحلام النوم هكذا كمخاتلة وعي، أو لعبة من لعب الإدراك والشك؟

فرغ من حمّامه السخن، واستعد لارتداء ملابسه.

كانت ذرّات بخار الماء قد تكاثفت على مرآة الحمّام الصغير بشكل سمح له بأن يقرأ تلك العبارة التي بدأت تتضح كأن أحدهم قد كتبها بإصبعه على المرآة...

«أيها الملك السلطان أقبل»... في لهفة شديدة اقترب من المرآة مدركًا كيف تكون حقيقية الوهم. ذلك الجزء المتشكك في عقله دعاه لأن يمد للمرآة إصبعه التي ما زالت مبلّلة. في وجل شديد وبطء يليق بالعجائز بدأ يمسح سطح المرآة الأملس. فوجد أن العبارة المكتوبة قابلة للمسح، بل إنها تشوّهت بالفعل من أثر فعلته. لم يكن هذا دليلًا قطعيًّا، فالعقل جدير بتلك الألعاب الذهنية. جرى من الحمّام عاريًا ليجلب تليفونه المحمول، ليلفت نظره علبة من المخمل الأزرق يراها للمرة الأولى عليها ما يشبه رسمًا لنغمة موسيقية. إلا أنه تجاهلها وأفل ليصوّر جملة المرآة. نظر للصورة ليجد أثر الكتابة بعد أن شوّهها بإصبعه.

هل يتوّهم هذه الصورة أيضًا؟

ربما وصل إلى تلك المرحلة التي يود فيها أن يستشير أحدًا من أصدقائه.

وهكذا طلب من صديقه الشاعر جلال أن يوافيه عند كافيتيريا الهناجر قبل أن يقابل زبونة مُحتملة، ليحكي له ويأتنس برأيه ثم يذهب لمقابلة المايسترو بعد ذلك.

استقر فنجانا القهوة أمام الشابين. ليُري سليمان صديقَه الدليل القاطع على صدق روايته:

ـ إيه دا يا سليمان؟! بتورّيني صورتك عريان في مراية الحمّام وتقول لي العفاريت كتبت لك؟!

ـ يا ابني بص! بص! ما لكش دعوة بيّ، يعني هتشوف الأمَلَة! بص على الكلام المكتوب في المراية! بص!

ـ أبص على إيه؟! انت هتتجنن يا سولي؟! دي شخبطه على مراية حمّام منديّة، يعني باختصار ممكن تكون إنت حاولت تمسح المراية ولا كان عليها حاجة، وبعدين لما استحمّيت النهاردا بخار الميّة خلّت الشخابيط دي تبان زي ما تكون كتابة، وانت بتقول ما نمتش امبارح، والواد أخو جارتك العيّان دا، وبعدين الحلم اللي انت حلمته، يعني كانت ليلة طويلة. اشرب قهوتك قبل ما تبرد يمكن تفوق؟ بص ازاي؟ كدا...

وبالفعل بدأ يقرن قوله بالفعل متناولًا فنجان قهوته وراشفًا منه الرشفة الأولى، ثم أشار لزميله أن يحذو حذوه.

امتعض سليمان قليلًا ولم ترُق له دعابة صديقه فاستطرد في شبه غضب:

ـ ما كانش حلم يا جلال! ما كانش حلم!

لعق جلال بقايا رشفة القهوة عن شفتيه وهو يغمغم:

ـ أمّال إيه؟

صمَت سليمان لبرهة محاولًا أن يجد التعبير المناسب، ثم ما لبث أن تهلّلت أساريره وهو يقول في حماس حقيقي:

ـ زي ما يكون وحي! صدّقني زي ما باقول لك كدا! كأن ملايكة كانوا شايليني ومودّييني على حتة في السما، مع إني ما سبتش السطح! لا.. بالعكس.. السطح هو اللي سابني! الحيطان طارت، والكومودينو طار، والهدوم والكتب ونوَت المزيكا طارت!

هزّ جلال رأسه في غير تصديق، وتوقّف عن رشفته الثانية قائلًا:

ـ هو انت منين متأكد إنك ما كنتش نايم بعد الليلة السودا دي؟

خبط سليمان على الطاولة في رفق وهو يهتف:

ـ لأني فاكر كل حاجة، ما عدا اللحن! ما هو أنا لو افتكرت اللحن أبقى متأكد من إن كل اللي حصل دا كان حقيقي.

ـ يا سلاااام! انت بتهزّر يا سولي؟ يعني هو انت ما ينفعش تحلم باللحن يعني؟

هرش سليمان فروة رأسه في حيرة، وهو يقرّ بمنطق صديقه ويهدأ قليلًا، إذ يرى الأمر كلّه قابلًا للتفسير من كل الاحتمالات والأوجه. هو متحمّس لكون ما حدث كان حقيقيًّا رغم صعوبته، على أن يكون وهمًا، ويقرّ بمراوغة عقله له.

رنّ تليفونه برقم لا يعرفه.

في تردد رد، فجاءه صوت ذكوري خشن يقول إنه مندوب الهانم، وإنه وصل حسب الموعد المحدّد ولكنه لا يعرفه. نظر سليمان حوله باحثًا عن أربعيني خشن يتحدّث في تليفونه المحمول فلم يجد.

ـ بُص حواليك، أنا قاعد مع واحد صاحبي في الكافيتيريا زي ما اتفقنا، أنا هاقف دلوقتي علشان تشوفني، أنا اللي شعره غريب شوية دا.

الآن يدخل المتصل في مجال رؤيته، مرتديًا البذلة السوداء الكاملة على قميص أبيض ناصع ونظارة شمس سوداء. شارب كثّ وملامح خشنة غليظة. جسد رياضي ممشوق ولا تبين عليه انفعالات. نموذج جيد لفرد أمن أو حارس شخصيّ كما يجب أن يكون.

امتدت يد عضلية خشنة تتناسب بشدّة مع خشونة الشكل والصوت:

ـ حاتم عارف. سكرتير المدام ومندوبها.

ارتبك سليمان وهلة، وأوجس خيفة وهو يمد يدًا مترددة:

ـ أهلًا وسهلًا.. مدام مين بقى؟

ـ مش مهم يا مستر سليمان، المهم إحنا عندنا حفلة كبيرة عاملاها المدام وكانت عايزة حضرتك تيجي تعزف فيها.

ـ وهي المدام سمعت عنّي منين؟

نظر الـحاتم عارف في ساعته الروليكس الضخمة في عدم اكتراث وهو يقول بصرامة:

ـ ما اعرفش، ومش مهم! أنا جاي في مهمة محدّدة وما عنديش إجابات.

ثم أخرج من جيب بذلته دفتر شيكات كأنه يخرج مسدسًا بالضبط وقدّم منه شيكًا لـسليمان الذي قرأ المبلغ المكتوب فاتسعت حدقتاه انبهارًا. ولكنه تململ وتلعثم قائلًا:

ـ يا أستاذ.. معلش بس يعني أصل موضوع الشيكات دا يعني.. مش متعودين عليه الصراحة.. ممكن كاش أحسن؟

ابتسم جلال الذي بدأ يتلذّذ بطبق حساء كريمة الدجاج بالمشروم الذي طلبه أثناء انشغال سليمان بهذا الحوار. ولكن المدعو حاتم لم يبدُ عليه أيُّ أثر للانفعال أساسًا، بل إنه وقف ونظر إلى ساعته الروليكس الثمينة مرّة أخرى متأهبًا للانصراف.

ـ اتعود عليها يا مستر سليمان.. اتعود عليها.. تحب العربية تستنى سيادتك الساعة تمانية بالليل فين؟

ـ عربية؟ سيادتي؟

نظر إلى صديقه باستغراب وهو يعبّ الحساء عبًّا مساقطًا بعضه على ذقنه ورقبته، والذي أبدى اندهاشه بدوره بإشاحة وجه ورفعة كتفين وخفضهما. رفع سليمان حاجبه مواصلًا الجدال والمناورة:

ـ طيب ما تقول لي المكان فين يا حاتم باشا، وأنا هاكون في الميعاد إن شاء الل‌ـه!

بالطبع هذا الـ«حاتم عارف» لم يحضر أذنيه لمثل تلك المقابلة، إذ إنه كرّر سؤاله السابق:

ـ العربية تستنى سيادتك فين يا افندم؟

فكّر سليمان أن حاتم هذا لا بد هو الجيل الحديث من الأنسر ماشين. لا يتبقى له سوى أن تضغط على أذنه لتعود إلى القائمة الرئيسة. أخبره أنه سيتصل به أو سيرسل له رسالة بعد أن يقابل المايسترو ليعرف أين سيكون في الثامنة مساء. أومأ برأسه مغادرًا. وقد أدرك سليمان أنه لا بد سيعود إلى الورشة التي جاء منها مرّة أخرى لتجديد الزيت أو تشحيم التروس.

كان جلال وقميصه قد شربا الحساء معًا، فغمغم من بين البقايا التي يلوكها في فمه:

ـ مش عايز مساعدة في الليلة دي يا صاحبي.. يكونوا عايزين شاعر في الحفلة ولا حاجة.. ولّا نعملهم الحتة بتاعتنا.

ـ حتّة إيه؟

ـ اللي عملناها في حفلة عين شمس.

جذب سليمان طبق الحساء من أمام صديقه باحثًا عن رفات، فلم يجد.

ـ هاسأل عم مازنجر دا اللي كان معانا لما أكلّمه.

سيتغيّب عازف هذه الليلة، وسيكون على سليمان أن يحل مكانه، سينتهي الحفل في العاشرة وموعده مع حاتم الساعة الثامنة. أخرج الشيك من جيبه ونظر مرة أخرى للمبلغ الكبير. ففكر أن يعتذر للمايسترو. ولكنه يعرف أن الاعتذار للمايسترو عادة ما يكون الأول والأخير، خصوصًا أن لديه سابقة تأخير. لأن المايسترو لن يطلبه بعد ذلك، نظر إلى الشيك مرّة أخرى في حسرة، فقد راوده خاطر أنه لن يصرفه.

بمنتهى الإحباط اتصل بـمازنجر وأخبره أن المايسترو طلبه في حفلة بالأوبرا الليلة وهو لا يمكنه أن يرفض وأنه لن ينتهي قبل العاشرة مساء. أخبره أنه سيسأل ويرد عليه. وبعد دقيقتين أرسل له رسالة «أوك.. ما فيش مشاكل.. العربية هتستناك عند الأوبرا الساعة عشرة بالظبط».. تهلّلت أسارير سليمان وكاد يرقص فرحًا والشيك في يده. تذكّر شيئًا فأرسل متسائلًا عن إمكانية جلب صديقه الشاعر. أخبره ثانية أنه سيسأل ويرد. وبعد دقيقة جاء الرد مرة أخرى على شكل رسالة «أوك.. ما فيش مشاكل.. العربية هتستناكم عند الأوبرا الساعة عشرة بالظبط».

يبدو أنّه الآن على قمّة موجة مواتية وعليه أن يستغلها بأقصى شكل ممكن.

بالطبع مع هذا المزاج الرائق جاء أداؤه مع الفرقة ممتازًا، خصوصًا أن دوره اليوم كان «كمان أوّل» مما حدا بالمايسترو بأن يطلب لعازفه الشاب بتحية خاصة من الجمهور. مع انسجامه واتسّاقه مع ما يعزف أحسّ أنه موشك على الوصول مرة أخرى وتَذَكُّرِ لحن الليلة الماضية.

٤. صولـو هنــد

مارست هند طوال حياتها كل ما يجب.
كل ما هو معتاد ومتوقع.
كل ما هو بديهي، ورئيسٍ، ولازم، ومطلوب.
كأن حياتها كانت بلا أحداث فعلية.
إلى أن تغيّرت حياتها ذات يوم، وكثير من حيواتنا تغيّرها لحظة. لحظة تلمس داخل أرواحنا شيئًا ما، شيئًا كان طوال العمر مخبوءًا بلا شواهد أو مقدمات. مجرد ڤيديو قصير على الـيوتيوب شاركته صديقة لها على الـفيسبوك عن فتاة ترقص وهي تعزف الكمان اسمها ليندسيي ستيرلنج تحت عنوان «عازفة الكمان الراقصة».
وجدت هند نفسها مأخوذة روحيًّا وجسديًّا تجاه الأسطورة التي تتراقص وتعزف أمامها كأنها جنيّة مصباح برزت من بين صفحات ألف ليلة وليلة.
كان قد سبق لها مشاهدة فريق نسائي للكمنجات اسمه «بوند» وكان عزفهن وتناغمهن بديعًا للغاية. ولكنهم لم يُحدثوا نفس هذا الأثر في روحها، ربما مهّد الطريق، لمَس وترًا ما. وحين بدأت تتابع عازفي الكمان الآخرين، ربما لمس صموئيل يارفينيان بإبداعه العبقري وترًا آخر، والوتر الثالث كان اسمه جهاد عقل لتأتي ليندسيي ستيرلنج بمثابة الوتر الرابع في آلة كمانها الخاصة.
هكذا أدركت للمرة الأولى ما ترغب في فعله حقًّا، فبدأت هند في تلمّس طريقها نحو هذه الآلة البديعة.
يقولون إن من يتعلّم الكمان يحوي داخله شجنًا خاصًّا بلا شك، لذا فإنك للوهلة الأولى ترى على وجوه عازفيه بعضًا من ألم. وهل كانت حياة هند السابقة سوى بضع محطات من ألم؟
الفتاة المتوسطة الجمال، المعتدلة القوام، التي لم تكن لها مميّزات خاصة سوى طيبتها البالغة وسخائها اللامحدود في العطاء، نشأت في عائلة متوسطة الحال من الذين يضيقون بظروف الحياة اليومية ويتمنّون دومًا لو أنهم كانوا أشخاصًا آخرين. والدها موظف نشأ هو الآخر في كنف عائلة متوسطة هي النسخة الحالية لسلسال عريق من العائلات المتوسطة، ولن تتعجب حقًّا لو وجدت أن أسلافهم الأوائل كانوا من العمال الذين شاركوا في بناء الأهرام، وأسلافهم الأقرب تاريخيًّا كانوا من الذين قضوا نحبهم وهم يحفرون قناة السويس بأيديهم حتى ذابت ليظهر العظم منها بسبب المواد الكيماوية الحارقة

التي كان يحتويها الطمي بلا أدوات ولا إمكانيات.
نفس العائلة التي لديها كل شيء عادي من الموجود في أي منزل وتم شراؤه بالأقساط المتراكمة أو الجمعيات التي تمكنوا بجهد جهيد من استيفائها حتى نهاية مدّتها. ولكنهم كانوا محظوظين للدرجة التي لم يُسجن عائلها لأنه لم يتمكن من تسديد أقساطه مثلًا يومًا ما وصار من الغارمين الذين يتشدّق رجال الأعمال في إعلاناتهم التليفزيونية المدفوعة الأجر بمساعدتهم. لولا أن مثل تلك الحياة تغيّر من تركيبة هذا العائل فيغدو عصبيًّا قلقًا على الحافة طوال الوقت. تتحوّل التركيبة تدريجيًّا فيستبدل قصر ذات اليد بطولها. لتبدأ الحكاية بضرب الأم ذات يوم، ثم بقية إخوتها. وحتى هي الوادعة الهادئة المطيعة لم تسلم من تلك اليد التي تبطش بهم ولأتفه الأسباب، وأحيانًا بلا أسباب أصلًا. هي نفس اليد التي تستطيل في العمل لتمتد لما يمكن أن تطاله بدعوى حاجة أو أمن من عقوبة.
اكتملت دائرة تطوّر الوالد كيرقة تتحول إلى دودة أرض وليست فراشة، فتضاعفت عدد سجائره وبدأ في تعاطي بعض المواد المخدّرة ذات الانتشار الواسع التي تحوّلت إلى شبه معتادة في مثل تلك الأوساط.
وصار المسخ المشوّه كابوسًا حيًّا يمشي على قدمين.
لم يستمر الحال بالفتاة الرقيقة الحال والمشاعر المكتفية بالتربيت على أمها حين تبكي، أو احتضان أخيها حين تضاف لملامح وجهه خطوط أربعة متوازية اعتيادية من الوالد. بل تطوّرت هي الأخرى وتحوّلت يرقتها لفراشة حالمة فخلقت لنفسها عالمًا افتراضيًّا موازيًا تحقّق فيه أمنياتها. اجتهدت في بعض الأحيان فاصطنعت لنفسها مدوّنة سمتها «أميرة الأحزان» وهو ما بدا لها مبتذلًا للغاية، ومعتادًا إلى حد الملل. فاكتفت بالكتابة عليه مرّات لا تتجاوز عدد أصابع اليد الواحدة، ثم توقفت لأنها لم تجد في نفسها القدرة على التعبير بالكتابة. حتى جاءت لحظتها التاريخية الفارقة، وأدركت كُنه عالمها الموازي المكوّن من نغمات دو وري وصول راقصة على سلم متماوج من ألحان شجيّة، وهو العالم الذي بدأت تدريجيًّا تتلمّس طريقها إليه، لولا أنها اختارت لنفسها طريقًا صعبًا للغاية.
كل من يعزفون الكمان ويبرعون فيه، بدؤوا خطواتهم الأولى في سن مبكرة للغاية، لذا كان هذا معوّقًا لها. لكن أن يضع المرء لنفسه هدفًا وحيدًا، وأملًا منقذًا، وطريقًا لا مناص منه للولوج إلى أرضها المقدّسة، يجعل من الصعب ممكنًا، بل من المستحيل في أحيان أخرى مقبولًا وقريبًا للغاية من حيّز التنفيذ والتحقّق.
استقطعت من عملها المتواضع ضمن طاقم السكرتارية الكبير لشركة ضخمة بضعة جنيهات وفّرتها عبر الأيام والشهور، مشارِكةً عائلتها بأغلبية دخلها، وحارمةً نفسها أمورًا كانت تبدو لها فيما مضى من الأولويات. من هذا الجزء

السرّي المقتطع بمباركة من الأم والأخ الأصغر، استطاعت أن تنفق على دروس الكمان، بل تمكّنت بجهد جهيد أن تشتري لنفسها كمانًا صغيرًا مستعملًا، أبقته مخبوءًا لدى ابنة خالتها التي تسكن غير بعيد عنها، فتمر عليها في الرواح والغدوّ، حريصة كل الحرص ألا يراها والدها الذي لن يتفهّم ولو بعد مليون سنة رغبات ابنته الكبرى، وسيصب جام غضبه عليها. وهل سيجد المسخ الغاضب طوال الوقت فرصة أفضل من تلك ليفرغ بعض الشحنات المكبوتة داخله، كما لو أن مصنعًا ضخمًا للغضب اللامعقول قد اتخذ من جسده مخزنًا لبضاعته؟! تتحسّر هي على بضع لحظات قديمة تتسرّب أحيانًا كمادة فيلمية خاطفة من حياة سابقة كانت فيها علاقتهما كأب وابنته على غير ما آلت إليه الأحوال.

واستمرّت هند في دروسها دون تقدّم ملحوظ.

لكنّها لم تكن لتسمح لنفسها باليأس هذه المرة.

إذا وجد المرء حاله كما هي لفترة طويلة رغم اجتهاده ومواظبته على ما يفعل، فلا بد للمرء أن يتساءل. تمامًا كألعاب الڤيديو، يحتاج المرء لأن يترقّى فيها للمستوى الأعلى ويصل إلى الـ(ليڤل) الجديد، ثم الآخر، فالذي يليه، وهكذا فإنك إن ظللت في نفس المستوى لفترة طويلة فاعلم أن في اللعبة سرًّا لم يتكشّف لك بعد. هذا ما أدركته هند بعد فترة من دروس العزف. لذا فهي لم تحتجْ إلى كثير من تفكير حينما أوعز لها زميلها أسامة كي يقفزا من السفينة الموشكة على الغرق، فتمرّدا وانقطعا عن استكمال ما تبقى من الـ(كورس).

لم يعنِ هذا تخلّيهما عن حلمهما المشترك لإتقان عزف الكمان.

إذ أخبرها أسامة عن ذلك العازف الشاب العبقري الذي يعطي دروسًا خاصّة بأسعار زهيدة، وشبّهه لها بكل أساطير الكمان الذين يمثّلون لها ملوكَ وأمراءَ مملكةِ الحلم التي تتمنّى العيش فيها كل يوم وليلة.

بالطبع لم يكن التجويد والارتقاء للمستويات التالية حلم أسامة الوحيد من هذا القرار، فالرجل الخجول حين يعجب بفتاة ما، يحاول بقدر الإمكان أن يقلّل المنافسة حوله، ويختلق الظروف الثنائية الاستثنائية، التي تمهّد بطبيعة الحال لمحاولات هذا الخجول لاستجماع شجاعته ومن ثمّ مصارحة فتاته بإعجابه. يبدو هذا صعبًا وسط مجموعة، ولكنه ممكن للغاية في درس خاص من فردين.

وجدت هند نفسها، ودون أن تدري، موافقة ومواتية لخطة زميلها الذي أحس أنه قد أخلص الدعاء في صلاةٍ ما ليستجيب له الله على هذا النحو، وبهذه الكيفية السهلة.

تختلف مبرّراتنا لبعض الأفعال، حتى إن تطابقت النتائج وتشابهت الطرق في النهاية.

ولأن المطالب لا تُنال بالتمنّي، ولكن تؤخذ الدنيا غلابًا، وجد أسامة نفسه مترددًا، خائفًا رد الفعل، متلعثمًا في أغلب الأحيان، مثبتًا أن الرجل الخجول لا

مكان له في دنيا الغرام إلا في مقاعد المتفرجين، حتى لو كان قصده ومراده سهلًا ممكنًا وفي متناول اليد كـ«هند».
لم يدرك أيضًا أنه بإقناعه إياها أن تأخذ معه ذلك الدرس الخاص مع ذلك العبقري الشاب، قد وضع هند دون أن يدري في مواجهة مباشرة مع أمير حيّ في مملكتها الخاصة، أمير من لحم ودم يمكنها التحدّث إليه وسماع صوته إن أرادت.
تمامًا كأي رتاج مغلق مستعصٍ على الفتح إلا بمفتاحه الخاص.
كان هذا المدرّس الخاص هو المفتاح الذي وضع يد هند على ما تمتلكه من قدرات مدفونة، فبدأت تتحسّن تدريجيًّا إلى الحد الذي بدأت معه في عزف مقطوعات لأندريه ريو العظيم، وبدرجة إتقان أثارت إعجابه، بل تظهر أحيانًا في بعض الحفلات الخاصة باستعراض مواهب الهواة الشابة.
لم يتمكن أسامة أبدًا من مواكبة تطورات زميلته، ولا أن يرضي طموح مدرسّه الخاص، فبدأ يستشعر ندمًا لأنه هو من أوعز إليها بهذه الفكرة. الرجل الخجول لا يغار من تفوّق أنثاه عليه، هو فقط بدأ يستشعر تباعد المسافة، خصوصًا مع درجة الإعجاب التي بدأت تتزايد ما بين التلميذة والأستاذ.
أسامة الذي اعتاد كثيرًا الانسحاب، حتى قبل خوض المعركة.
فضّل أن ينسحب مرّة أخرى، عاملًا بنظرية «إنها لم تكن يومًا لك».
ويتحوّل الأمر بهند إلي درس خاص للغاية.
درس منفرد أو «صولو» كما يسمون العزف المنفرد في الموسيقى.
كانت هند تغترف من أستاذها، وكان الأستاذ معجبًا باستجابة تلميذته وتفوّقها.
بدأت الدروس تزداد، في العدد والزمن، حتى إن بعضها إن لم يكن أغلبها صار مجانيًّا.
أشرقت الوردة البائسة وبدأت تستشعر بعضًا من أمل في الحياة، فقد كانت تعيش في عالمها السعيد أوقاتًا أكثر. بل إنها ضبطت نفسها أكثر من مرّة وهي تساعد أمّها في إعداد الطعام، أو تساعد أختها الصغرى في الاستذكار، وقد اتخذّت أناملها وضعية العزف، فتنغلق عيناها، وتقلّد يدها اليسرى شكل اليد المخلبية وتتلاعب أناملها مع الهواء، بينما تنغلق يدها اليمنى في قبضة محكمة كما لو أنها ممسكة بقوس تخيّلية، لتبدأ في تحريكها للأعلى وللأسفل في عزف وهمي. نبّهتها أختها، وحذّرتها أمها كيلا ينتبه الوحش الذي لم ترتقِ هند بعد في لعبتها إلى الـ(ليڤل) التي ستقابله فيه!
كانت هند واثقة إلى حد اليقين أن ثمّة شيئًا خاصًّا يجمعها بأستاذها، وأنه لا بد يبادلها المشاعر ذاتها التي بدأت تعترف لنفسها بها مؤخرًا، للدرجة التي فكّرت فيها أن تستأنف الكتابة، مع تغيير عنوان المدوّنة إلى «أميرة الأحلام»!
ربما أحدهم قد اكتشف شيئًا مميّزًا حيالها.

أنها مختلفة بطريقة ما.
منذ متى بدأت هند تهتم بتناسق الألوان في ملابسها، أو أن يكون شعرها مصفّفًا على نحو يليق، أو أن تضع عطرًا ما، حتّى لو كان مجرّد النسخة الرخيصة المقلّدة لماركة باريسية شهيرة؟!
ولكن حتّى هذه اللمسات الخفيفة تبدو كافية في مرات عدّة لتحويل فتاة شبه عادية، إلى فتاة شبه فاتنة. الجمال مجموع كثيرٍ من الأشياء، فلو أن جمال الروح اجتمع معه بعض القبول في الشكل الخارجي، مع بعض الاهتمام، لصار المزيج مفاجئًا.
حتى جاءت تلك المرّة فاعتذر الأستاذ لمرضه، ظلّت تتّصل به مرارًا وتتأكد من أخذه للدواء في كل مرة يحين فيها وقت الدواء، بل حين يصل الوقت إلى الحد الذي لا يمكن الاتصال فيه، فإنها تستأنف التواصل من خلال وسائل التواصل الاجتماعية الأخرى.
وحين التقيا في الأسبوع الذي يليه، أحضرت له باقة من الزهور.
تناولها الأستاذ في تلقائية، وتردّد قليلًا عند قراءة الجملة الموجزة على البطاقة المرفقة:
«قلقتني عليك.. سلامتك».
ارتبك الأستاذ قليلًا، ولم يجد ما ينطق به.
التقطت هي الخيط، وحاولت أن تزيل الحرج والتوتر، فنطقت هي:
ـ شكرًا لتعبك معايَ، اللـه لا يحرمني منك.
ربّت سليمان على يدها في رفق.
ذلك الرفق الذي بثّ في جسدها الكهرباء، ووجدت الدم يتصاعد إلى وجنتيها، واستشعرت حرارة لم تستشعرها قبلًا تتصاعد إلى وجهها فتعرّقه.
بدأ الدرس...
هو ظل مرتبكًا مفكّرًا فيما تعنيه كلمات البطاقة وباقة الورد، وقد بدأت ذكرى قديمة مؤرقة إلى حدٍّ ما.. تراوده.
وهي ظلت مرتبكة وفاقدة للتركيز من أثر لمسة اليد، وقد بدأت ذكرى حديثة تتكوّن وتتشكّل داخل روحها.
لذا فقد جاء القرار المشترك بالتوقف في الحصة عند هذا الحد منقذًا لكليهما.
غادرت هند وهي فعليًّا تمشي على خيطين رفيعين من ساقين لا تقويان على حملها.
على حالتها تلك من الارتباك وعدم التركيز ونشوة اللمسة العابرة فقدت هند حذرها، هكذا وجدت نفسها وقد تجاوزت بيت ابنة خالتها واقتربت كثيرًا من منزلها. ترددّت مرة أخرى، واحتارت بين أن تصعد بالكمان إلى شقّتها والإسراع

في إخفائه سريعًا قبل عودة والدها من عمله الثاني، وبين أن تعود مرّة أخرى لابنة خالتها لتترك الكمان عندها كما هو المعتاد، فهي خائفة إن تركت كمانها بالمنزل أن يعثر عليه والدها بطريقة أو أخرى، أو على أسوأ الفروض لا تتمكن أن تغادر المنزل به عند موعد الدرس التالي، فتخسر نافذتي التنفس: درس الكمان، ولقاء سليمان.

وهكذا حزمت أمرها واختارت الطريق الثاني.

طرق مختلفة ونهاية واحدة وضعت والدها في مواجهتها مباشرة.

تجمّد الدم في عروقها.

ارتجفت، ارتعدت، تلعثمت، وكادت تسقط مغشيًّا عليها وقد بدأت تحتضن كمانها الصغير في قوة أمٍّ تحتضن وليدها الذي يهمّون بانتزاعه من دفء صدرها بمنتهى القسوة والعنف.

دوار أسود يكتنفها، ريقها جاف، وحلقها كأرض بور أوشكت أن تتشقّق.

نظر إليها الوالد نظرة صارمة من فوقها لتحتها ولم يحتجْ إلى كثير من قوة ملاحظة ليكتشف كُنه الوليد المزعوم.

ألقى سيجارته غير المنتهية أرضًا، ودهسها في قسوة.

لم ينطق.

لم يتساءل.

لم يكلّف نفسه عناء التواصل الإنساني.

فقط مدّ يده في حسم وانتزع وليدها بحقيبته من حضنها.

ذراعاها المتشبثتان، وحضنها الدافئ وروحها المتعلّقة وتوسلات عينيها المغرورقتين بالدمع، لم تتمكن جميعها من الاحتفاظ بحقيبة الكمان في مواجهةِ يدٍ واحدة.

وحين نطق للمرة الأولى.. كانت الكلمة سبابًا قذرًا.

عندها أدركت هند أن اختلال والدها قد وصل إلى درجاته القصوى.

لكنها في وجل ورعب شديدين مدت نحوه يديَن واهيتَين كدخان سجائره، تستعطفه وتسترحمه بكل ما هو نفيس وغالٍ.

لكن من يعيد طلقة الرصاصة إلى فوّهتها بعد التصويب؟

من يعيد السيف إلى غمده بعد أن يسبق العذل؟

هكذا ألقى الأب بكل ما أوتي من قوّة بحقيبة الكمان أرضًا.

وانخلع قلبها من صدرها وهي تسمعه يتهشّم.

الأب لم يتوقف عند هذا الحد، بل زاد بدهسه مرات عدّة كي يتأكد أن روح الكمان قد أزهقت، وأنه تفتّت كليّةً.

وهكذا غادرها مشعلًا سيجارته الجديدة، ومغمغمًا بسبابات أخرى لم تتبيّنها.
افترشت هند الأرض بجانب حقيبة مهترئة، وكمان متحطّم، تبكي وتنشج وتنتحب في قلة حيلة.
إحساس بالغ بالضآلة والقهر.
إحساس بالخزي والعار والعُري.
تنفصل عن العالم بأكمله فلا يصل إلى أسماعها سوى خبطات أكف عدم التصديق ومصمصات شفاه الشفقة. بينما كل ما تمخّض به والدها قبل أن يجهض وليدها الحبيب الوحيد في هذه الدنيا.
هي كلمات سباب.. سبابٍ قذر.

٥. أوسنييا وإيليماااه

ظلت حسنية طوال الأيام التالية تحلم بحضن سليمان.
بل إنها ضبطت نفسها أحيانًا وهي تحيط جسدها بذراعيها بغية استحضار الإحساس نفسه مرة أخرى، تقف أمام المرآة وتحتضن نفسها، ثم تظل تلف حول محورها كأنها تؤدي ڤالسًا من ڤالسات الدانوب الأزرق.
هي تعلم أنه لم يقصد منه شيئًا، بل إن الأمر لا يعني شيئًا أصلًا. ولكن كل هذا لم ينسِها ذلك الحضن، بكل الدفء والاحتواء والشعور بالأمان. آمنت طوال عمرها بأن الحضن هو أرقى تعبير للمشاعر الإنسانية، لذا فإن أبقى شعور للمرء بعد أن يكبر هو أحضان أبويه له وقت أن كان طفلًا. فما بالك وهي التي حرمت أبوَيها قبل حتى أن تأخذ من حضنهما ما يكفي، دون سابق إنذار أو تحذير. تجاهد لتذكر آخر حضن، فلا تستطيع. حتى كان حضن سليمان الذي جاء في وقته تمامًا، حيث منتهى شعورها بالتيه والضياع، بالضعف وقلة الحيلة، بظلم الدنيا وقسوة الحياة. تذكرت أن الحضن ليس هو ذلك التلامس الجسدي الذي ربما يتلوّث بالرغبة أو يشوبه الاحتياج الجسدي، ولكنه احتياج روحي بالمقام الأول، وربما يتخذّ أشكالًا غير مادية، أو على الأقل أقل ماديةً من ذلك الاشتباك الجسدي المتبادل. فالحضن ربما يكون غير ماديٍّ بالدعاء، بالكلام، بالنظرات، أو بشكل أقل ماديةً مثل لمسة يد أو تربيتة على كتف.
فكّرت كثيرًا أن تصعد له ثانية في عليائه التي يطلق عليها البعض سطحًا بصورة خطأ.
هم لا يدركون أن أميرًا يقطن هذا السطح.
وأنه يعزف ألحانًا جديرة بإعادة إحياء الأجساد الميتة واسترجاع الحيوات في معجزة إلهية لا بد أن اللـه قد ضمّنها هذه النغمات العبقرية التي يعزفها سليمان.
فكّرت أن تشكره على وقوفه بجوارها تلك الليلة الليلاء.
هل هذا حقًّا ما تود أن تشكره عليه؟
أم هو ذلك الأمر الذي غيّر حياتها وقلبها رأسًا على عقب.
إنه ذلك الشيء الذي جعل حسنية تعرف عن نفسها ما لم تكن تعرفه من قبل.
أيكون صحيحًا أن عينيها الآن أكثر لمعانًا، وأن بشرتها ربما صارت أنضر؟
هل حقًّا صار جسدها أجمل وأكثر اتساقًا، وأن ملابسها السوداء الثابتة التي لا تغيرها قد صارت أكثر ملائمة ومبدية لفتنتها التي لا تخفى عن الأعين الخبيرة

المُراقبة.
صار ظهرها مستقيمًا ووقع خطواتها أعلى.
تنظر إلى الآخرين في أعينهم كأنها تقول لهم صراحة إن ثمّة من يهتم لأمرها.. إن فارسها المغوار يمكنه أن يساعدها حتى في أحلك أوقات الليل، سيخفّ سريعًا لنجدتها، وسيشعرها بالأمن والأمان بحضنه السخيّ الدافئ باستمرار.
يقطع استرسالها صوت طرقات خفيفة على الباب لتجد سيدة منتقبة دعتها للدخول مرحبةً بها في توتر:
ـ أهلًا أهلًا أم زياد.. اتفضلي.
أم زياد هي زوجة نادر الأولى التي تقيم مع ضرّتها أم عبد الرحمن خلف نفس الباب المقابل لبابها مع خمسة من الأنجال، كلهن إناث. ولكنها لم تعرف للمرأتين سوى هذين الاسمين!
كانت المرأة تستأذنها كي يزورها أبو زياد الذي لم تعرف أيضًا من أين اكتسب هذا الاسم؟
لم يكن أمامها خيار الرفض فقالت في لهجة مُدَّعاة:
ـ يتفضل يا اختي؛ بيته ومطرحه، دا احنا اخوات ومتربيين مع بعض، والحاجة أم نادر اللـه يرحمها هي اللي مربياني، ألف رحمة ونور عليها.
قبل أن تختتم عبارتها السابقة تنحّت أم زياد جانبًا ليدخل نادر وزوجته الأخرى من الباب الذي ما زال مفتوحًا وملقيًا التحية:
ـ السلام عليكم ورحمة اللـه.
ردّت المرأتان السلام في صوتين متداخلين.
غادرتهما حسنية لتعود حاملة أكواب الشاي لتبتدرها أم زياد بالغرض من الزيارة:
ـ بصّي بقى يا ست حسنية. قعدتك لوحدك كدا ما تنفعش. والست ما لهاش غير الجواز، واحنا عارفين إنك شايلة حمل تقيل، والمحروس أخوكِ ـاللـه يشفيهـ طلباته كتير.. دكاترة وعلاج ورعاية، فالحاج أبو زياد كان شايف يعني، إنه...
التقط نادر خيط الكلام من هنا.. مكملًا ما بدأته زوجته الأولى:
ـ الصراحة يا أخت حسنية، أنا كان لي غرض إني أشيل عنك الحمل، والشرع حلّل مثنى وثلاث ورباع، والواحد ـالحمد للـهـ مقتدر، ماديًّا وجسديًّا، وزي ما انتِ شايفة.. الحاجة والحاجة راضيين وموافقين بدليل إنهم جايين معايا لاجل ما أطلُبك في الحلال، وأريّحك يا بنت الحلال من البهدلة اللي انتِ فيها دي.
لم يكن الطلب مفاجئًا لها، فقد سبق أن طلبها نادر للزواج قبل زواجه الثاني أم عبد الرحمن مباشرةً. تعرف حسنية بحس الأنثى نظرة نادر إليها، ورغبته في الاقتران بها، ربما منذ البداية قبل أن يتزوج حتى أم زياد.. وبالرغم من غرابة

الطلب إلا أن حجّتهما تبدو للوهلة الأولى سليمة، خصوصًا أن سوقها غير رائج في هذا المجال.. فمن ذا الذي يرغب في الاقتران بها وبأخٍ معاق مريض في آنٍ معًا؟

ـ بصّي يا حسنية.. خلّيكِ في بيتك ومع أخوكِ.. بس كل مصاريفك وعلاج محمود عليَّ.. وطبعًا حقّك الشرعي هتاخديه بالعدل، هبات معاكِ يومين في الأسبوع، وكل تالت جمعة، دا شرع ربنا، وإنتِ عارفة إني أعرف الشرع كويس.

أمّنت أم زياد على كلامه وأضافت:

ـ وأنا وأم عبد الرحمن هنكون اخواتك، وهنساعدك يا اختي في رعاية سي محمود اللـه يشفيه. والبيتين هيكونوا مفتوحين على بعض.. دا كفاية إن الباب في الباب.

رفعت كفّيها في وضع الدعاء، بينما نادر يحتويها بعينيه الذئبيتين.. هو نوع من النظرات التي لا احتضان فيها ولا احتواء ولا إشعار بالأمان، بل هي تلتهمك وتعرّيك وتشعرك بالحرج وعدم الاطمئنان.

ـ نقرا الفاتحة بقى يا حسنية، ونقول ألف مبروك؟

متقنًا لدوره هو الآخر، رفع نادر كفَّيه في نفس الوضع تمهيدًا لقراءة الفاتحة الجماعية، ثم ما لبثت أن حذت أم عبد الرحمن حذوهما.

حسنية القديمة كانت سترتبك في هذا الموقف.

توافق للنجاة بنفسها من إلحاح شخص وحيد يرغب فيها، ونظرات مجتمع لا ترحمها.

ربما كانت سترضخ وتخضع وتستسلم.

حسنية الحالية ليست كذلك.

حسنية الحالية وقفت ممشوقة مفرودة الظهر بعينين لامعتين.

حسنية الحالية تكلّمت بصوت واثق لا يهتز:

ـ الفاتحة نقراها لو وافقت يا حاجّة.

مستدعيةً حضن سليمان الآمن الذي يمنحها القوة.. بدأت في اتخاذ خطواتها جهة الباب الذي ما يزال مفتوحًا:

ـ خطوة عزيزة يا حاج، متشكرة قوي، ربنا ما يحرمناش من طلّتكم.

نظر نادر إلى زوجتيه في عدم تصديق فقد أعد خطته جيّدًا، فقال في لهجةٍ بدأ يتسرّب إليها الغضب:

ـ الجواز أكيد أحسن من إن الواحدة تدخّل حد غريب بيتها في نصاص الليالي.. ولا إيه يا حسنية؟ دا حتى يبقى حرام ويتهزّ له عرش المولى عزّ وجلّ.

تعترف حسنية أن كلمات نادر هزّتها قليلًا بما تحمله من تهديد مستتر.. إلا أن منسوب الشجاعة لديها لم يكن قد تناقص للحد الذي يجعلها تتراجع.

ـ متشكّرين يا حاج على النصيحة، ربنا يهدي الجميع.
يأتي الآن صوت محمود الواهن المشوّه مناديًا أخته:
ـ أووسنييا، يا أوووسنييا.
تتقدّمهم حسنية للباب تفتحه لآخره مستأذنة:
ـ معلش يا جماعة الواد محمود بينده عليَّ. تلاقيه غرّق ملايته ولا حاجة وعايزني أغيّرها له. ما تآخذونيش، ما نجيلكوش في حاجة وحشة، نوّرتونا الشويتين دول، ربنا يخلّيكم.
انسحب أبَوَا زياد الذي لا وجود له، يجرجران أذيال الخيبة وعدم التصديق، ومعهما أم عبد الرحمن الذي لا وجود له هو أيضًا.
كأن عاصفة قد مرّت من هنا.
أحسّت حسنية بقلبها يخفق في قوة، وأسندت ظهرها إلى الباب لتغلقه في تنهيدة كبيرة ونداءات محمود المتكرّرة خلفية للأحداث، ولكن الباب لم ينغلق.
كان يصل إليها الآن أصوات الصياح المتبادلة بين نادر وزوجتيه، ثم صوت بابهم يصفق في قوّة. كان كابوسًا مقيتًا، ولكنه مرّ عليها بسلام.
في هدوء كالمنوّمة بدأت تطير في رفق فوق الأرض قليلًا باتجاه غرفة محمود الذي صدق ظنّها فيه. ودون ضجر أو تأفّف، أحضرت طبقًا كبيرًا ملأته بالماء الدافئ وقليلٍ من سائل استحمام برائحة الياسمين. بوحْيٍ من موسيقى تنبعث من داخل حسنية وتتصاعد لتشمل روحها وكل جوارحها، بدأت تنزع ملابس أخيها المبتلة قطعةً قطعة، دون تأفّف أو إحساس بالخجل. في الواقع إن حسنية ظلّت طوال تلك السنوات تتعامل مع الأمر على أنه ابنها الذي لن يكبر. أيُّ أم تتأفّف وهي تغيّر لصغيرها ملابسه؟ أيّ أم تلك التي استشعرت تقلّصًا في معدتها وهي تزيل بيديها العاريتين أوساخ فلذة كبدها؟ هل عَرَفَ الكون يومًا حبًّا يفوق في قدرته حبَّ الأم؟ هكذا تولّد بين حسنية وأخيها المعاق المريض نفس هذا الحب. لذا فإنه حين يصير الطفل الرضيع حملًا ثقيلًا على أمّه، سيصير محمود بالنسبة لها كذلك. ألا يعرف نادر وزوجتاه أن حجّتهما بالنسبة لها واهية، وأنها تعرف رغبته الحقيقية؟ حقًّا أي امرأة يعجبها أن تكون مرغوبة، ولكنها أبدًا لا يعجبها أن يكون الأمر ماديًّا صِرفًا. أن تتحوّل إلى سلعة تباع وتشترى. أن يكون حبُّه لها نابعًا من رغبة الآخر في اقتنائها لوامتلاكها ضمن ما يملك. من الممكن أن تكون ظروف المرء صعبة، وحياته ضيّقة، وعيشته ضنكًا، لكنّه لا يعني بالتبعية أن يكون رخيصًا أو بلا ثمن. أن يكون للمرء سعرٌ ما، مهما زاد وغلا، فهو في النهاية يعني أنه رخيص، بلا قيمة حقيقية. وهي لن تشتري الأمان الزائف بتحويل نفسها إلى شيء ماديّ رخيص، مهما استحكمت حلقات دوائرها.
كانت حسنية قد أنهت تحميم أخيها، وبدأت تمشّط له شعره وهي تدندن لحنًا لا تعرفه، ولكنها تحفظه. جلبت زجاجة عطر رخيصة مقلّدة من التي يتم تعبئتها

يدويًّا ورشّته بها. ثم اقتربت من رقبته تتشمّمه مغمضة العينين وهو يبتسم في سعادة حقيقية، فتبين أسنانه المقوسة المشوّهة التي يختلط سوادها بصفارها. تهتف في إعجاب:

ـ برنس واللـه يا حودة، برنس!

قبّلها محمود في الهواء بصوت مسموع وهو يقول:

ـ حِبّك أاااوي أوسنييا.

ـ وأنا باموت فيك يا حبيبي.

أجفلت حسنية وارتعدت، ثم تفلت في فتحة صدرها المفتوح، حين سمعت تصفيقًا خفيفًا متتاليًا عند باب الغرفة. نظرت جهته في دهشة فشهقت:

ـ سي سليمان؟ آ.. آ... آ.. إيه دا؟ إنت دخلت منين؟ إنت جيت ازاي؟

استمرت الرعدة في جسدها إذ وقعت عيناها عليه. بدأت تستشعر توقًا شديدًا لحضنه وتربيتته. لا يوجد أي أثر للرغبة في نظراتها.. بل هو فقط نوع من الرنوّ الحاني.. الشوق العفيف الإنساني بلا شهوة.

أطرق سليمان بوجهه بينما ابتهج محمود لمرآه مرددًا في سعادة:

ـ إيليمااه، إيليمااه، هيييييه هيييييييه.

اعتبر سليمان تلك البهجة ترحيبًا كافيًا، فاقترب من محمود يسلّم عليه ويقبّله في رأسه. مفسّرًا ومعتذرًا في آنٍ معًا:

ـ آسف واللـه يا حسنية، ما كانش قصدي، بس أنا اتوغوشت لما لقيت الباب مفتوح. وما فيش حس ولا خبر، فدخلت لاحسن يكون فيه مشكلة ولّا حاجة.

كان من المفترض أن تغضب، أن تثور، فقد كان منطقه واهيًا جدًّا، وتصرفه أخرق جدًّا.

أن تطرده وتسبّه لدخوله عليهما هكذا دون استئذان.

أن تجري نحوه وفي سرعة شديدة لتلقي بنفسها في حضنه.

أيًّا كان المفترض، فهو لم يحدث.

ولكن تصارع المفترضات أنتج نوعًا من اللوم الضعيف مفتقد الطاقة والوازع، فجاء على نحو غير مقنع:

ـ طب مش كنت تخبّط ولا تتنحنح ولا حاجة يا سي سليمان، هو كدا يصح برضك؟

كان الاعتراض المائع يحمل من غنجه ودلاله أكثر مما يحمل من غضبته وتقريعه.

إلا أنه كان كافيًا ليشعر سليمان بحرج موقفه فعلًا، مدركًا أنه مخطئ على نحو ما، لا يحتاج إلى لفت النظر أو التوجيه. فاعتذر في صدق أخجلها، أطرق بوجهه أرضًا، وغمغم وهو يتخذ طريقه للخروج:

ـ الحمد للـه إني اطمّنت عليكم. وآسف إني دخلت عليكم كدا من غير لا إحم ولا دستور.
لا يدري الآن حقًّا ما الذي دفعه للدخول هكذا واقتحام منزل بلا دعوة. أيصدّق فعلًا الحُجّة البليدة التي اتخذها لنفسه عذرًا؟ أم تراه استشعر حنينًا من نوع ما لضعف حسنية واحتياجها له. الحقيقة أن الحضن لم يغيّر حسنية وحدها، بل إنه على نحو ما ترك أثرًا داخل سليمان. لا يثير الذكر أكثر من استشعاره باحتياج الأنثى له. لا نتحدث هنا عن الاحتياج الجسدي، بل الاحتياج المعنوي.. ذلك الذي يعيد للذكر ذكريات أسلافه الأوائل من رجالات الكهف النشطاء، هؤلاء الذين كانوا يجوبون الأرض حثيثًا بحثًا عن طعام أو كسوة، ثم يعودون آخر النهار منهكين لأكناف زوجاتهم وعائلاتهم، ليحصلوا على جائزتهم الليلية من إعداد عشاء سُخن لذيذ وقضاء وقت لطيف مع الزوجة والسكن. شيء ما حيال تلك الأنثى البكر الفطرية يشعره بالمسؤولية والاهتمام.. شيء يدعوه لأن يكون موجودًا وحاضرًا تحسّبًا لأي احتياج.
هي أيضًا استشعرت ندمًا شديدًا لأنها أحرجته هكذا، وإن كان الحق معها.
أليست هي من كانت تفكر، مرّات ومرّات في زيارته لتشكره؟
أليست هي ـبطريقة خفية لا تعلمهاـ قد رجت العليّ القدير أن يكتب لهما لقاءً؟
أليس الأقدار كذلك تستجيب لنداءاتنا الخفية؟
ـ أنا بس كنت عاوز أقولك يا حسنية حاجة صغيرة، إنتِ أحسن بكتير من حالك فما تستسلميش للواقع ودوّري في حياتك على الأمل، حتى لو أمل واحد صغير، ولما تلاقيه ما تفلتيهوش لأن هو دا هيكون طريقك للنجاة.
خفقة قلب زائدة استشعرتها عندما غادر جسد سليمان الغرفة في طريقه للخروج، نظرت إلى شقيقها محمود الذي بدا عليه التثاؤب وبدايات النعاس بعد تأثير الحمّام الدافئ واليدين الحانيتين اللتين شملتاه بالرعاية والنظافة. كانت تستجديه أن ينطق على نحو ما، هكذا ودون أن تدري، استجاب لها الأخ شبه النائم، حين استأنف النداء:
ـ إيليماه! إيليمااه!
كان صوته ضعيفًا واهنًا، بل لا يكاد يبين، إلا أنه كان الفرصة التي استجدتها فهتفت:
ـ يا سي سليمان! الواد محمود بيندہ عليك! تعالى شوفه عايز منك إيه!
لم تتلق ردًّا. فاستأنفت في صوت أكثر الحاحًا:
ـ يا سي سليمان أفندي! يا سي سليماان!
كانت تلك هي اللحظة التي سمعت فيها صوت انغلاق بابها، ووقع خطوات سليمان الخافت صاعدًا إلى سطوحه. كانت ترغب في إلقاء اللوم على نفسها،

أو حتى إلقاء نظرة أخرى على سليمان، ولكن نظرة منها إلى وجه محمود الملائكي وجفناهُ ترفرف مستقبلة النوم الهانئ أعاد إليها الاحساس بالدفء والأمان والطمأنينة، تمامًا كأنه حضن سليمان.

ابتسمت في وداعة وهي تشيّعه بنظراتها.

كانت ابتسامتها هي الأخرى، ونظراتها وتربيتتها الخافتة على كتف أخيها، حضنًا كبيرًا.

تغمض عينيها في سقوط اختياري حرّ لعالم من أحلام.

كأنما حملته الملائكة، يتسرّب لروحها الهائمة لحنٌ خفيٌّ لم تسمعه من قبل، تختلط نغماته بخلايا جسمها، تلتحم بها وتدخل في دقائق تكوينها، تصير جزءًا منها كأنها قد ولدت به مخبوءًا بين حناياها، ولكنه بدأ الآن ينشط، ويضيء، ويومض، وينبض، ويتفاعل مع ذرّاتها.

٦. أن تخلق لنفسك وهمًا

يقفز الصبي الذي يخطو خطواته الأولى نحو المراهقة بسنواته الثلاث عشرة إلى الماء فتحدث قفزته تأثير قنبلة مكتومة صغيرة، يتناثر الماء وتلامس قطراته وجه أمه الباسم التي تنتظره على حافة المسبح في واحدة من أمتع لحظات حياتها. يتسمّر الفتى قليلًا وهو يرى فتاة شابة بمايوه ذي قطعتين، يبين منها أكثر مما يستر، تبلّل أطراف قدميها في الماء المنعش. يستشعر تصلّبًا خفيفًا بين فخذيه، فيصيبه وجوم مفاجئ يختفي تمامًا مع صوت والده الأجش وهو يتوعده بالويلات والثبور وجهنم وسعيرها لمن ينظر إلى الحرام ويضع نفسه فريسة الشهوات والفتن. يختفي التصلّب والوجوم، ويحلّ محلّهما الانتباه الزائف والأيمانات الكاذبة بأنه لم يفعل. في نفس اللحظة يأتي شاب يافع من خلف الفتاة يدفعها نحو المسبح. بعين خفيه يرى المراهق الصغير يد الشاب وهي تلامس جلد الفتاة العاري عند خصرها تحت الثدي تمامًا، فيحس حلقه جافًّا، ويعاوده التصلّب ثانية. هذه المرة تأتي صفعة الوالد لتعيده إلى رشده فعلًا.

يأتي صوت الأب الهادر الأجشّ:

ـ يلّا يا وليّة من بؤرة جهنم اللي جبتينا فيها دي. لا تقولي لي نادي ولا مصيف ولا يحزنون. دي حفرة من حفر النار. عايزة تفسدي لي فطرة الواد وتفتّحي عينه على الشهوة والحرام. يلّا يا حُرمة ولّا عاجبك اللحم الرخيص العريان في كل حتّة دا؟

تخرج الأم سريعًا من لحظة سعادتها واستمتاعها بابنها الوحيد نادر الذي لم يرزقها اللـه بغيره، فأغدقت الحنان وأفرطت الدلال حتى كاد يفسد.

في هذه الليلة نام نادر ولا يدور بخلده سوى جسد فتاة المسبح شبه العاري ويد الشاب تلمسها.

وحين استيقظ في الصباح وجد بقعة شبه صفراء لها رائحة نفاذة على ملابسه الداخلية وجزءٍ من الملاءة، فظن أنه قد بال على نفسه أثناء نومه، فقام إلى الحمّام وإحساس قاهر بالندم يتملّكه.

انتفض نادر عندما دخلت عليه أمه الحمّام دون استئذان ورفع ملابسه دون أن يكمل تبوّله. فانفجرت أمه في الضحك قائلة:

ـ إنت بتتكسف من أمّك يا ندّورة؟ دا أنا أمّك يا واد! دا أنا اللي كنت باغيّر لك وأحمّيك. إيه يا بيضا؟ كبرتِ على ماما ولا إيه؟

غمغم نادر أشياء غير مفهومة. فتابعت أمه:

ـ ما تيجي أحمّيك يا ندّورة يا حبيبي. تعالى نستحمّى مع بعض علشان آلّيفك كويس. لاحسن انت لما بتستحمّى لوحدك بتطلع معفّن زي ما دخلت.
الآن جاء صوته عاليًا واضحًا حاسمًا:
ـ لا لا لا! إلاّ تحمّيني دي! لا يا ماما! مش ممكن أبدًا! لا لا لا! تحمّيني لا! لا لأاااااا!
استغرقت أمه في نوبة ضحك أكبر، كادت معه أن تستلقي على ظهرها وهي تتابع:
ـ ما تخلّينيش أحلف عليك.. هاا؟
كان نادر يرتجف موشكًا على البكاء حينها، فاقتربت منه الأم لتحتضنه. في البداية أجفل ظنًّا منه أنها سترى بقعة بوله. ولكنه سريعًا استسلم وتركها تحتضنه في دفء شديد، فيهدأ تدريجيًّا وهو يستشعر أن حضن أمّه كعالم كبير يحتويه. يخفّ توتره رويدًا رويدًا ويرتخي جسده تمامًا حتى يوشك أن ينام.
فورَ أن غادرت الأم.. أغلق باب الحمّام بالترباس وخلع ملابسه، واضعًا ملابسه الداخلية في سلة المهملات، وبعد أن فرغ من الاستحمام ومسح بيديه مكان محارمه، رفعها نحو أنفه يتشمّمها محاولًا التأكد أن كل أثر للرائحة النفّاذة قد زال. لم يفته بالطبع أن يأخذ عند خروجه كيس السلة الذي يحتوي على آثار الجريمة، ويحكم إغلاقه في عدّة ربطات. لم يتوقف الفتى عند هذا الحد بل وضع الكيس الصغير في كيس مهملات كبير بالمطبخ. ورغم أن الكيس الكبير لم يكن ممتلئًا، فإنه أحكم إغلاقه هو أيضًا وأخذه ليلقي به في صندوق المهملات المعدني الكبير في آخر الشارع.
جاءه صوت أمه والكيسان يخشخشان في صوت مسموع:
ـ رايح فين يا نادر؟
ـ هارمي الزبالة يا ماما وأعدي على حمادة ألعب معاه شويه بالڤيديو جيم.
ـ يا واد إنت لسا صاحي من النوم وتقول لي ڤيديو جيم؟! طيب افطر الأول.
ـ هافطر مع حمادة.
ـ تفطر كويس يا ندّورة، ما تخلّيش ماما تزعل منك.
ـ حاضر يا ماما.
يفتح الباب ليجد أم حسنية أمامه تدعوه للدخول، إلا أنه رفض في تردد. فقد جال في خاطره لوهلة أن يدخل قليلًا ربما يرى حسنية بمنامتها القصيرة عارية الأكتاف حيث يظهر جزء من ثدييها الناميين، لولا أنه تذكّر تلك المصيبة التي يحملها في يده.
يلقي نادر بكيس المهملات سريعًا ويعرج على ابن خالته حمادة الذي كان ما يزال نائمًا. استيقظ حمادة بمزاج معكّر وأعدت لهما أم حمادة فطورًا شهيًّا تاركة الصبيين وحدهما، وهي توصيهما ألا يرتكبا أيّ حماقات أثناء زيارتها لاختها.

تحفّز حمادة لدى سماع صوت الباب يغلق. نادر ما زال يلوك بقايا فطور خالته. فنظر إلى ابن خالته سائلًا إياه عمّا يرغب في فعله الآن. ردّ عليه في اعتياد:

ـ ميدال ولا فيفا ولا مورتال؟

ابتسم في خبثٍ حمادة، الذي يكبر ابن خالته بسنة، وهو يقول:

ـ عندي اللي أحسن من كل دول. سيديهاية أخدتها من الواد وائل اللي ساكن في الدور الخامس.

ـ سيديهاية إيه؟

ـ دلوقتِ نشوف.

وهكذا التصق المراهقان جنبًا إلى جنب أمام شاشة الكومبيوتر وقد بدأ الفيلم.

أحس نادر تصلُّبًا شديدًا هذه المرة، وجسده يتعرّق ويسخن بشدّة، رأى يد حمادة تمتد لداخل ملابسه الداخلية ليبدأ في تحريكها في اطراد، ويتنفس في شدّة. تساءل نادر في سذاجة عمّ يفعله، فسبّه ابن خالته متَّهمًا إياه بالجهل والتخلّف، ولكن مع التساؤلات اللحوحة، شرح له باختصار ما يفعله ليريح نفسه.

لا ينكر نادر إحساسه باللذة العابرة، ولكنه أيضًا ولسبب لا يعلمه استشعر إحساسًا قابضًا بالذنب، وفي طريق عودته للمنزل قابل والده فأحس أنه مفضوح أمامه وأنه سيعرف ما حدث لا محالة.

ـ تعالى معايَ نصلي العصر في الجامع يا نادر.

بالرغم من أن نادرًا كان صغيرًا، فإنه متأكد أنه الآن ليس على طهارة ولا يجوز له دخول الجامع. ولكن تُرى ما الحجة المناسبة التي من الممكن أن يقولها لأبيه كي يتفادى ذلك. بالطبع فتى الثالثة عشرة لم يجد ما يرد به على والده فذهب معه المسجد مرغمًا. وحاول أن يتوضأ مرتين كأنه بذلك سيستغني عن اغتساله. دخل يقدّم ساقًا ويؤخر أخرى، يعرف أن اللـه يراه، وسيسخطه لا محالة قردًا أو خنزيرًا.

.....

ـ شيخ نادر... يا شيخ نااادر...

أفاق من شروده على صوت الشيخ إسماعيل يناديه بصوت لحوح.

تلّفت نادر حوله متأمّلًا وجوه المجتمعين حول تلك الطاولة المستطيلة الكبيرة بشركة يملكها أحد الإخوة.

ـ .....

العيال بتوع النت شغالين كويس ما شاء اللـه عليهم، فيه كام صفحة على الفيسبوك عاملين شغل جامد قوي، ونسب الشير واللايك فيها فضل ونعمة من عند اللـه. وإخواننا في الداخلية والحكومة والإعلام عاملين شغلهم برضه على تقيل قوي. وأسيادنا الكبار راضيين علينا قوي قوي ما شاء اللـه!

ـ بس الكلام دا ضد اللي كنا اتفقنا عليه قبل كدا.
ـ التعليمات اتغيّرت.
ـ يعني همَّ يشيلوا الريّس وينقلبوا على الشرعية ويشوّهونا في كل حتة بالكذب والافترا.. وتقول لي إن إحنا متفقين، وإن دي خطة؟! لا يا شيخ اسماعيل! دا كتير قوي! وكلّه كوم وحكاية أسيادنا الكبار اللي ما نعرفش عنهم حاجة دي كوم تاني.
وقف الشيخ إسماعيل في صرامة فبدا عملاقًا مهيبًا وهو يرعد ويدمدم:
ـ إنت نسيت نفسك يا شيخ نادر ولا إيه؟ من إمتى بتسأل الأسئلة دي؟ دي متطلبات المرحلة. كانت الخطة قبل كدا الظهور العلني، لكن دا للأسف ما كانش بيحقق اللي أسيادنا عايزينه، وما كانش ينفع الانتظار لوقت طويل لحد ما ييجي التغيير سلمي وديموقراطي، الانقلاب دا متطلبات المرحلة دي! وكل واحد في الدورة الكبيرة ليه دور ولازم ينفّذه! لأن اللي ما ينفّذشي دوره، هييجي غيره.
ترك الشيخ مؤمن السواك الذي يلوكه، وشاشة المحمول التي كان يلهو بها، وهو يتساءل:
ـ الصراحة أنا كمان مش فاهم يا شيخ اسماعيل.. أمّال إيه لازمتها اللي عمالين يقعوا من الناحية دي ومن الناحية دي.. لحد ما وصلنا لتفجيرات وانتحاريين وحاجات كلها جديدة علينا؟! ما دام بتقول لي دي متطلبات المرحلة ورغبات أسيادنا علشان يبقوا راضيين علينا.. وإن كله متخطّط ومرسوم.. إيه لازمتها كل الضحايا دي؟
بدا فراغ الصبر على الشيخ إسماعيل ولكنه أجاب:
ـ أولًا هي مش جديدة ولا حاجة. ثانيًا علشان الوهم يكون زي الحقيقة، لازم طعمه وريحته يبقوا زي الحقيقة، لازم يبقى هو الحقيقة، لما الناس كلها تجري ورا واحد ويقولوا حرامي، بعد شوية هو نفسه ممكن يصدق إن هو حرامي! وربنا يخلي لنا الإنترنت والقنوات الفضائية بتاعة الناحية دي والناحية دي! وإخواننا اللي راحوا وبيروحوا دول كانوا مجرد كروت واتحرقت، أو تم استخدامها على أكمل وجه. ودلوقت الدور علينا، يا نتحرق زي اللي اتحرق، يا نمسك في الفرصة اللي جات لنا بإيدينا وسنانا علشان منروحش في الرجلين! انتو نسيتوا ولا إيه؟ السمع والطاعة! السمع والطاعة! ولا إيه يا جماعة؟ أعوذ باللـه من الشيطان الرجيم!
تصاعدت همهمات الاستعاذة، مصحوبة بإيماءات الرأس الموافقة.
.....
مع الوقت اعتاد نادر تلك الحياة المزدوجة.
أمام والده وأمه وكل الناس هو ذلك الفتى الملتزم الذي يروح ويغدو للجامع كل

صلاة. يحفظ القرآن ويتغنّى به في التلاوة، ويقصده الجيران للفتوى والسؤال. وعندما يختلي بنفسه لا يتوقف عن مشاهدة أفلام الجنس وتدخين الحشيش وممارسة العادة السرية أكثر من مرّة كل يوم.

كان الأب سعيدًا للغاية بصنيعة يديه، وازداد رزقه فتزوج منتقبة شابة، وانتقل للبيت الكبير، إلا أن أم نادر رفضت أن تنتقل إليه مع ضرّتها التي تكبر ابنها نادر بعامين فقط لا غير. وكان بديهيًا أن يبقى معها نادر ليراعي شؤونها، وكان ذلك أفضل له وأيسر للمحافظة على ازدواجية حياته دون خوف. ربما كان الأب أيضًا سعيدًا بهذا القرار، إذ لا يصح أن يجتمع ابنه الشاب وزوجته الشابة تحت سقف بيت واحد، فهو في غنى عن وضع الذئب والحمل في قفص واحد. تساءل نادر دومًا لِم لَم تطلب أمّه الطلاق من أبيه، إذا كانت قد رفضت الانتقال للعيش معه في البيت الكبير، لِمَ كان عليها أن تتحمل ما لم تكن تطيقه! إلا أنها لم تجبه حتى ماتت بحسرتها وسرّها.

وعلى الرغم من أنه طالما أعجب بجارته وصديقة الطفولة حسنية، فإنه لم يقترن بها في الماضي لرفض والده القاطع، لشكّه في سلوكها وطريقة لبسها اللافتة للنظر، وعوّضه عنها بابنة صديقه التي لم تتم بعد عامها الخامس عشر، التي ملّه- بعد سنوات قليلة، وضمّ إلى جوارها أخت زميل له في التجارة بينهما من التعاملات ما يجعل من هذا الزواج حلًّا سحريًّا لأي خلافات أو اختلافات ربما تبدأ بذرتها في النمو، فتئدها تلك المصاهرة في مهدها.

وعلى الرغم من التقلّبات التي حدثت بالبلاد وتطوّر الأحداث التي جلبت بعض الفئات إلى سدّة الحكم واتخاذ القرار، فإن نادرًا وأباه لم يكن دورهما المرسوم قد حان بعد. فحافظا طوال المدّة الماضية على إخفاء أيّ انتماءات كانت، حتى إنهما تخليا منذ البداية عن لحيتيهما وأي شكل أو مظهر يمكنه أن يشي بهما.

وحتى الآن يجهل الجميع حضور نادر مثل تلك الاجتماعات السرية. ولا يعرف عنه الناس سوى التزامه وتدينه المعتدل وهو ما لايعيبه بأي حال. ورغم ما هو عليه من رغد في العيش فهو يعمل بالتجارة مع والده، كما أن تلك الاجتماعات وأدواره السرية التي يؤديها على أكمل وجه تدرّ عليه دخلًا جيّدًا إضافيًّا يمكنه من العيش في مكان أفضل، فإنّه فضّل أن يحتفظ بشقة والديه القديمة، ربما لذكرى نفسية لأمه الراحلة، أو ربما لرغبته في البقاء مجاورًا لـحسنية محاولًا أن يتحيّن الفرصة لزواجها، وهو على يقين أن والده لن يرفض هذا الزواج الآن، فـحسنية اليوم تختلف كثيرًا عن حسنية الأمس، وسينتشلها ممّا هي فيه، وتجد من يرعى أخاها محمودًا دون أن تتعب هي. سيمتّعها كما لم تتمتّع من قبل، إنه يذكرها جيدًا بكل تفاصيلها وتضاريسها، جلدها الناعم ورائحتها الزكية بعد الاستحمام، يذكر تلك المرّة بقميص نو...

.....

ـ يا شيخ نادر! انت مش معانا خالص النهاردا! مالك يا شيخ؟ إيه اللي شاغلك

كدا؟
ارتبك نادر وتلعثم فاعتدل في جلسته وقد أحس تصلُّبًا بين فخذيه ذكّره كثيرًا بذلك التصلّب الذي أحس به يوم فتاة المسبح.
كان الشيخ إسماعيل يوزّع عليهم أدوارهم في المهمّة التالية.
فانتظر حتى وصله الملف الخاص به الذي يتحتّم عليه أن يقرأه الآن ولا يغادر به، حيث سيتم إعدام تلك الملفات أمام الجميع.
قرأ ملفّه الخاص بعناية واتسعت حدقتاه دهشةً، فهو لم يتصوّر أن يسند إليه دور كهذا.
يبدو أن ساعته قد حانت.
ودوره على مسرح الأحداث اقترب.
يبدو أنه عليه الكثير من التغيير ليقوم به الآن في حياته، فستنقلب حياته رأسًا على عقب ولا بد له من القيام بذلك على أسرع وجه.
لم يفت الجميع قراءة الفاتحة وشرب ثلاث جرعات من أكواب ماء زمزم الموضوعة أمامهم قبل الانصراف.

٧. وكأنـه وَحْـي...

يسترجع سليمان كل ما حدث حين دقّت الساعة الثانية عشرة.
تلك اللحظة الخيالية الملهمة.. لحظة المذؤوبين ومصّاصي الدماء.. وربما المجرمين وعازفي الكمان أيضًا. عندها دب النشاط في أوصاله، متلمّسًا طريقه بحواسّ الكائنات البدائية، ليبدأ في ممارسة الجنون أو المجون وحده كالعادة. انطلقت روحه من عقالها، لتتواصل مع أسرار الكون منذ بدأ، سابرة أغوار البشر والأرواح والسحر الدفين.
في بطء تحوّل الموقف كله إلى أبعاد ثنائية متتالية الصور والمشاهد، اقترب في إجلال ووجل من حقيبة كمانه الأثير من نوع (مونتانيانا Montagnana) الذي أهداه إليه أستاذ إيطالي شهير انبهارًا بعزفه وإيمانًا منه بموهبته الفذّة غير المتكرّرة. كل مرّة همّ بها في العزف المنفرد ليلًا يذكر أستاذ مصيلحي أوّل من علّمه العزف على الكمان في الكونسرڤتوار. كان مصيلحي معيدًا آنذاك، يعمل صباحًا نصف الوقت في مدرسة وليلًا كعازف إيقاع في ملهى ليلي من أجل أن يقدر على مصاريف الحياة والتجهُّز للزواج ممّن يحب، التي يئست منه فتركته، ولكنه ما ترك المدرسة ولا الملهى، ولكن ربما ترك الكونسرڤتوار.
إليه يعود الفضل الأول، ولن يكفّ سليمان عن نسبه إليه.
تناول سليمان الكمان من داخل الحقيبة، لا تمسّه باطن يده، فقط أطراف أصابعه كأنّه مخلوق هشّ من سكر أو دقيق أو بخار ماء لا كيان له.
بأصابع مدرّبة بدأ في اختبار أوتار الكمان ثم استكمل دوزانها.
أمسك القوس وكاد يمسّ معشوقته بنظرات عينيه مارًّا على فرستها ومفاتيحها وفتحتَي صوتها الثعبانيتين على شكل الحرف (S).
ثم انطلقت النغمات كفيض من نور إلهي.
أغمض عينيه ودخل في غيبوبة اختيارية.
عزف لنفسه قبل أي كائن آخر في الكون.
استمتع بما يعزفه، فتمايل جسده، انحني رأسه، استغرقت جوارحه، وكل كيانه.
هنا تلك النقطة التي انتهت عندها كل مآسي الحياة الشاقّة. توقفت الحروب والمجاعات والمرض. تصاعدت النغمات لتشق عنان السماء، حتى أوشكت أن تتراقص معها نجمات المساء، توتّر وتماوج سطح الماء، غادر جسده كل الإعياء، سقطت من فوق كاهله كل الأعباء، وتحوّل ما في الدنيا إلى أصدقاء، لا آلام ولا

أعداء.
سليمان.. المرهف الحس الذي يجاهد كثيرًا للتعافي من الأعراض الانسحابية المصاحبة لفقدان عُلا مؤخرًا، فتاة الطبقة الأخرى التي تعلّقت به لفترة هي أقرب للافتتان منه إلى الحب. وها هو الافتتان قد زال وتبقّى مكانه الواقع وفارق الإمكانيات. حيث لا تفلح الدروس الخاصة، وعروض العزف في حفلات التوقيع، ومصاحبة الأوركسترا أحيانًا حين يتغيّب عازف كمان، في أن تقيم دخلًا ثابتًا يمكّنه من أن يكون مستعدًّا للمنافسة.
علا الفاتنة الجمال التي ألّف مقطوعة موسيقية خاصة لها في إحدى المناسبات، ولكنها صارت الآن تؤلمه أكثر ممّا تشجيه.. وها هي تجسّدت الآن لتقتحم وعيه كما اقتحمت حياته قبلًا وغادرتها تاركة دونها تجويفًا فارغًا في منتصف صدره.
.....
في الركن، وتحت ظل الشجرة الوارفة، تنتظره وهي تضيّع الوقت بالنقر على السطح الأملس للمحمول.
تمد يدها وابتسامة خلاّبة.
يمد يده والزهرة وبلاهته متمثّلة في ثغرٍ مفغورٍ متدلٍّ.
تضحك، يرقص قلبه.
تشم الوردة، تمد يدها تهمّ بقطف بتلاتها.
تخنقه غصّة، تكاد حقيبة الكمان تسقط عن كتفه، ينقبض قلبه.
تضحك ثانية، لقد كانت تداعبه.
.....
كذرّاتِ غبارٍ نفضَها واستمر العزف، العصف الذهني وطوفان مراكز الإبداع حملاه على الانتقال إلى ذكريات أخرى.
.....
ـ سليمان..
إنت راجل البيت يا حبيبي وكبرت أهو بعد ما أبوك راح من زمان وفضلت شايلاه لوحدي. الهمّ تقيل عليك أنا عارفة. بس يا حبيبي أنا عارفة إنك طول عمرك كنت بتعمل كل حاجتك لوحدك. عمرنا ما قلنا لك اعمل إيه وما تعملش إيه. طول عمرك راجل كبير يا سليمان. من وانت عندك أربع سنين يوم ما تهت عند العمارة الجديدة اللي كانت بتتبني آخر البلد والرجالة كلها قعدت تدوّر عليك، حتّى دوّروا عليك هناك من غير ما يلاقوك.
صمتت الأم لوهلة مراقبة وقع كلماتها على ابنها الفريد:
ـ كلنا يئسنا إنك ترجع وقلنا هنلاقيك ميّت هنا ولا هناك. وأنا خلاص كنت فوّضت

أمري للـه إنك ضعت منّي ومش راجع لي. لقيناك داخل علينا بمنتهى الهدوء. مش بتعيّط. مش مبهدل نفسك. ماسك في إيدك وردة وبتديهاني. أسألك يا سليمان إيه اللي حصل؟ تُهت فين؟ إيه اللي جرى لك؟ ما تجاوبنيش، بتديني وردة وساكت.

تضحك أمّه بصوت واهن وهي تستأنف:

ـ وردة يا سليمان؟ وردة! الصراحة يا سليمان على قد ما كنت عايزة ألطشك حتّة دين ألم! على المرار اللي سقيته لي أنا واخوالك واحنا بندوّر عليك.. على قد ما الوردة اللي اديتهاني كانت جميلة قوي.. وحلوة قوي زيّك يا سليمان.

أمسكت ابنها من شعره وهي تردف:

ـ ما اعرفش لما كبرت عملت في شكلك كدا ليه يا سليمان؟ لولا بس شعرك المنعكش دا يا بني تبقى زي القمر. يبقى شكلك زي البني آدمين!

تنهّدت في حرارة وهي تقول في استسلام:

ـ قُصره.. لقيتني باخدك بالحضن وأحميك من اخوالك اللي كانوا عايزين ينسّلوا جتتك حتت حتت. ساعتها.. بُسْتني بوسة حلوة قوي في خدي، وقلت لي باحبِّك.

قبّلت رأسه التي كانت تشدّ شعره منذ لحظات وهي تقول:

ـ تعرف يا سليمان.. إن أبوك عمره ما قالها لي.. «باحبِّك»؟!

يرد عليها بتضرّع:

ـ والنبي يا امّه لتيجي تقعدي معايَ بعد ما اتخرّجت؛ دا أنا ابنك.. حبيبك. والنبي يامّه ما تسيبيني.

تكاد دمعة تسقط من عيني أمّه «حمّالة الأسية» وهي تتحجّج:

ـ وأسيب اخواتك البنات لوحدهم يا سليمان. دا يرضيك؟ ولا عايزني أجيبهم معايَ في الأوضة اللي انت قاعد فيها لوحدك دي؟

هي فقط لا تدرك أن الرجل ـمنذ كان صغيرًاـ يحتاج لأمه تؤنس وحشته وتشاركه الأسطورة وهو يحاول أن يصنع نفسه من عدم.

تنبثق ذكرى ضبابية أخرى عن ابن الرابعة حيث وجه ذكوري مألوف يطمئنه ويصحبه في رحلة فوق السحاب أو ضباب متكاثف يحجب الرؤية أو هو مجرد حلم لطفل له خيال أوسع من رحابة السماء تاه عند بناية مهجورة.

.....

عند هذا الخاطر توقّف عن العزف لوهلة.

صدره يعلو ويهبط في عنف.

فتح عينيه.

متسائلًا عما حدث له عند تلك البناية المهجورة وسبب اقتحام هذه الذكرى الضبابية من طفولته وصباه دون استدعاء؟ كأنه لا يذكر سواها، هو حتى لا يذكر الوردة والاختفاء وكل هذا الذي حكته أمه ذات مرّة، فقط الوجه الضبابي والضباب المتكاثف.

لا ينكر أنه كان قد كفّ لفترة طويلة كأنها سبات شتوي.

لكن عقله المضطرم بذكريات عُلا بعد فقدها، يبدو أنه يخبّط في مخزون ذكرياته كمجنون أعور يهذي على غير هدى فيخلط القديم بالحديث بالغريب بالمؤلم.

((...

ها هي تقبل ثانية..

قلبه الملهوف يرتعش فرحًا...

تمثّل أن لم ترَه..

ينادي..

تلتفت نحوه.. بإشارة من يدها تحيّيه..

ينسى تجاهلها الأوّل..

يتجه إليها..

وحين يصافحها يحسّ بالكهرباء تشمله..

تُرى هل تحس بنفس ما يحس..

أم تُراه هو فقط يحب؟!

...))

ينظر إلى المرآة في غيظ شديد. كاد يضربها بقبضة يده يكسرها ليرى صورته على صفحتها مشوّهة كما تركت روحه كذلك. ألم قاهر ممض يعتصر قلبه لدى استدعاء كل ذكرى أو حدث. ما زال الأمر يؤلمه، ألم المرّة الأولى، طازجًا كجرح لا اندمال له. كإحساس رهيب بالقهر واليأس والعدم. كيف يكون الكون وقْفًا على امرأة واحدة؟ المؤلم جدًّا في عملية الترك تلك، هو كمّ الأسئلة غير المُجابة. لِمَ؟ ماذا؟ كيف؟ تُرى؟ متى؟.. كل أدوات الاستفهام.. كلها تتقافز وتتصارع في شغف رهيب، يصرع بعضها بعضًا، فتهوي أو تتهاوى في جُبٍّ سحيق لا قرار له من تخاذل وتبرير وندم.

أيّ جنون يدفع امرأة لترك رجلٍ ألّف مقطوعة موسيقية باسمها؟

هكذا بدأت تلك المشاعر والانفعالات الغريبة في السريان في جسده، مستأنفًا العزف.

ليحدث كل شيء بعدها حتى قطع وحيه استغاثات حسنية.

٨. نِصْفا صورة.. وشغف

رنا ياسرٌ إلى عُلا، كأنه يرنو إلى عُلاه، وهو ما كان يطيب له الاعتقاد فيه.
الطبيب الشاب الناجح وجد في ابنة الثلاثين تلك ما يظن أنه يفتقد.
طوال عمره ظل حبيس المثالية والتفوق. فهو الأوّل في المدرسة، وهو المتفوّق في الكلية، وها هو الآن قد فرغ من الماجستير والدكتوراه. ويقترب حثيثًا من أربعينه، العمر الذي يبلغ فيه الرجل أشدّه وتتنزّل عليه الرسالات، بل يمكنه أن يصير ما يرغب. وقد كانت علا رغبته الحالية، بل ربما رغبته الأولى وما يدريه لعلّها تكون الوحيدة. يعجبه في علا خليط طموحها وجموحها.. أنها تفعل دومًا ما يحلو لها.. أنّها مستقلة وصاحبة شخصية تنفذ للآخرين وتتوغّل داخلهم بقوّة سلطوية قاهرة. يدرك كل شيء عن حياتها السابقة وعلاقة حبّها الفاشلة مع عازف الكمان المجنون. ولكن ما وجهُ المقارنة بينهما؟ هو الطبيب الناجح الذي يشار له بالبنان، بينما الآخر مجرد لاهٍ لا يدرك إلى أين يسير به الطريق، يتسّرب العمر منه كقربة ماء مثقوبة يحملها على ظهره دون وعي.
كانت علا تنفث دخان نارجيلتها بنكهة الكرز الفاخر في شبق، أمامها قدح كبير أشبه بطبق حساء من الكابوتشينو بالكراميل. صوت كريستينا أجيليرا تتقاذفه جدران الكافيه الراقي الذي يجلسان فيه ككرة مطاطية. تدرك هي معنى نظراته لها؛ لم تُخلق بعد الأنثى التي لا تستشعر نظرات الوله والإعجاب في عينَي عاشق. كانت تراها في عينَي سليمان وها هي تراها في عيَني ياسر الآن. أحسّت تلك الخفقة الزائدة لقلبها لدى استدعاء ذكرى سليمان، كما أن لحنًا خاصًّا يحمل اسمها، ظل ولمدة طويلة رنّة تليفونها المميّزة.
فتاة أبويها المنعّمين الوحيدة والتي تبحث دومًا عمّا يجعلها محورًا للكون. كان قد مرّ عليها من الوقت ما يسمح لها أن تبدأ قصّتها الجديدة.
رفعت عينيها في تلك اللحظة عن شاشة تليفونها لتلتقي بعيني ياسر المثبّتتين عليها منذ دهر. كانت النظرات حينها تحمل من التساؤل والاستجداء أكثر مما كانت تحمل سابقًا من ولهٍ وإعجاب. للمرة الثانية تدرك بحس الأنثى هذا التغيير. يكرّر طلبه الوحيد الاقتران بها، وهي ما زالت تسوّف الأمر كما لو كانت تعبث به. شيء ما حياله يمنعها من الانجراف والإقبال التام الكامل. وهي التي ذاقت طعم الحب من قبل وارتشفت من لذّة عسله. جميل أن يدرك المرء حب الآخر له، ولكنه لا يكتمل أبدًا إن لم تشعر بحبّك له أنت أيضًا. الأمر أشبه بقطعتين ممزّقتين من صورة، لو أنك جمعت جزأي الصورة الصحيحين لصارت الصورة جميلة وواضحة، أما إذا جمعت جزأين خاطئين، فالنتيجة مسخ مشوّه

غير متناسق. هذا لا يعني أن الحياة تتوقف، أو أننا نكف عن المضي قُدُمًا بنصفي الصورة الخاطئين. حتّى المسوخ المشوّهة لها حياتها، كما أنها تعيش وتستمر! هي تتناكح وتتوالد وتتكاثر وتعتقد أغلب الوقت أن تلك هي طبائع الأمور وديدن الحياة. المثير أكثر وأكثر أننا ربما لا ندرك في كثير من الأحيان نصفي الصورة الصحيحين، فهي لا يمكنها مثلًا الادّعاء بأنها وسليمان كانا نصفين صحيحين، أي صحة تلك في ثنائي يتشاجران طوال الوقت، تمزّقهما نيران الغيرة وعدم الثقة المتبادلة، ترى نظرات الإعجاب في عيون الفتيات وهنّ يرمقنه أثناء العزف، وترى في عينيه إعجابه بإعجابهن. كالفراشة تطير نحو اللهب تطلبه حثيثًا، لكن نار اللهب كانت تحرقها هي. يراجع هو قائمة أصدقائها على الفيسبوك، فيبدي امتعاضًا لعددٍ لا بأس به من الذكور البادية الجوع. تقول الأسطورة إن الغيرة علامة الحب، أو ربما إن منظمة سريّة من نوع ما تروّج لهذه النظرية لتسويق منتج الغيرة الذي تصنعه في مصانع مخبوءة تحت قشرة الأرض حيث تصنّع منتجها الآخر، الأقل شيوعًا.. اللاڤا! واقع الأمر أن الغيرة، ربما تكون أساسها الأول والأخير انعدام الثقة، الإحساس بالتهديد المباشر أو حتى غير المباشر. عدم الثقة بنفسك أولًا وأخيرًا، وليس الثقة بالآخر. هكذا أحس كل منهما بأن المشكلة ربما تكون فيه، وليست في الطرف الآخر.

أتراهما أخطآ الحُكم والاختيار؟

هي أيضًا لا يمكنها تأكيد أنّها وياسر يكوّنان النصفين الصحيحين للصورة، فأين شوقها للُقياه؟ أين خفقة القلب الزائدة؟ أين تلك الفراشات الألف التي تدغدغ أسفل بطنها، وجفاف الحلق في حضرته وعند وجوده؟

حقًّا هو أكثر رزانة من سابقه، أكثر نضجًا، أكثر مناسبةً، كما أنه الأضمن حاضرًا ومستقبلًا.

هو الرجل الذي ترغب له في أن يكون والدًا لأبناء لم تفكّر في إنجابهم بعد.

هو الذي يمكنها أن تتأبط ذراعه وهي ترفل في بالطو فراء المِنك أثناء ولوجهما لحفل موسيقي بالأوبرا.

الأوبرا؟

اللعنة!

لِمَ خطر ببالها هذا الخاطر الأحمق الآن؟

لماذا تبدأ خواطرها به، فتهرب منها باغية الخروج من دهاليز المتاهة التي صنعتها، فتجده حاضرًا مبتسمًا في آخر تلك الخواطر الدائرية كأنها حلقة مفرغة؟

نفثت دخان النارجيلة في عصبية هذه المرّة، تنتظر من جليسها رد فعل يتناسب والنار المستعرة داخلها، فاجأتها كلمة مناسبة تمامًا.

ـ باحبك يا علا...

يقولون إنه لا توجد امرأة على وجه الأرض، في أي سن، في أي مكان، وفي أي زمان، لا تعجبها هذه الكلمة، مهما كان قائلها، أو سنه، أو مكانه، أو الزمان الذي يقولها فيه، ما دامت صادقة حقيقية!

هي تعجبها..

ولكن ليس بالإعجاب وحده تُبنى الأكوان وتتكوّن العلاقات وتُشيّد الممالك والسلاطين!

هذا إن كانت العبارة صحيحة أصلًا، أو إعجابها حقيقيًّا وليس مجرد مرآة لما تود أن تراه.

وبالرغم من أسلحة ياسر القليلة نسبيًّا، فإن نضجه، وخبرته على قلّتها، يكفلان له فرصة لا بأس بها لإنجاح الأمر.

كم يود لو يخبر حبيبته، أنه هو الحقيقة، وأن سليمان هو المزيف.

أن تعلّقها به لم يكن سوى نوع من أنواع الافتتان، نزوة ما قبل علاقة حقيقية، شبه حبّ أقرب ما يكون لما يطلقون عليه الحب الأول، ذلك الذي يشبه نزع الغلاف البلاستيكي الشفّاف أو اللفّة عن علبة تحوى داخلها أغلى الهدايا. الحب الحقيقي هو ذلك الذي بداخل العلبة. هو ذلك الشيء القيّم الذي يحمل بين طيّاته سر استمراره، والوقود اللازم لحياته وتغذيته حتى ينمو ويترعرع وتضرب جذور شجرته أعمق أعماق باطن الأرض فلا يهزّه أيٌّ ما كان، ولا تعصف به الأنواء والعاصفات من الرياح. بل أصلها ثابت، وفرعها في السماء.

كم يرغب حقًّا في أن يشرح لها أن تردّدها ليس له ما يبرّره، وأن الوضع لو كان معكوسًا لما كان نفس التردد حليفها وصديقها الذي لا يفارقها. المرء يتردد دومًا حين لا يعود الشيء معه ويشرع في شيء آخر. فالإنسان عدو ما يجهل. لذا نظن طوال الوقت أن ما نخسره ربما لا يعود، وربما لا يتسنّى لنا فرصة أن نجد البديل الملائم له أبدًا. نبكي دومًا البيت الأول، والوظيفة الأولى، والحبيب الأول، وكل شيء يقترن اسمه بكلمة أوّل. لا لشيء سوى أننا نخشى كل ما يُسمّى ثانيًا أو جديدًا أو آخرَ أو تاليًا.

هنالك وجد ياسر أن بطارية شجاعته قد شحنت بطاقة لا بأس بها فهتف:

ـ ما هو أنا مش لازم أترقّص بكمانجة.. ولا ألبس چينز وفانلة كتّ علشان أحبّك.. باحبّك يا علا وهافضل طول عمري أحاول أسعدك.. فيا ريت ما تضيعيش عمري وعمرك في إني بدل ما أحاول أسعدك.. أقعد أحاول أنسيكِ حاجة فاتت.. اللي فات مات.. والطريقة الوحيدة اللي نموّت بيها ذكريات مش عايزينها.. إننا نخلق بدالها ذكريات جديدة.. الذكريات اللي مش عايزينها، وما تموتش أو ننساها، بتتحوّل مع الوقت لأشباح.. كل ما تفتحي دولاب ذكرياتك.. بدل ما تطلع لك ذكرى حلوة.. يطلع لك شبح.. وعلى بال ما تموّتي الشبح الأولاني.. بتكوني فتحتِ الدولاب تاني.. وبدل الشبح يطلع لك مية شبح غيره.. يضيع العمر وانتِ

بتطاردي أشباح مِن صنعك.. لا.. ومخبيّاها عندك.. مش عند حد تاني.
أعجبها كثيرًا ما قاله.
وتبدّى الإعجاب ذلك في عينيها وانتباهها التامّين.
في نارجيلتها التي لم تسحب منها نفسًا طوال حديثه.
في شاشة المحمول التي لم تقاطع ولو لومضة خاطفة اتصال عيونهما.
فوجئت بنفسها تربّت على يده.. تربيتةً أجفلته.. إذ جاءته على غير توقّع.
لم يعرف الرزين الهادئ الناضج الواثق الذي لا يشقّ له غبار، أيّ طريق يسلك الآن.
لا يعرف إن كان من المحمود أن يستثمر موجته المواتية ويستمر في طرق الحديد وهو سُخن أم يتراجع تراجعًا تكتيكيًّا مكتفيًا بالمكسب الحالي الذي جاءه على غير تخطيط مسبق؟
هي أيضًا فوجئت بانفلات تربيتة اليد منها.
ولم يكن ثمّة سبيل للتراجع، أو النفي، أو حتى الاعتذار، فتربيتة اليد لا تنتمي لهذه الكائنات التي يصلح معها أيٌّ مما سبق.
احتمت بدخان نارجيلتها المنسي، فاكتشفت أن تأخرها قد أطفأ شعلتها. كذلك المشاعر، إن تأخرت عنها، فربما تنطفئ. هكذا استمر ياسر يشد من نارجيلة مشاعره أنفاسًا تبقيها متّقدة. وهكذا وجدت أن مزاج مشاعر ياسر نكهته أفضل.
كرّر جملته السابقة ولكن في حماس أكثر:
ـ باحبك قوي يا علا.. باحبك.. باحبك لأني باحس إني مسؤول عنك.. وإنك بتاعتي أنا.. ولازم أدافع عنّك وأحميكِ.
كان الطبيب الماهر يمزّق طبقات شرنقتها بمهارة جرّاح بارع. يهدم كل أثر للتردد عندها. ولا يبقى لفلول مقاومتها ولا يذر. ابتسمت في دلال وإغراء. فأحس مشاعره تتدفّق في أوردته وشراييه. تثيره نظرة الرضا في عينيها أكثر مما تثيره كتفاها العاريتان وصدرها العارم الذي يبين أعلى أخدوده. تثيره ابتسامة الشفتين وليس انتفاخهما انتفاخًا مغريًا بالتقبيل وتبادل النشوة المُسكِرة. هو شخص لا تحركه شهوانية المشاعر بل نبلها ورقيها.
ولكن هل هذا حقًّا ما ترغبه وتحتاجه المُهرة الجامحة غير المُروّضة علا؟
ما يدريه هو أن قُبلة واحدة لتلك الشفاه الناضجة المغرية ربما تهدم ما لا يمكن لآلاف الكلمات أن تهدمه. أن ضمّة حارّة ساخنة لهذا الجسد الطريّ البضّ ربما يخلق لديها من الذكريات ما يكفيها للقضاء على ذكريات الماضي وكل أشباح الدولاب.
المشاعر خيلٌ غير مروّضة.
لا يمكنك أن تملي عليها تصرفًا معينًا أو كيفية مُثلى للتعبير.

ولكلٍّ منا مفتاحه الخاص، فمن يكون ذاك المحظوظ الذي يأتي والمفتاح في يده.
هو فارسنا المتوّج على عرش القلب والروح والجسد.
هو مالك تامُّ الملكية دون صكّ أو عقد.
لا يحتاج دستورًا خاصًّا أو قانونًا يأطُر لوجوده.
هو.. فقط.. هو..
الكائن المطلق..
المتفرّد بكينونته وبهائه..
دفقة النور الصافي التي تمنحنا الحياة.. أو الحياة كما ينبغي..
ربما أن رسائل علا الخفية بكل تمرّدها وشغفها الجنوني قد وصلت ياسر بكل نبله ورقيّه.
فاستخدم سيف الحياء سلاحًا أخيرًا يمنعه من أن يمنح حبيبته ما تشتهي. واكتفى من تحقيق الأمر برمزه. فاحتضن كفّ يدها في قوة. وشبّك أصابعه في أصابعها. ثم بدأ يلثم أطراف أنامل يدها الحرّة غير الممسكة بليّ النارجيلة الواحد تلو الآخر.
كان من الغريب أن تستشعر فراشاتها الألف التي تعرفها جيّدا أسفل بطنها، وتلك الحرارة والوهج اللذين يجتاحانها في لحظات خاصّة. اندهشت لتلك الخفقة الزائدة وجفاف الحلق تمامًا مثلما كان يقبّلها سليمان ويضمّها، بل يزيد الأمر بأن تعبث أنامله في جسدها الجائع لمثل تلك اللمسات.
ها هي تكتشف أن للباب ربما مفتاح آخر.
وأن طريقين مختلفين تمام الاختلاف ربما يصلان بها لنفس المكان.
وعندما فرغ ياسر من أنامل يدها الحرّة اليمنى..
أسقطت علا ليّ النارجيلة سهوًا أو عمدًا..
لتمد له يدها الأخرى ليستكمل ما بدأ مع يدها اليمنى.
يقولون إن أصابع يدك ليست كبعضها، لذا أرادت علا أن تجرب أصابعها كلها.
مخطئ من ربط بين الشغف والشهوانية، أو بينه وبين الوصول إلى الشبق.
فالشهوانية درجة أدنى كثيرًا وأحطّ في المرتبة، لذا جاء اقترانها بالحيوانية.
أما الشبق فالوصول إليه سهلٌ ويسير، بعضهم يصل إليه بعادة سريّة، والبعض يصل إليه على أطراف سوط جلديّ صاخب بعد أن يستشعر منتهى الألم والذل والمهانة.
إنه الشغف..
ذلك المكوّن السريّ الذي يجعل المستحيل ممكنًا.
إنه طريقك الوحيد والمثالي للإتقان.

في أي شيء وكل شيء وليس الحب فقط.
أن تكون شغوفًا ربما لا يعني دومًا أن تكون صاخبًا ولكنه يحدث أحيانًا.
هكذا أدرك ياسر أنه يقوم بأكثر تصرفاته خرقًا لنواميس الكون. ولكنه عاشق ولهان ولا يتورّع لوهلة عن القيام بما يجب القيام به في حينه كيلا يخسر حبيبته وينهزم في معركته الضارية ضد الماضي وذكرياته. بل أشباحه المختبئة بين طيّات دولاب حبيبته السريّ.
الآن يزفر نفسًا عميقًا حارًّا ألهب أطراف أناملها أكثر فأكثر.
وهكذا وجدت علا نفسها تضعف رويدًا رويدًا.
لا تدري من أين تعالت داخلها تلك الأصوات المنادية أن تمنح الفرصة لفارسها الجديد الذي ربما لم يأتِها على صهوة جواد أشهب هذه المرّة، بل في سيارته النيسان صني الجديدة.
وفيما بدا لها هي تراجعًا تكتيكيًّا أو استراحة محارب.
ألفت نفسها وهي تطرق برأسها في دلال وغنج.
تتراقص أجفانها كفراشات أسفل بطنها، حياءً وخدرًا مدروسين في عناية.
وفي هدوء تنطق جملتها الأولى منذ بدأ ياسر حملته التي أوشكت أن تكون مظفّرة:
ـ ماشي يا ياسر.. أوكي..
وأومأت برأسها في إيجاب وقبول.
الرزين الهادئ الناضج الواثق الذي لا يشقّ له غبار أوشك أن تندّ عنه صيحة عالية، أو زغرودة مجلجلة والفرحة العارمة بادية في عينيه.

٩. كلايف ك.ريستيان رقم ١

كان جلال بجسده الرياضي الممشوق وسحنته الصعيدية الصلبة وقميصه المفتوح الصدر، بانتظاره وقد ألهب كفَّيه تصفيقًا كباقي الحضور، فسارا متحاذيين ليجدا سيارة بي إم دبليو سوداء تنتظرهما أمام الباب الرئيس للأوبرا من ذلك النوع الذي يفصل زجاج سميك داكن اللون ما بين سائقها وركاب المقعد الخلفي والمجهّز بكل وسائل الرفاهية من شاشة تليفزيون كبيرة وتليفون لاسلكي وميني بار وسمّاعات رأس خاصة لكل راكب. نظر الشابان كل منهما إلى الآخر في تخابث وهما يفكّران في اللهو بتلك الأشياء في صبيانية لولا أن الزجاج الفاصل بينهما وبين السائق بدأ ينزاح في بطء ميكانيكي ليدعوهما حاتم في روتينية للاستمتاع برفاهيات الرحلة التي لا يظنّانها ستتكرّر، إلا لو كانت هذه ستكون نفس وسيلتهما في العودة.

وصلا قصر المدام في التجمّع الخامس بعد وقت لم يحسباه.

وبالطبع لم يخالف الحفل توقعاتهما، فقط تخيّل ثم اشتهِ، تجده حاضرًا أمامك في التوّ.

لفت نظرهما قلّة عدد المدعوين مقارنة بالإمكانيات والتجهيزات من ديكورات خاصة وتيمة للحفل فقد وجدا المدعوين بل القائمين على الخدمة بملابس السهرة الرسمية والمطابقة لموضة القرن الثامن عشر الأوربي، حتى تصفيفات شعر السيدات كذلك.

نظرا كل منهما إلى الآخر، شابان معاصران في البلو جينز والتي شيرت وسط حفل أرسطوقراطي ينظمّه نبيلٌ انجليزي في يوركشاير!

ازدردا لعابهما في توجّس من أن يكون جلبهما للحفل بمثابة السخرية منهما وممّا يقدماه، وما زاد الطين بلّة اختفاء مندوب مضيّفتهما الغامض حاتم، حلقة الوصل الوحيدة التي يعرفانها في هذا الحفل الغريب، وعندما حاولا الاتصال به وجدا تليفونه مغلقًا أو خارج نطاق الخدمة.

تتبدّل الإضاءة لتظلم القاعة الرئيسة حيث تجمّع الجميع إلا من بؤرة ضوء مركزّة على منصّة صغيرة مرتفعة عن الأرض قليلًا في الطرف الآخر من المكان. وسط دائرة الضوء يظهر ما يبدو عليه أنه مذيع لفقرات حفل واقفًا أمام ميكروفون معدني قديم مضاف إليه فلتر دائري كبير لتنقية الصوت معلنًا الترحيب بالموجودين ومؤذنًا بظهور المدام. ينسحب في حركة مسرحية ليتبدّل وضع بؤرة الضوء وترتفع عن الأرض قليلًا باتجاه ستارة مخملية حمراء داكنة يميّزانها للمرة الأولى.

بالطبع هذا الميكروفون وتلك الستائر يناسبان السنين الأولى للقرن العشرين وليس تيمة الحفل، ولكنهما لا يرغبان في معرفة هذه المعلومة الآن!

أبخرة بيضاء غامضة ثم تبدأ موسيقى خفية عازفة لحن ريمسكي كورساكوف الخالد شهرزاد. الأجواء مخدّرة للأعصاب بشكل مريب. ربما الأبخرة ليست بالبراءة التي تبين عليها. وعند تصاعد الموسيقى وهي نفس الجزء المواكب لتحطم السفينة بسبب الموج العالي في الباليه الشهير الذي يحمل نفس الاسم وتؤديه بارعة الحسن ذات الشعر الأحمر الطويل المسترسل في نعومة وانسيابية شلال ماء، والغجريّ المتعرج في ثورة ساحرة اغريقية غاضبة، تتبدّل بؤرة الضوء لتتحوّل إلى مجموعة من بؤر الضوء المتراقصة التي تتقاطع وتتوازي وتتقارب ملتقية أخيرًا في بؤرة مركزية كبيرة ليندلح الستار المخملي الأحمر مصحوبًا بشرارات نارية شبيهة بأعياد الميلاد أو شماريخ ألتراس كرة القدم.

ومن وسط ذلك كلّه.

بدأت في الظهور.

الأنثى الأكثر أنوثة من كل إناث الإنس.

الجسد الأكثر اتّساقًا من كل ما رأته عين بشر.

رائعة في كل تفاصيلها بفستان مخمليّ أحمر طويل، عاري الصدر والكتفين، تمتد فتحته الجانبية لأعلى الفخذ، وحذاء من الكريستال الشفّاف عالي الكعب بجنون، وقفازين مخمليين طويلين يصلان لأعلى الكوع من نفس لون وقماش الفستان.

كانت إلهة للفتنة والدلال والإغراء والرغبة بكل صورها.

وكان طبيعيًّا أن تتباين ردود الأفعال ما بين أفواه فاغرة وشهقات مكتومة وصفّارات استحسان، أعقبها جميعًا تصفيق حاد من جميع الحضور.

وبتأثير من سيكولوجية جمعية، وجد الشابّان نفسيهما من المشاركين في كل ردود الأفعال السابقة بلا استثناء.

كانت هذه هي المدام.

مدام مَلَك.

وكانت هذه حفلة طلاقها من رجل الأعمال المعروف سيف وهدان!

* * *

((...

ماذا يقول الناس لو عانقتِني..

وأعدتِ للصبح الحزين جنونه؟

لثمتِ شعري..

بالحياة غمرتِني..

ونزعتِ عن وجه النهار شجونه..

...))

.....

صوت جلال المملوء شجنًا يقطر عذوبة ترافقه نغمات سليمان تتغلغل في دواخلهم وتدغدغ مشاعرهم. تبدأ الموسيقى في التأثير فيهم بشكل ميتافيزيقيّ غريب، فتركوا كل ما يفعلونه، لينتبهوا بكامل تركيزهم وانتباههم جهة النغمات السحرية الغامضة المتصاعدة من كمان الشاب الصغير. من ركن إضاءته أخف تراقبهما عينا مَلَك في حالة من حالات تجلّيها التي لا تصل إليها إلا بتأثير الحشيش والنبيذ الأحمر الفرنسي من نوع رومانيه كونتي إنتاج سنة ١ الذي تحتفظ بعدة زجاجات منه للحظاتها الخاصة. في حفلة كتلك، وبالرغم من أهمية المدعوين، فإنها تكتفي بتقديم نوع شعبي رخيص كـ"الشاردونيه الفوّار من نوع زوكاردي الذي يدغدغ مشاعر شاربيه ويحلّق بهم في آفاق عُليا من أحاسيس فوّراة تمامًا ككمان سليمان وعزفه.

يستمر سحر اللحن والكلمات..

...((

كشفتِ عن شوقي المهيب قناعه..

خفّفتِ عن قلبي الضعيف حنينه..

رسمتِني وسط القفار خميلةً..

وجعلتِني رغم الجفاف سفينه..

...))

.....

تشعر مَلَك بكيمياء جسدها تتغيّر وتتحوّل عيناها إلى ذئبية جائعة. انداحت كل المرئيات من أمام ناظريها لتصير القاعة كلها، بل القصر، بل ربما الكون على أطراف أنامل، ومن بين فتلات شعر تكوّن قوسًا خشبية تمارس طقوس الليونة والحب على أوتار أربعة. أربعة كجهات الكون، كفصول السنة، كمراحل عمر المرء، كأطراف الكائنات. كانت قد رأت عزف سليمان مصادفة على اليوتيوب، في مرحلة متطورة من مراحل طلاقها الحالي، الذي هو بالطبع ليس الأول، وغالبًا لن يكون الأخير. هكذا تحوّل العازف الشاب بالنسبة لها إلى ما يشبه الهوس. فهي تحلم به ليلًا، وتصدح أنحاء غرفتها بنغمات كمانه، تستيقظ أوّل ما تستيقظ (ظهرًا عادةً) على أحد ألحانه. رنّات محمولها صارت من معزوفاته. بل إنها تحتفظ ببضع صور له التقطتها سرًّا أثناء عزفه في حفلته الأخيرة بإحدى الجامعات. فكّرت أن تستحضره للعزف لها منفردًا في عيد ميلادها الأخير، الذي لم يكن بالضرورة موافقًا ليوم ميلادها. ولكنّها أدركت أن الوله والعشق سَيَبِينان، وهي كانت تعلم بكل ما يقوم به زوجها ـالسابق الآنـ من مغامرات عاطفية، وقد

احتملته كثيرًا، لكنّها سيدة أعمال قبل كل شيء، ولا تودّ أن تخرج من صفقتها الحالية إلا بأكثر المكاسب الممكنة. الأمر كان أيسر مما اعتقدت. وكما بدأ زواجهما بنزوة، انتهى أيضًا بنزوة. كانت النار تستعر في جسدها حينها وهي تلوك قطعة الحشيش الصغيرة بين ضروسها ولسانها، فأشارت لأحد القائمين على خدمة الحفل، غمزت بعينها في علامة عرف كنهها جيّدًا فأومأ برأسه دلالة الفهم والإيجاب. ولم تمر ثوانٍ، حتى كان الخادم الأمين قد عاد بتلك الكأس الطويلة المملوءة حتى منتصفها بمشروبها الخاص الأثير. هي الآن على قمّة عالية ولا بد لها من استحضار الحالة كاملةً.

يصل جلال في قصيدته للجزء الذي يقول فيه..

((...

ماذا يقول الناس لو قبّلتِني..

داعبتِني..

دلّلتِني..

هدهدتِني مثل الصغار..

مُلتاثٌ.. يعشق مجنونة؟!

.....

بدأ تناقص المدعوين رويدًا رويدًا

وأخيرًا ظهر حاتم الذي مال على أذن جلال مشيرًا إلى امرأة ذات جسد مرمري مغلّف برداء أسود شفّاف، وهمَس:

ـ مدام نِرمين بتعرض على حضرتك إنّها توصلك بنفسها. عجبها شِعرك قوي، وكانت عايزة تتكلم معاك شويتين في السكّة. أمّا مستر سليمان بك، فما تشغلش بالك. دا ضيف مدام مَلَك الخصوصي، وإحنا اللي هنوصله لحد باب البيت، ما تقلقش عليه.

نظر الصديقان كل منهما إلى الآخر.

أبدى سليمان بعض الاعتراض، وظنّ أن صديقه سيوافقه. لولا أن رأى نظرة الإعجاب تلك في عينه. فترك له القرار. ازدرد جلال لعابه في تشوّق، وأطال النظر لمدام نرمين التي أشارت له بأصابعها ومنحته ابتسامة مملوءة بالإغراء والفتنة. ثم أرسلت له قُبلَةً عبر الأثير. كان هذا أكثر مما يحتمل الشاعر الفاقد للاتزان الآن. فأومأ برأسه إيجابًا ورفع يدًا محييةً إلى جبهته. فأشارت له نرمين أن يتبعها ففعل كالمنوّم تمامًا.

كان الحفل قد انتهى في هدوء مريب، فقام سليمان حاملًا سلاحه الناعم يضعه في حقيبته الخاصّة بمنتهى الرقة، حين استشعر دفئًا وحرارة من خلف كتفه، ثم يدًا حانية تلمس كتفه في ارتعاش بسيط. أجفل سليمان إذ لم يسمع وقع

الخطوات الخافتة. والتفت كليًّا جهة اليد الناعمة التي لم يحتج لأي جهد لاستنتاج صاحبته.
تلاقت عيناهما ولاحظ تلك الرغبة المتأججة في عينيها.
نظر حوله فوجد المكان خاليًا إلا منهما.
إنه صولو آخر من نوع خاص.
كانت قريبة منه للغاية فاقتحمه عطرها المغوي من نوع كلايف كريستيان رقم ١، أغلى عطر في العالم، فيشعر أن دفاعاته تتساقط الواحد تلو الآخر. برد فعل لا أكثر ولا أقل مد يديه للفراغ خلفه كأنه بصدد أن يتراجع فيستوثق من المساحة التي سيتراجع إليها. أحمر شفاهها من نوع لانكوم يكاد ينطق مطالبًا إياه بأخذ المبادرة والبدء في تذوقه.
ـ كنت هايل يا س ـ ـل ـ ـي ـ ـم ـ ـا ن...
نطقت اسمه مقطّعًا هكذا. وللمرة الأولى يدرك كم هو جميلٌ اسمه.
أهكذا يجب أن يُنطق؟
س ـ ـل ـ ـي ـ ـم ـ ـا ن...
ارتبك وتلعثم وقد استشعر حرارة تلفح جسده كلّه والدماء تندفع إلى رأسه. غمغم وجفّ حلقه وتسارعت نبضات قلبه كأنها في سباق لتحقيق رقم قياسي جديد. بدأ جسده يتعرّق ويدرك أنه فراشة منجذبة لا حول لها ولا قوة نحو اللهيب المستعر داخل تلك الأنثى. أدرك أنه أضعف من أن يقاوم فتنةً وإغراءً كهذا.
وأخيرًا جدًّا نطق في ارتباك واضح:
ـ أش ـ ـش ـ ـ أشك ـ ـ أشكرك.. شكرًا يا افندم.. متشكر جدًّا..
مدّت شفتيها للأمام وهي تبدي امتعاضًا خفيفًا:
ـ قولي يا مَلَك. أو لوكا. أو أي دلع تاني تحبّه. إنت بالذات مسموح لك تقول أي حاجة. بس بلاش مدام دي لحسن بتفكرني بخيبتي التقيلة. المرة ورا التانية.
ثم أردفت:
ـ أوكي؟
هزّ رأسه في طاعة مؤمّنًا:
ـ أوكي يا مَلَك هانم.
جلجلت قهقهتها عالية فأحس ارتباكًا أكثر مما هو مرتبك.
ـ شكلك مصيبة يا واد يا سليمان انت؛ باقول لك بلاش مدام.. تقولي يا هانم؟!
لم يتمالك نفسه من الابتسام هذه المرة، وبدأ يستشعر بعضًا من شجاعة يفتقدها فقال:

ـ ولا أستاذة مَلَك؟
كان يقولها مزاحًا، وهي أدركت أن مزاحه يعني أن ارتباكه صار أخف. وهي في ليلة كتلك ترغب له أن يكون مزاجه رائقًا، وارتباكه معدومًا. هذه ليلتها ولا تريد أن تفسدها بالاستعجال. تضاحكا، فأشارت له نحو كنبة وثيرة للجلوس، فتجالسا متجاورين، يبين لحمها الأبيض الشهي من الفتحة الجانبية لفستانها في دعوة صريحة وواضحة. بجهدٍ خارق تجاهل دعوتها محاولًا أن يخرج من هذه الليلة سالمًا قدر الإمكان.
سليمان بسابق تجاربه لم يصل قط لهذه المرحلة، ولا يرغب أن يصل إليها.
لا لشيء إلا لأنه يرى في الأمر خصوصية شديدة. وحين يتم الأمر فلا بد له أن يتم مع الإنسانة التي يختارها قلبه وليس جسده. يرى سليمان في العلاقة الحميمية تتويجًا للشعور. يسمّونه في الإنجليزية ممارسة الحب أو فعل الحب، لذا فلا بد للحب أن يكون له ركيزة. له نظرية خاصة في الجنس، فهو يراه التنفيذ العملي المتوّج للحب. فالحب يمرّ بعدة مراحل يحلو له أن يراها أشبه بالمقرّر النظري، وحين يجتاز الحبيبان تلك المراحل بنجاح، يأتي المقرّر العملي الذي يتضمن هذا الفعل الجسدي الحميمي.
هو لا يفتقد لغريزته، هو فقط وضع لها قوانينه الخاصة.
لكن مَلَك ربما تجهل هذا وتظن أنها إذ تعرض نفسها عليه هكذا، فلا بد لأي ذكر كائنًا من كان أن يستجيب. واقعيًّا هي محقّة، ولكنها فقط لا تعرف، تجهل طقوسه وقوانينه.
كانت تلك هي اللحظة التي بدأت تقترب فيها أكثر فأكثر فكاد ثدياها العارمان يفلتان من أسر قمة فستانها المفتوح ليسقطا عليه.
في صوت كالفحيح همست:
ـ عايزاك.
ضغطت حروف كلماتها أكثر وهي ترتعش.. مكرّرةً:
ـ عاايزاااااك.. عايزاك يا سليمان.. عايزاك.. أرجوك.
الأمر أعقد مما يظن، ليتها تتيح له الفرصة ليشرح لها وجهة نظره. تراجع أكثر في الكنبة التي تضمّهما فصار نصفه أو ربما أكثر خارجها. تلعثم في إحراج قائلًا:
ـ لوكا، لوكا، باقول لك ايه، تحبّي أعزف لك حاجة؟ حاجة تكوني بتحبيها؟
إلا أن الشهوة قد أخرجت أنثى الفهد الشرسة من داخلها فتهكّمت في بدايات غضب:
ـ تعزف لي؟! باقول لك عايزاك يا سليمان! إيه؟ مش فاهم؟
حين بدأ الأمر يصل إلى الغضاضة وبوادر الغضب، وقف في حسم هاتفًا:
ـ مَلَك، لوكا، باقول لك ايه.. اسمعيني بس بليز، ثانية واحدة أشرح لك. أرجوكِ.

أجفلت مَلَك لوهلة وهي تنظر له في رغبة عارمة وجسدها يتمزّق حتى لتوشك أن تنزع عنها ملابسها تلك التي تقيّدها، لولا أنها تود له أن ينزعها هو. رَنَت له في استجداء وقد بدأ الصد يجرح كبرياءها الذي لم يعتد هذه المقاومة من قبل. تجاهل سليمان رغبته وتصلّبه وجفاف حلقه وتسارع دقّات قلبه المجنونة مكملًا:

ـ مَلَك، إنتِ انسانة جميلة قوي، قوي قوي قوي. فوق ما تتخيّلي. غالبًا أجمل ست شفتها في حياتي «فيس تو فيس» لدرجة إني حاسس إنك في حلمي مش حقيقة.

كلمات الإطراء تلك تجد طريقها لأذن أي امرأة مهما كانت، ولكنها لم تكن تحتاجها، لأنها تعرفها جيدًا، ولأنها حتمًا ستصطدم بجدار فولاذي قاهر اسمه «لكن»!

استأنف سليمان في ارتباك:

ـ أنا باحترمك جدًا، ومبسوط قوي إن عزفي عجبك للدرجة اللي تخليكِ تجيبيني مخصوص علشان أعزف في الحفلة بتاعتك، وألاقيكِ عاملاني ضيف شرف وفقرة رئيسية وتوافقي على كل شروطي وتجيبي صاحبي معايَ وكمان تدّيني قرشين حلوين.

عضّت شفتها حين ذكر المال. فقد أدركت الرابط بينه وبين ما تطلبه الآن، وهو ما لم يدُر بخلدها قط. بالعكس هي تحبّه وترغبه فعلًا، بل تكاد لا تطلب من الدنيا سوى رضاه. إنها تعشقه بشكل لم تعرفه في نفسها، ولم تكن تظن أنها قادرة عليه. ما زال بمقدور سيدة أعمال مثلها، تقيس كل الأمور بمنظور الربح والخسارة، حتى العلاقات الإنسانية، أن تعشق وتتذلّل بفعل الغرام.. بل تبذل نفسها دون مقابل تحت أقدام مَن تحب.

المرأة حين تحتاج للمال، فيمكنها أن تقدّم جسدها فقط.

أما إذا عشقت، فهي تقدّم نفسها معه.

استمر سليمان في جلدها بسياط من نار:

ـ صدقيني يا مَلَك ما يصحّش. خلّينا اصحاب. إنتِ ما تعرفينيش. ما تعرفيش سليمان. سليمان الشخص. إنتِ بس مُعجبة بـسليمان اللي بيعزف كمنجة. إنتِ بتحبي مزّيكة سليمان، وإحساس سليمان، واندماج سليمان، بس مش ممكن تكوني بتحبّي سليمان، لأنّك ما تعرفيش سليمان!

كلماته مطارق حديدية تنهال عليها فتستشعر الألم الحارق يتسرّب لكل حناياها دون سابق إنذار أو تنبيه. في الأحوال العادية، كانت مَلَك التي تعرفها، ستمتلئ حقدًا وكرهًا ورغبة عارمة في الانتقام، كانت ستصرخ في وجهه.. تصفعه.. تتهمّه بأي تهمة زائفة وتطرده شرّ طردة..

كانت ستحيل حياته جحيمًا..

كانت.. وكانت.. وكانت...
لكن هذه مَلَك من نوع آخر، نوع جديد لا تعرفه.
ربّت على كتفها في إخلاص حقيقي وابتسم لها ابتسامة واسعة كالمحيط فتاهت فيها. نظرت له بعيون مغرورقة بطبقة شفافة من دموع تأبى إلا أن تتدحرج ساقطة عبر أخدودين من نار. مسّ أنامله لكتفها كان له فعل الكهرباء، فبدأت ترتعد في شدّة. زاد من تربيته على كتفها، واستلّ كمانه من حقيبته، كأنه فارس يستلّ سيفه من غمده في سرعة ومهارة.
بسرعة شديدة كان قد اتخذ وضعية العزف.
رفعت مَلَك ساقيها وضمّتهما تحتها مقلّدة ربة منزل حانية تتدثّر بشال صوفيّ ناعم، بينما تتمسّح قطة سيامية تموج بالميوعة والدلال في يديها أمام مدفأة متّقدة المشاعر في ليلة شتاء باردة.
انفضَّ الكون حولهما، وتوحدت مع عشقها الحقيقي.
موسيقى سليمان.
بدأ في عزف مقطوعات لـكارين بريجز وأندرو بيرد. ثم شوبرت بالطبع. ثم روبي شتاينهاردت.
ثم بعض من معزوفاته الشخصية مرة أخرى.
مع كل نغمة يبدأ جسدها يهدأ تدريجيًّا وتستشعر لذّة في فمها تفوق لذّة الـرومانيه كونتي إنتاج ١٩٤٤، بل تفوق كل شيء ماديّ ملموس. تأتيها فلاشات ضوء كأنها من عالم آخر.. لذّة من نوع خاص. تستحلبها وتتناغم منها، في شبق.

١٠. سي-ري-نادة

لم تتمكن هند من النوم هذه الليلة.

لم تكن خسارتها المادية للكمان هي خسارتها الوحيدة، بل كانت الخسارة الأكبر هي كرامتها التي أهدرت، آدميتها التي أدميت. ما زاد من ألم الطعنة وأثرها أنها جاءت ممّن كان من المفروض أن يكون أحرص الناس عليها. سمعت كثيرًا عن الابنة التي هي قرّة عين أبيها، وعن الآباء الذين يشنّون حربًا شعواء بلا هوادة من أجل بناتهم. رأت ذلك في الكثير من الأفلام، وقرأته في العديد من القصص والروايات، بل إن كتب التاريخ حبلى بتلك القصص المؤثرة عن علاقة الابنة بأبيها. يقولون الولد ابن أمه والفتاة بنت أبيها. أإلى هذا الحد هم واهمون؟!

ـ بنتِك فَجَرت يا إحسان! واضح إني كنت مرخرخ الحبل زيادة عن اللزوم، البت دايرة في الشارع معاها كمنجة؟ طيب ما تدور بطبلة ورِق أحسن! ومين عارف ما جايز بكرة تشتغل رقّاصة ولا تدور على حلّ شعرها فَي شارع جامعة الدول! قسمًا عَظَمًا البت دي لو عتّبت برّا باب البيت دا لاكون جايب راسها على صدرها! فاهمة يا إحسان ولا أعيد من الأوّل؟! إنتِ فاهمة لو كلامي دا اتكّسر دا معناه إيه بالنسبة لك؟ فاهمة ولا لأ؟

هكذا أنهى الأب محاضرته القصيرة التي لا يتلوها استفهام أو مناقشة. يبدأ بانهماك في إعداد سيجارته اللف بمهارة، مستخرجًا ورقة بفرة من علبة صغيرة ليفرد عليها طبقة أسطوانية من عشبه البنيّ الأثير يسبقها فلتر أبيض صغير. يلعق طرف ورقة البفرة في شبق غريب وتلتمع عيناه الحمراوان المطفأتان على الدوام لوهلة خاطفة. يشتعل طرف السيجارة غير منتظمة القوام، ثم بدأت رائحة الدخان الغريب تتسرّب لأرجاء المنزل لتصل إليها فتستشعر خدرًا يشملها ودوارًا خفيفًا محبّبًا يخفّف من وطأة آلامها ومعاناتها. أخرجها من خدرها اللذيذ المؤلم صوت باب الشقّة يصفق في عنف. ليعقبه صوت نهنهة أمّها الباكية.

أرخت رأسها الثقيل للوراء قليلًا.

مستسلمة لذلك الإحساس الجميل بالروح تغادر الجسد محلّقة في أطياف أخرى. تسترجع في ذهنها موسيقى السيرينادة لـفرانز شوبرت المعزوفة على الكمان والبيانو التي تنجح دومًا في إدخالها إلى حالة من حالات الصفاء الذهني والهدوء. تسترجع أيضًا حياة العبقري المأساوية ووفاته في سن مبكّرة وعمره واحد وثلاثون سنة فقط! ولكنّه كان قد ألّف ما يقرب من ستِّ مئة عمل موسيقى منها سبع سيمفونيات كاملة وسيمفونيتان لم تكتملا. كل ذلك في

واحدٍ وثلاثين عامًا. أدركت أن المشكلة حقًّا ليس في قلة الوقت أو زيادته، ليس في طول الأعمار أو قصرها، بل العبرة في الأثر الذي يتركه المرء لمن بعده. مرّة أخرى تدرك عدمية حياتها وقلّة حيلتها. تستجمع بعضًا من ذاتها المبعثرة بين ذرّات الكون لتدرك أنه من الضعيف جدًّا أن تنكسر أو تنهزم.. أنه من البؤس أن تظلّ على حالها تلك تبكي وتولول على المتاح والممكن والمقبول.

دخل عليها أخوها عليّ مُربّتًا على كتفها في حنوّ وهي جالسة على السرير متكوّرة على نفسها ككرة صوف أليفة. أفاقت من الموسيقى التي كانت تعزفها داخليًّا والتفتت لما يظن أنه يواسيها به:

ـ ولا يهمك يا هند.. ربنا ع الظالم والمفتري. ما تزعّليش نفسك يا حبيبتي. بكرة أجيب لك كمنجة أحلى منها مية مرّة.

ثم برزت يده بمئتي جنيه وهو يستطرد:

ـ أنا عارف إن الكمنجة بأغلى من كدا بكتير. بس وديني وأيماني لأدبّر لك بقية الفلوس في أقرب وقت. أنا بقيت باشتغل شغلانة كدا بعد المعهد عند أسطى ميكانيكي والدنيا قشطة. بس طبعًا مش قايل لأبويَ لا يطيّن عيشتي. وفي الآخر هياكُل عرقي ومش هينوبني منه غير البهدلة وقلة القيمة.

نظرت لأخيها الذي لطالما تعاملت معه أنه ابنها البكريّ وأدركت أنه بدأ ينضج ويقتحم عالم الرجال. حاولت أن تتمنّع وتردّه بالمئتي جنيه إلا أنه رفض في إصرار شديد. لم ترغب في أن تضايقه فتناولت منه النقود التي بطبيعة الحال لا يمكنها أن تشتري كمانًا جديدًا ولو كان مستعملًا، ولكنه قد يساعد مستقبلًا. كما أنها أيضًا كانت ترغب لأخيها أن يدرك أهميته لها وللعائلة متحاشيةً التأثير السلبي لطغيان أبيها عليه، وهي لا ترغب أن يكون ذكرًا آخر ممّن يعانون من مركّبات النقص وقلة الحيلة فيبدؤون في ممارسة القهر والإذلال لأقرب الناس إليهم.

خرج أخوها لتدخل أختها الصغيرة، تربّت عليها هي الأخرى، ثم تكوّر نفسها في حضنها، تلتها أمهم. الآن تستشعر هند دفئًا لذيذًا محبّبًا، وتدرك أنه لا يمكنها أن تستسلم وتنهزم ما دامت محاطة هكذا بالمحبين.

مرّ من الليل ذلك الوقت الكافي حيث هجعت فيه الكواسر وهدأت فيه النوائب.

كانت أختها الصغيرة لبنى قد نامت على ذراعها، فحررّتها بحذر.

كتبت لـسليمان الرسالة القصيرة التي كانت تقول «أبويَ كسر لي الكمنجة.. آسفة.. مش هأقدر آخد دروس لحد ما أقدر أشتري غيرها».. وفي الوقت الذي كانت تنتظر فيه الرد جاءتها رسالة من أسامة وهو الذي لم يعتد قبلًا أن يرسل لها أي رسائل «آسف يا هند على اللي هاقوله.. بس إنتِ وحشتيني».

ارتبكت هند قليلًا وهي لم تكن تعلم أن علاقتها بـأسامة تسمح له بمثل هذه الرسالة. هي لم تخفِ إعجابها به، أيّ أنثى مكانها كانت ستفعل، غير مدركة

كم عانى الأمرّين حتى استجمع شجاعته لكتابة مثل هذه الكلمات القليلة.
كان الدفء الذي تستشعره هند يتزايد باضطراد وهو ما لم تعتده من قبل، فتوجسّت منه خيفة.
فكّرت أن ترد على رسالة أسامة ولكنها تساءلت في قرارة نفسها عن معنى ما سترسله أيًّا كان. لو كانت رسالة جافة فستغلق بابًا لا تدري أيّ خير ربما يختبئ وراءه، كما أن مجرّد الرد سيعطي الطرف الآخر انطباعًا أنها تهتم وأنها لم تتمكن من الانتظار لترد على ما أرسل. ربما سيعني الرد حتى لو كان جافًّا معنًى لم تقصده أو تتعمّده. فما بالك لو جاء ردّها رقيقًا مهذّبًا، سيعني هذا بالتبعية أنها تكنّ له مشاعر من نوع خاص، وأنها كانت تنتظر مثل تلك الرسالة بشوق وفراغ صبر.
قررّت أن تتجاهل الرسالة.
في الصباح، وجدت رسالة أخرى منه معتذرًا عن الرسالة السابقة، فلم تبدِ انفعالًا.
بدأت استعداداتها من أجل الذهاب إلى العمل، فجاءتها إحسان بهدوء من خلفها متسائلة:
ـ بتعملي ايه يا هند؟
ـ بالبس يا ماما علشان أروح الشغل.
ـ شغل إيه يا بنتي؟ إنتِ ما سمعتيش أبوكِ امبارح ولا إيه؟ مش أبوكِ حرّج عليكِ الخروج من البيت؟
مطّت هند شفتيها في لا مبالاة وتصاعدت كلامها وهي تتعمّد أن تؤكد على مخارج ألفاظها:
ـ هيعمل إيه أكتر من اللي عمله؟ الحاجة الوحيدة اللي كنت باحبّها كسرها. وبعدين هو اللي محتاج الكام ملطوش اللي باجيبهم له كل أوّل شهر. ولا انتِ مش راسية على الحوار؟ من غير شغلي.. البيت دا ما يمشيش.. نجوع.. ما نعرفش نكمل مصاريف.
ـ عارفة يا بنتي.. عارفة.. بس ما يخلصكيش البهدلة لأمّك يا حبيبتي.. إنتِ عارفة أبوكِ.. شرّاني ويعمل أي حاجة.
ـ مش هيعمل حاجة تاني يا ماما. هو بس كدا يحب يجعجع ويبعبع وبعدين مش هيعمل حاجة تانية. هو نفسه تلاقيه ما كانش يقصد الشغل.
ـ طيب نكلّمه الأول يا بنتي ونستأذنه.
ـ نستأذن إيه يا ماما؟ دا أنا داخلة على خمسة وعشرين سنة. دا اللي زيّي عندها بيت وعيال.
ـ بس إنتِ ما عندكيش لا بيت ولا عيال يا هند. إنتِ لسّا تحت طوعه ولا نسيتِ؟

استهدي كدا يا بنتي. خلّينا نكلمه الأول. ولا خدي النهاردة عارضة ولا حاجة.
ـ ولا عارضة ولا غيره. أنا نازلة يا ماما.
ـ علشان خاطري يا بنتي. نكلّمه الأول.
ـ اعملي اللي إنتِ عايزاه يا ماما. بس بعيد عني.
ـ طيب يا حبيبتي أنا رايحة أكلّمه أهو. والنبي ما تروحيش في حتة لحد ما نشوف هيقول إيه. ما تخربيش على أمّك يا هند وحياتي عندك.
وعندما عادت إحسان بعد دقيقتين متجهمة تحمل الرفض المتوقع لنزول هند من والدها، لم تجدها. لقد غادر القطار المحطة. بسملت الأم وحوقلت وقد رأت بأمّ عينها الغيوم السوداء تتكاثف في سماء بيتها الذي يبدو موشكًا على مواجهة مدمّرة.

* * *

فكّرت هند مع كل درجة سلم تنزلها أن تتراجع. أن تقبل الهدنة المؤقتة وتلتزم بأوامر والدها الصارمة. لكنها تستشعر أن تلك الحادثة قد غيّرتها ربما إلى الأبد. هذه هند جديدة لم تعهدها. وفي الميكروباص الذاهب إلى مقر عملها، أمسكت تليفونها في عصبية وردّت على رسالة أسامة برسالة أخرى «وأنا كمان آسفة.. لكن مش شايفة إن اللي بيننا يسمح لحضرتك برسالة زي اللي بعتها لي.. مع السلامة». كان ردّها جافًّا قاسيًا مرًّا، حتى إنها أشفقت لوهلة على الفتى المسكين، ولم ترغب في رؤيته عند قراءتها.
قلّبت في رسائلها مرّة أخرى انتظارًا للرسالة التي لم تأتِ.
وربما لن تأتي أبدًا.
أغلقت شاشة تليفونها في عصبية. نفس العصبية التي صعدت بها درجات السلم القليلة بواجهة الشركة، نفس العصبية التي وضعت إصبعها بها على جهاز البصمة لتسجيل الدخول، وهي أيضًا نفس العصبية التي طلبت بها من عامل الكافيتيريا فنجان قهوة مانو ربما للمرة الأولى في حياتها.
حقيقةً كان عملها تافهًا وربما لا لزوم له. فقضت معظم وقتها على صفحات التواصل الاجتماعي السخيفة. توقفت لبرهة عند صفحة عن قواعد العلاقات، قرأت بعضها، وعندما ملّتها، أغلقتها، وأغلقت الكومبيوتر نفسه، لتبدأ في ممارسة بعض الألعاب على تليفونها المحمول.
جاءتها سيلڤيا سكرتيرة من السكرتيرات الأرقى تخبرها أن مستر كمال قد أرسل في طلبها.
لم تكن في مزاج جيد، ولا مستعدة لمثل تلك المقابلة المجهولة السبب، غير المضمونة العواقب. حاولت أن تستعيد واحدة من المقطوعات الموسيقية التي تساعدها على الهدوء والاسترخاء، لكنّها لم تتمكّن من استرجاع أيٍّ منها.

عوضًا عن ذلك فوجئت بذهنها يرواغها ويذكر تربيتة يد سليمان كوسيلة لاستعادة الهدوء.
الغريب في الأمر أنه نجح.
ربما أن ذهنها يعرفها أكثر منها.
ولكن أيّ معنى تحمله تربيتة يد لا معنى لها؟ لو كانت ذات معنى لما أهمل الرد على رسالتها.
الآن تسمع الصوت الواضح لوصول رسالة. نظرت لكُنه مرسلها وقد أقسمت لو كانت رسالة أخرى من أسامة فإن ردّها سيكون رادعًا وأكثر قسوة من الرسالة السابقة. لكن ما إن رأت اسم المرسل حتى تهلّلت أساريرها فجأة، وزال كل أثر للارتباك أو التوتر. قرأتها وهي في طريقها لمكتب مستر كمال.. «ولا يهمك كمنجة.. أو ألف غيرها.. معايا كمنجة احتياطي.. ممكن أسلفها لك ساعة التدريب.. هستناكِ».
كان من الغريب أن يرد سليمان، الذي كان يتحيّن الفرصة للانسحاب من الدرس المنفرد، وتجنيب نفسه أي منحنيات أو معانٍ لا يقصدها. هند تجهل ذلك ولا تعرف عنه شيئًا. حتى سليمان لا يدرك لِمَ جاء ردّه حانيًا إلى هذا الحد. ربما كانت تجربته الأخيرة قد غيّرته هو الآخر. فاستشعر تشابهًا بين ظروف حسنية التى ترعى أخاها المعاق، وبين هند الراغبة في الحلم والرازحة تحت وطأة طغيان أب لا يرحم ويكسر الكمنجات.
أو أن سليمان أضعف من أن يحرج أنثى تحتاجه.
ربما هو من ذلك النوع الذي يقرأ ما بين سطور الأنثى فيضطر مرغمًا أن ينفّذ.
أو أنه فقط مرتبك بعد ترك علا له فلا يحسن التفكير أو اختيار ردود الأفعال.
ـ اتفضلي يا آنسة هند.
ـ ما يصحّش يا أفندم.
ـ اتفضلي باقول لك.
الخمسيني الأنيق جاء صوته صارمًا لكن دون غضب ووجهه مبتسمًا تلك الابتسامة الدبلوماسية مجهولة التفسير. ساعة يده البرّاقة، وعويناته عديمة الإطار، وعطره الذكوريّ الفوّاح المقتحم، كلها أو بعضها كانت سببًا في أن يعاودها التوتر. هي لم تعتد على التعامل المباشر معه، بل تكون التعاملات عادة مع سيلڤيا أو أي سكرتيرة أخرى من سكرتيرات مستر كمال المباشرات.
ـ آنسة هند. إنتِ بتعرفي إنجليزي كويس؟
ـ وشويتين فرنساوي مش بطّالين يا أفندم.
ـ وبتعرفي كومبيوتر كويس.. إكسيل، وورد، باوربوينت، الحاجات بتاعة الأوفيس دي؟

ـ وشوية فوتوشوب وفلاش كمان.
ـ كويس، كويس، اممم...
ـ خير يا افندم؟
ـ خير إن شاء اللـه.. بصّي يا ستي.. دلوقتي إنتِ بقالك عندنا في الشركة سنتين ونص. والناس بتشكر فيكِ قوي.. وبعدين مدام سوزي مضطرة تاخد أجازة شويتين كدا.. ورجوعها بعد كدا مش مضمون.. ومكانها هيكون فاضي.
تزايدت ضربات قلبها وهي تتوقع الجملة الآتية.
ـ فمدام سيلڤيا رشحتك علشان تحلّي محلّها. طبعًا دا بصفة مؤقتة في البداية لحد ما تثبتي كفاءتك وموقف مدام سوزي يتضح.. وبعدها ربّنا يسهّل.
وقف ومدّ يده ليسلّم عليها وقد تورّدت وجنتاها واستشعرت نفس السخونة التي أحسّت عند تربيتة يد سليمان. مدّت يدها المتعرّقة المرتبكة تسلّم على مستر كمال وهي تغمغم:
ـ أشكرك يا أفندم، أشكرك، شكرًا جزيلًا.
ـ طبعًا يا هند المرتب هيزيد والمميزات هتكون أكتر. بس... بس...
انقبض قلبها فجأة وهي تتساءل عن كُنه هذه الـ(بس) فلم يتركها كمال لحيرتها كثيرًا وهو يستأنف:
ـ المظهر... يعني... عايز يعني... بصّي.. روحي لمدام سيلڤيا وهي هتفهمك المطلوب.
وحين خرجت، كانت مدام سيلڤيا واقفة بجوار الباب وابتسامة عريضة على شفتيها. وفي حركة تفتقر للّياقة، احتضنتها وقبّلتها على الخدّين وهي تقول:
ـ متشكرة قوي يا مدام سيلڤيا، ربنا يخلّيكِ، متشكرة قوي، بس إشمعنى أنا؟
عدّلت سيلڤيا من ملابسها باحترافية وتنحنحت متجاهلة التساؤل وهي تقول بحزم:
ـ هند.. ما تنسيش تعدّي على الخزنة قبل ما تمشي. مستر كمال أمر لك بمكافأة كدا علشان خاطر بند المظهر والحاجات دي. روحي اشتري لك طقمين تلاتة كويسين وشوية ميك أب بس يكون ماركة كويسة. مظهر السكرتيرة أهم حاجة في شغلها. خصوصًا إنك دلوقتِ بقى ليكِ تعامل مباشر مع العملاء والمديرين والاجتماعات والسفريات.
جاء وقع الكلمة الأخيرة بالنسبة لها مفاجئًا، فغمغمت بصوت خافت متسائل:
ـ سفريات؟ سفريات إيه؟
رفعت سيلڤيا حاجبها الأيسر وتلاشت الابتسامة عن وجهها وهي ترد:
ـ آه طبعًا سفريات يا ست هند! أمّال كنتِ فاكرة إيه؟ الترقية دي حلم لأي بنت في سنّك وما حدش وصل له بعد الوقت القصير دا. احمدي ربّنا. ويا ريت تثبتي

إن وجهة نظري صح. ولا إيه؟
ـ وجهة نظر إيه بس يا مدام سيلفيا؟ دا أنا ما ليش لازمة.
ـ بالعكس يا هند! إنتِ اللي ممكن ما تكونيش عارفة قدراتك لسا. حاجة جوايَ بتقول لي إنك هتكوني عند حسن الظن دا.
ـ حاجة جواكِ؟!
ـ سمّيه هاتف، سمّيه نداء، سمّيه أي حاجة! بس إحساسي دا عمره ما خيّب معايَ. يلّا شهّلي بسرعة وروحي الخزنة علشان تصرفي مكافأتك.
أطرقت أرضًا في قلق وخوف.
هند الوليدة ثانية، كانت على أتم الاستعداد للترقية، مواجهة والد غاضب والاستمرار في العمل، في تحسين مظهرها بالشكل اللائق للوضع الجديد. أما موضوع السفر هذا فقد كان بالنسبة لها مستحيلًا. ولكن كيف السبيل إلى التراجع الآن؟
سحقًا لتلك الشجاعات غير المكتملة. فمصيرها المحتوم هو التهلكة.
حاولت أن تتذكر تربيتة يد سليمان مرّة أخرى.
هذه المرّة.. لم تفلح.

* * *

ـ ما تقلقيش يا آنسة هند؛ الكسر دا من النوع البسيط. الحمد للـه إنه مش مضاعف والعضمة التانية سليمة. والكسر كمان بعيد عن المفصل. الحمد للـه.
كانت هند تتألم بشكل مريع متذكّرة الضرب المبرّح الذي استقبله بها والدها. ليستأنف الطبيب:
ـ حضرتك متأكدة إن كل دا وقعة من ع السلّم؟ أصل يعني فيه كدمة تحت عينك، وكدمتين في الضلوع الناحية التانية، وشوية جروح سطحية على الضهر، إممم، يعني.. إ.. إ.. شكلها عامل زي ما يكون ضرب بحزام أو حاجة جلد كدا!
اتسعت حدقتا إحسان في ذعر، بينما الوالد في الخارج يدخّن أحيانًا ويلوك بين أسنانه شيئًا مجهولًا أحيانًا أخرى. كانت كلمات الطبيب واضحة وضوح إصابات هند، إلا أنها غمغمت:
ـ أيوة متأكدة يا دكتور، إشمعنى؟
نظر الطبيب لمنظر الأم المذعورة ومنظر هند التي تجزّ على أسنانها مغالبة آلامها، وعليّ الذي يعض شفتيه في غيظ مكتوم، قبل أن يستأنف وهو يحقنها بسائل أصفر شفّاف:
ـ يعني لو حد بيتعرّض لك كدا ولّا كدا، ممكن نعمل محضر ونمضّيه على تعهد، أو حتى نسجنه! صدقيني أنا عايز أساعدك والحالات دي ياما بنشوفها اليومين دول!

تسقط دمعتان صامتتان على خديها، تتماسك وهي تستشعر السائل الأصفر اللذيذ يسري في عروقها، مؤكدة روايتها السابقة:
ـ أيوه يا دكتور، متأكدة، وقعت من على السلم وأنا نازلة أجيب حاجة، متشكرة قوي لاهتمامك، متشكرين قوي.
مطمئنًا للمرة الأخيرة على وضع الجبس في يدها ومنتهيًا من كتابة روشتة بالعلاج ضمّنها مسكنًا قويًّا ومضادًّا حيويًّا، سلّمها لهم وهو يهز رأسه يُمنى ويُسرى مغمغمًا:
ـ أرجو إني ما اشوفكيش تاني يا آنسة هند، لأن الحالات اللي زي كدا عادة بنشوفها كذا مرة، الموضوع أول ما بيبتدي، بيتكرّر بعد كدا على طول، لأن الحاجز الأولاني بيكون اتكسر!
نظرت له في وهن وهي تقول:
ـ اطّمن يا دكتور، هتكون آخر وقعة إن شاء اللـه.
استندت على كتف أخيها وأحاطتها أمها بذراعها وهم يخرجون من عند الطبيب في غرفة الاستقبال بالمستشفى المجاني الكبير.
لم يكن الوالد في انتظارهم عند الخروج، ليتكلم عليّ للمرة الأولى:
ـ ممكن أفهم إنتِ ليه ما قُلتيش على كل حاجة علشان نستريح منه ومن شرّه؟
تدخّلت إحسان في احتداد واضح:
ـ شرّ إيه يا واد؟ اتأدّب وانت بتتكلّم عن أبوك! ما هند قالت لك أهو إنها وقعت من على السلم.
ـ سلم إيه يا امّه؟! إنتِ فاكراني داقق عصافير؟ كلام الدكتور واضح وباين، حد ضاربها. وطبعًا ما فيش غيره، ربنا يرّيحنا منه بقى ونخلص!
ـ بس يا علي! اسكت!
جاءت هذه الجملة الحاسمة من هند ليعم هدوء لا يقطعه سوى النظرات المتبادلة بين الأم وابنتها. نظرات من قبيل: ألم أقل لكِ؟ تقابلها نظرات من قبيل: ولكن، أيصل به الأمر إلى هذا الحد؟ لكنهما ظلّتا صامتتين، بينهما شاب يتأجّج ويمور الغضب الساذج داخله.
الآن يقابلهم الوالد.
كان وعي هند ضبابيًّا من تأثير المسكن القوي الذي حقنها به الطبيب، والألم المبرّح الذي كانت تشعر به قبلها. من خلف الغلالات الضبابية ترى ذقن والدها غير المحلوقة وشعره المشعث بذلك الفراغ الواسع في المنتصف، كتفاه المتهدلتان وجسده المتهالك وكرشه الضخم المتأرجح. أنامله المهتزة وهو يقبّل سيجارته في شبق محموم. تمتد شفتاه وينشفط خدّاه كأنه يمتص من لعنته

الأبدية رحيق الحياة. عيونه قلقة مهتزة وربما تحمل بعض الخوف. نظرت له هند بعينين زائغتين ولا تعرف من أين شعرت بتلك الشفقة الزائدة تجاهه. تستدعي في ذاكرتها السحيقة ذكرى أبيها بجسد رياضي متناسق مرتديًا قميصًا أبيض مفتوح الصدر، يبين شعر صدره الغزير في فحولة بادية، شعره ناعم أسود لامع، يحملها على كتفه في قوّة مشيرًا إلى فستان زهري بكرانيش في ڤاترينة زجاجية تمهيدًا لشرائه لها بمناسبة أحد الأعياد. كانت ابنة وحيدة، وكان الكل سعداء.

جسدها الواهن على وشك السقوط.

لا يكفي حضن الأم الواهن ولا الأخ الغاضب لرفع جسدها كما يجب.

من بين غياهب الضباب تنتشلها يد قوية حاسمة. تحيط بخصرها من تحت الذراعين فتحلّق بها في السماء السابعة. ترفرف أجفانها وهي تسقط في جبّ سحيق. ترى والدها مبتسمًا يبين شعر صدره الغزير من قميصه الأبيض المفتوح. يحملها في حنوّ بالغ وهو يهمس في عذوبة:

ـ سامحيني يا هند، ما كانش قصدي، مش هاعمل كدا تاني، سامحيني يا حبيبتي!

ربما كانت هذه المرة الأولى التي يرى فيها عليٌّ والده يهمس. لم يكن يعرف أن بمقدوره أن يهمس.. أن يكون رقيقًا. كما أنه لم يعرف قبلًا أن بإمكان والده أن يحمل جسد أخته غير الضئيل، بيد واحدة. نظرت إحسان للوضع كله ودموعها تنهمر في غزارة. ربّتت على يد الوالد التي تحتوي ابنتهما. بينما صَمَت عليٌّ مأخوذًا بجلالة الموقف ومهابته. هو بالطبع يرى انفعالات وجه والده وإرهاصات الدموع لا تنزل في مقلتيه، لكنه لا يفهم الأمر برمّته.

لم تكن هند قد نامت بعد حين وصلوا للمنزل.

أسجاها والدها على سريرها ولبنى يتفجر الدمع من عينيها، ولا تفهم أي شيء مما حدث. نظرت لوالدها في تنمّر. بينما زعقت فيها الأم بلهجة حاسمة:

ـ يلّا يا بت! سيبي أختك تستريح شوية!

لم تستمع لبنى للهجة أمها الحاسمة، بل تمسّكت بأختها الكبرى أكثر فأكثر. في ذلك البرزخ ما بين الوعي واللاوعي أمسكت هند بيدها السليمة، يد والدها وعيناها أسئلة. اكتفت منها جميعًا بسؤال واحد، مهّدت له:

ـ إنت عارف يا بابا إني كنت بقيت باعزف حلو قوي. سليمان قال لي إني بقيت هايلة. سليمان قال لي هيجيب معاه كمنجة تانية غير اللي إنت كسرتها. سليمان قال لي إني.. إني.. إني...

لا يعرف الأب على وجه التحديد مَن سليمان، كما أنه لا يدري أيّ انفعال يعتمل بداخله، الأب الذي غرّب نفسه إجباريًّا عن فرحته الأولى، ها هو الآن قد صار قاسيًا لدرجة ارتكاب جريمة كادت عواقبها أن تكون غير محمودة. كان من

المفروض أن ينفعل كعادته. كان من الممكن أن يضرب ابنته ثانية. أن يخبرها أنه سيكسر كل كمان تمسّه يداها. لكن ربما ما زال في القلب بقية من رحمة، وفي نفسه آثار أبوة لم تمت. يتسرب إليه ندم من جهة يجهلها، يتغلغل داخله فيستمسخ نفسه وما آل إليه، فوجد نفسه يقول في صدق:

ـ طول عمرك شاطرة يا هند. وأي حاجة بتعمليها بتبقى هايلة. سامحيني يا بنتي.. معلش!

ابتسمت هند في وهن وهي تمارس آخر لحظات وعيها. لتسأل سؤالها الذي تراقصت بوادره في نظراتها الزائغة:

ـ هو أنا هأعرف أعزف تاني يا بابا؟ تفتكر؟

احتضنتها الأم ولبنى في قوة آلمتها برغم المسكن القوي. ودبّ أخوها الأرض في انفعال واضح. اما الأب فقد اكتفى بتربيتة أخيرة وهو يهمّ بالقيام من مكانه:

ـ ربنا يسهل يا هند. قومي إنتِ بالسلامة وبعديها ربّك يسهلها.

استنكر السؤال في قرارة نفسه، ولكنه وجد أن تلك هي الإجابة الأنسب. وجهة نظره أن اللـه لا يسهّل أيّ شيء لأيّ أحد في هذا الكون، لذا فإن لفظة اللـه يسهل تحوّرت مع الوقت وتحوّل معناها ليكون مرادفًا للرفض المؤدب. هو نوع آخر من تسويف الأشياء للزمن الذي لا يأتي والظروف التي لا تحدث، والنفوس التي لا تتغيّر. هو نوع من إلقاء اللوم على الأقدار والقسمة والنصيب والآخرين والمحيط الخارجي بكل عناصره. هي مجرّد «لا» بمنتهى البساطة والجرأة والحسم، بمنتهى التواكل وقلّة الهمّة وسوء الفهم.

تتكاثف الأبخرة الضبابية التي تبتلع وعي هند فيما يشبه نفقًا على شكل دوّامة متحركة في سرعة رهيبة، تلك السرعة الرهيبة التي تعطيك الانطباع بأنها تتحرك في بطء شديد عكس الاتجاه في خدعة فيزيائية معروفة في علم البصريات. تجد نفسها في رداء أبيض خفيف بلا أكتاف، يتطاير ذيل الفستان كاشفًا ساقيها في براءة لا إغراء. يصل الضباب المتكاثف إلى نصف ساقيها، بالقدر الكافي الذي يغطّي به قدميها، التي تمضي قُدُمًا دون أن تحرّكهما. تحس هند بكل شيء حولها وتقلّب بصرها دائريًّا متأملةً النفق الدوّامة.

بعد زمن لا حساب له.

وصلت هند الطرف الآخر حيث مرج أخضر شاسع الاتساع يموج بقطاعات كبيرة من الزهور الملوّنة والأشجار المثمرة بالفواكه. عند التقاء المرج بالأفق، كانت بحيرة ماء كبيرة تشرب منها الغزلان وقطعان من الزراف والحمار الوحشي في هدوء. أدغال قصيرة حبلى بالتوت البرّي والزهور الصغيرة البيضاء والزهرية والصفراء. في تردد اقتطفت ثمرة توت أرجوانية، تذوّقتها على طرف لسانها أولًا دون أي تفسير لهذا التصرف. وحين وجدت طعمها لذيذًا قضمت منها قضمة صغيرة وأخذت تتلذّذ بالطعم الشهي لثمرة التوت التي لم تذق مثلها من قبل.

وبالرغم من أن البحيرة بدت لها في البداية بعيدة جدًّا فإنها وجدت نفسها عندها دون أي جهد يُذكر. لدهشتها لم تجفل الحيوانات من ذلك الحضور الإنساني المقتحم لعالمها وخصوصياتها. بل إنها أفسحت لها طريقًا بينها كي تتقدّم للبحيرة. كانت تحس بالعطش. فانحنت على ماء البحيرة لترى انعكاس وجهها على الماء رائقًا.. وربما...
جميلًا!
بشرتها صارت أنضر، وشعرها صار أطول وأنعم. شفتاها صارت ثمرتَي كرز أحمر وملامحها صارت مشوبة بالسعادة التي أضفت إلى جمالها جمالًا إضافيًّا تلحظه للمرّة الأولى. وأعجبتها كثيرًا تلك القلادة التي تزيّن رقبتها والجزء الأعلى من صدرها بقطعة العقيق الحمراء الصافية المتدلية منها.
مدت يديها للماء فاندفع الماء من تلقاء نفسه متجمّعًا في كفيّها.
رفعت كفيها فبدأ الماء عكس اتجاه الجاذبية يصعد إلى فمها باردًا رائقًا كما لم تتذوقه من قبل.
أخذت تشرب حتى ارتوت، وبدا كما لو أن الماء يتجدّد تلقائيًّا بين كفيّها.
نظرت لكفيّها مرّة أخرى فوجدتهما امتلأتا بثمر التوت مختلف الألوان.
لكل ثمرة نكهة ومذاقًا يختلف عن الأخرى.
أصابها خاطر مرعب.
هل ماتت؟
هل هي الآن في الجنة مستمتعة بما لا عين رأت ولا أذن سمعت؟
فكّرت مرّة أخرى.
لو أنها ماتت وهي في الجنة، فما الضير في ذلك؟
هل هو حلم إذًا؟
ولكنها أبدًا لم تحلم بمثل هذا الوضوح. ثم هي لا تذكر حلمًا كان بإمكانها فيه التذوّق واستيعاب ما يحدث بهذه الكيفية وعلى هذا النحو. كما أن أحلامها عادة ما تكون ضبابية مبهمة ليست واضحة المعالم هكذا. إنها ترى الخطوط المزينة لأجساد الحمير الوحشي، ترى الشعيرات الدقيقة في آذان الغزلان الوادعة، ترى البقع البنية على رقبة الزرافات بشكل كامل. الأحلام لا تشعر فيها ببرودة الماء، ولا تجوع أو تشبع فيها. ولكن أي مكان آخر غير الأحلام يحقّق لك كل ما تفكر فيه وقت أن تفكر فيه؟ طلبت الماء فتسابق الماء لسقياها، تذكرّت ثمر التوت الشهي، فانبثق من العدم بين كفيّها. أحلام المرء هي المكان الوحيد المسموح له فيها بتنفيذ ما يرغب.
إن كان الأمر هكذا.. فـــــــ...
أين أنت يا سليمان؟

لكن لِمَ سليمان؟
ما التوصيف المناسب لشخص يتبادر لذهنك في وقت كهذا؟ مَن الشخص الذي ترغب في أن تشاركه حتى الحلم؟ مَن الشخص الذي تذكره وأنت تغادر وعيك، فتنتقل إلى وعي آخر، أو لا وعي على الإطلاق؟ ما سر تلك الخفقة الزائدة، والارتباك، والتلعثم؟ بل من أين جاء هذا العرق؟ مَن الشخص الذي تذكر ملامحه وتفاصيله، تذكر تلك الحركة المتكررة التي يمسح أرنبة أنفه بظهر يده اليسرى، تغميضة عينيه كقبضة طفل صغير حين يندمج في العزف، تلك الحركة التي يفعلها بشفته العليا حين الاندهاش، وشعوره العارض بانسداد الأنف لدى الانفعال الشديد.
أهي تحبّه؟
أهو الحب؟
هو الحب ما يغيّرنا ويفقدنا حذرنا ويتلاعب بهويّاتنا وأفكارنا وأحلامنا.
هو الحب ما تحسّه هند نحو أستاذها ومعلّمها وصديقها سليمان.
إنه الحب الذي لا يستأذن ولا يبدي علامات استباقية ولا يطرق أي أبواب عند الحضور.
لكن أين سليمان الآن؟
لِمَ لم يأتها وهي في أشد الاحتياج له؟
لِمَ لم يظهر في حلمها حين طلبته، إن كان ما هي فيه الآن، حلم؟
أتراه عرف بِمَ حدث لها؟
ألا يشعر بها الآن، كما تشعر به هي، حتى دون وجودها المادي؟
تشعر بوحدته وألم فقده، بل تردّده من الخوض في علاقات جديدة.
تعرف أنه يبذل نفسه وروحه من أجل الآخرين دون أن يعطي لنفسه الحق في الحياة والاستمتاع. إنه لا يريد منح نفسه فرصة جديدة. مصرّ على اجترار الماضي وآلامه. عازم على العيش في فقاعة من هواء أو سراب أو لا شيء على الإطلاق كوّنها حول نفسه، واختلقها ظنًّا منه أنها قادرة على حمايته. لكن تظلّ الفقاعة، فقّاعة. شفافة مبيّنة لما تحتويه. مظهرة كل أحاسيسه مهما حاول إخفاءها.
هو فقط لا يعرف أنها تعرف.
هو فقط لم يدرك بعد، أنها تشعر به.
أنها تسمع استغاثته وإن لم ينطق بها لسانه.
أخذت نفسًا عميقًا وزفرته في بطء.
ناظرةً إلى نقطة جديدة في الأفق، لم تكن تراها من قبل، ونغمات كونية تعزف داخل أوردتها وشراييها في تناغم عجيب.

الوتر الثاني

ـ وتر ري ـ

«الكمان أرقى وأنبل الآلات الوترية ذات القوس، وهي الأكثر تعبيرًا بينها كلها».

١١. ريحانة القصر

جاءت الساعة الثانية عشرة.

توجسّات آخر مرة تملؤه بإحساس متضارب. ليس خوفًا أو خشية، بل الغريب أنه رغبة. هو على يقين أنه كان يقظًا واعيًا رغم أن كل الشواهد والدلائل بل المنطق تؤكد عكس ذلك. يحتاج ذلك الدليل الدامغ أنه لم يفقد عقله بعد ككثير من عباقرة الفن.

أتكفيه دليلًا العلبةُ المخملية الزرقاء، بنقش نغمة صول الموسيقية عليها التي فتحها ليجد بداخلها أنبوبًا بلاستيكيًّا مجوّفًا، يحوي وترًا جديدًا مصنوعًا من مادة لامعة برّاقة مصبوغة باللون الأزرق؟

هو لا يذكر أنه اشترى هذا الوتر، ولا يذكر إن كان أحدٌ قد أهدها إليه.

هو يحتاج إلى دليل آخر، أو ربما لإعادة خوض التجربة برمّتها.

هكذا حاول أن يستدعي نفس ظروف وملابسات المرة الفائتة. حتى إنه ارتدى ملابسه نفسها التي ارتداها تلك الليلة، وأوشك أن يتفق مع حسنية على موعد ظهورها في المشهد، لولا أن مشهد ظهورها ذلك هو مصدر لوم، أكثر من كونه استدعاءً لظروف متشابهة. فلولا اقتحامها لكان قد استكمل مقطوعته ولعاد من حلمه بيقين أكثر على صدق التجربة وليس خيالها.

يساعد نفسه للدخول في نفس الحالة باستدعاء ما كان يعزفه قبل مقطوعة الوحي كما أسماها.

اتخذ نفس الوقفة مباعدًا بين ساقيه.

بل إنه حاول قدر الإمكان أن يبقي عينيه مفتوحتين على غير العادة، لولا أنه حدث حين قام بالتجربة السابقة.

لكن شيئًا غريبًا لم يحدث، ولا حتى استغاثة خاطفة من حسنية!

لليالٍ عدّة حاول سليمان محاكاة الأمر برمّته حتى وصل في قرارة نفسه أن الحدث كان محض خيال. لولا تلك الليلة التي زاره فيها الوجه الضبابي الغامض الذي ظن أنه قد صار طي النسيان، يبدو للوهلة الأولى مرعبًا، ثم لا يلبث أن يتكاثف الضباب لتظهر ملامحه آمنة مُطَمْئِنة، يحاول أن يبث الثقة في داخله بكلمات لا يفلح في أن يذكر منها أي شيء كالمعتاد، وحينما استيقظ وجد رسالة أخرى على مرآته ظهرت بعد الحمام الساخن وتكاثف بخار الماء.

((**رعيتك في انتظارك**))

لم يخطئ هذه المرة بمحاولة التأكد من المكتوب على المرآة ليمسحها، بل

اكتفى بتصويرها عدّة مرات ليبدو المكتوب واضحًا صريحًا لا لبس فيه ولا خلط.
خفق قلبه بشدّة.
لو أن أحدًا يحيا معه في نفس المكان لظن أنه يلاعبه. كما أن أحدًا غيره لا يلج الغرفة من الأساس. هل هو جانّ؟ هل هو مسّ من نوع ما؟
ثم خطر على باله الخاطر الأكثر رعبًا.
ماذا لو كان هو مَن يكتب لنفسه هذه العبارات؟
أجل لقد انتظر عدّة ليالٍ ليتكرّر معه الحدث، إلى الحد الذي أشفق عقله الباطن عليه، فأوعز له أن يكتب هذه العبارة لنفسه، ربما وهو نائم، أو ربما وهو يقظ، لكن عقله الباطن ينسيه ما فعل، ليصحو اليوم التالي فيجد العبارة المكتوبة على المرآة، ويصدق ما حدث له؟
هو نوع من الرثاء النفسي المُحكم.
ما الذي فعلته بي يا علا؟
أتركك لي، أفقدني عقلي؟
صوّر لي أشياء تربكني وتحيل حياتي جحيمًا؟
سُحقًا لكِ يا علا...

((...

في المكان الآمن الذي كان يضمّهما..
أراح رأسه على فخذها..
أخذت تداعب شعره..
تسأله عن نوع تصفيفة الشعر تلك التي اتخذها لنفسه..
قال لها: «ريستا».. اسمها «ريستا»..
نظرت له نظرة الحنان ذاتها..
نظرة العشق كما تقول الكتب والأساطير..
أحس رموشها تهدهده..
نَفَسُها يتطاير حوله نسمات معبّقة بالعطور والرياحين..
تخبره كم تحب تخلُّلَ الـ«ريستا»..
يرى كل الوعود في عينيها..
يرى الحب..
تهمس في أذنه في رقّة..
تخبره كَم تحبّه..
تنحني فوقه..

وفي رقة الزهور ذاتها تقبّله..

...))

ظل سليمان طوال يومه يصارع المواقف والذكريات التي جمعته بـعُلا منذ بداية تعارفهما في حفل غنائي للدرجة التي كاد قلبه أن يتوقف. تقيأ عدة مرّات. وأصابه صداع عاصف لم يفلح معه أي مسكن. وفي النهاية وصل بيته منهكًا مهزومًا ضعيفًا كأسوأ أيّامه. صاعدًا يلقى تحية لا مبالية على حسنية التي تلقي بكيس مهملات أمام الباب وتجاهل الشرر المتطاير من عيني نادر وهو يرمقه في سخط نازلًا الدرج لأمر ما. لم يأكل طعامًا طوال اليوم، فقد اكتفى جهازه الهضمي بالقيء. نظر إلى المرآة وما زالت آثار الجُملة اللعينة عليها فابتسم في مرارة وهو يطالع دليل جنونه وهذيانه، يمسك بعلبة الوتر الأزرق فيدرك أن عقله يخاتله.

أدرك أنه لو نام الآن فلن يمكنه الفكاك من أسر علا وذكرياتها، لذا أمسك حقيبة كمانه في تخاذل شديد. ما الذي يفعله السكّير حين يود أن يعيش لحظات زائفة؟ ما ملاذ المدمن الأوّلُ حين تصرعه الأنواء وتتراكم عليه المصائب؟

كالسكّير المدمن هرب سليمان إلى ملجئه الوحيد للهروب من طوفان الذكريات الذي يغرقه ويكاد يقضي عليه.

بتردد نظر إلى الـمونتانيانا في شبه لوم.

يتهمّها بالتخلّي عنه لحظة احتياجه لإثبات الحقيقة؟

يسألها العون والمساعدة.

يطلب منها الصفح والغفران.

بل يطلب منها.. النسيان!

دون وعي منه يبدأ العزف فيندمج مع اللحن والأنغام. موتزارت فـشوبرت فـباجانيني فـصموئيل يارفينيان فـبابلو دي سارسات ثم أندريه ريو. أخذ يتقافز بين الألحان كفراشة تنتقل بين زهرة وأخرى.

تبدأ الألحان تتخذ منحنًى آخر.

تحصل يداه على استقلاليتهما بهدوء شديد.

ينفصلان عن جسده ويبدآن في العمل معًا.

يفتح عينيه إذ يبدأ الأمر في الاتضاح.

في هدوء شديد ومتمالكًا لكامل وعيه، يرى تطاير الحائط الأول، فالثاني، فالذي يليه.

يرى سريره وكتبه وكل مكوّنات غرفته وهي تنجذب لتلك النقطة التي لا يراها في الأفق المتناهي.

ثم تشمله دفقة النور الصافي الرهيبة ليبدأ في السباحة في بحر الضياء الذي

يحيله إلى خفاش مفتوح العينين.
في الفناء الضوئي يتبدّى له القصر الذي رآه من قبل.
يبدأ باهتًا ثم يتضح رويدًا رويدًا.
يكون صغيرًا بعيدًا كأنه حلم، ليكبر ويقترب في سرعة واقع ملموس.
حائط من سحب متكاثفة تتغيّر كتلتها وقوامها وأشكالها في سرعة تكوّن صورة لخلفية القصر الذي يبدو ضخمًا على شكل مخروط حلزوني كبير. القصر على ثلاثة مستويات، أضخمها وأطولها، أعلاها. والطريق الحلزوني المحيط بالقصر مفروش بالاخضرار الذي تتخلّله الزهور والرياحين من كل صنف ولون. في المنتصف تمامًا برج له قمّة مدبّبة تشق السماء فلا يبين طرفها العلوي الذي يبدو منصهرًا مع حائط السحب المكوّن للخلفية. شبابيك لا حصر لها مزدانة بالزجاج الملون كنجوم متناثرة على صفحة سماء رائقة. القصر لا يبدو مرتكزًا على قاعدته، فهو يرتفع عن الأرض قليلًا، كأنه مستند إلى وسادة من فراغ. يحيط الماء بالقصر من كل جانب، إلا من طريق وحيد على شكل شريط ضيّق يصل ما بين بوّابة القصر الرئيسة واليابسة.
كلما ازدادت تفاصيل القصر وقربه، كلما تلاشى الفضاء النورانيّ وتبخّر من حوله.
وأخيرًا وطئت قدماه أرضًا صلبة في ذلك الجزء من اليابسة ما قبل الماء المحيط بالقصر.
كان ملمس الأرض تحت قدميه مخمليًّا، كأنه يطأ مرتبة من إسفنج.
وعلى الأرض طبقة رقيقة من دخان أبيض لا يتبخّر أو يتزحزح بفعل الوطء.
ما زال عزفه بالكمان مستمرًّا وقد وصل بلحنه إلى نقاط لم يكن قد وصل إليها في المرة الماضية.
دعوة غير صريحة دفعته بالاستمرار سيرًا على قدميه عبر الطريق المؤدي للبوابة الرئيسة. عيناه تجوبان المكان حوله محاولًا أن يحتفظ بكل التفاصيل في ذاكرته ليتمكّن من استدعائها مستقبلًا. والأغرب أنه مع محاولات استكشافه تلك، وتجربته المثيرة التي يخوضها دون سابق إنذار، ما زال مستمرًّا في العزف رغم سيره وتركيزه في التفاصيل المحيطة به.
ينظر لنفسه فيجد أن ملابسه قد تبدّلت وصارت أشبه بأمراء ألف ليلة وليلة.
يرتدي قميصًا أبيض حريريًّا فضفاضًا منفوخ الذراعين مطرّزًا بخيوط الذهب والفضة كأساوره وموشًّى بالزخارف والأشكال الدائرية والنجمية والمقوّسة كالأهلّة. تتطاير حرملته الحمراء المطرّزة بنسمات هواء قوية، وتحرّك ساقي بنطاله الفضفاض الواسع المصنوع من الحرير الأزرق. حذاؤه مدبّب من الطرف الأمامي وتزيّنه الأحجار الكريمة، وحول وسطه حزام جلدي عريض ترصّعه الجواهر المتلألئة في ألق شديد. أمّا رأسه فقد صار فوقه عمامة ملفوفة في عناية موشّاة بالخيوط الذهبية، وعلى جبهته ياقوتة حمراء ضخمة مزدانة ببضع ريشات

ذهبية.
هل هذا يعني أنه يحلم؟
ولكن أيّ حلم هذا الذي يمكنك بسهولة أن تستنشق عبير الزهور والرياحين حولك؟
أيّ حلم هذا الذي تجد نفسك واعيًا مستوعبًا لمثل تلك التفاصيل الدقيقة؟
أيّ حلم هذا الذي تستطيع وأنت فيه أن تفكّر بمنطقية هكذا بل تُحلّل الفرضيات والمعطيات؟
هكذا قرّر أن يستأنف السير، وهو الذي لم يتوقف عن العزف لحظة طوال الفترة الماضية.
المسافة تبدو له كما لو أنها تتناقص من تلقاء ذاتها، كما لو أن القصر يقترب بمقدار ما هو ماضٍ نحوه. في البداية ظن أن المسافة طويلة جدًّا للمسير، ولكنها لا تبدو كذلك الآن.
تساءل عن كيفية التصرف حين يصل. بل كيف يستقبله أصحاب القصر الذي يبدو من فخامته أنهم ذوو شأن كبير. إن قصر مدام مَلَك الذي زاره منذ فترة قصيرة يبدو كوخًا حقيرًا إذا ما قارنه بهذا الصرح المنيف. هو يقارن فقط بقصور مثل قصر جبل القديس ميشيل في فرنسا، قصر بوتالا في التيبت، قلعة نويشفان شتاين أو لوفنبورج في ألمانيا، أو أي قصر آخر من تلك القصور الخيالية الحالمة.
تُرى كيف يستقبل أصحاب هذا القصر في المعتاد عازفَ كمان غريبًا ساقته لهم الأحلام، قوة من قوى ما وراء الطبيعة، أو حتى خلل نفسي جسيم؟
كان قد اقترب في شدّة.
ليتبدّى له حارسان ضخمان متحفزّان على البوّابة الرئيسة.
ما الشيء الأخرق الذي سيبتدرهما به؟
سأل نفسه أيكون من المناسب أن يتوقف عن العزف الآن وهو بصدد الوقوف بباب هذا القصر؟! إلا أن الدهشة المستمرة لم تتوقف. فالحارسان بمجرد أن وقعت عيونهما عليه نفخا في بوقين نحاسيّين طويلين كأنّهما كانا في انتظاره أو يعرفانه على وجه ما، ويبدو كما لو أنهما يعلنان أمرًا عظيمًا، ويتمايلان مع إيقاع عزفه في استمتاع.
الكمان، والأبواق النحاسية تناغما ليصنعا موسيقى تصويرية للحدث الأسطوري الذي يعيشه سليمان.
أوجس خيفة، وفكّر أن يتراجع.
ماذا لو أنّه يبدو لهم كشخص مطلوب للعدالة، سارق أو قاتل مثلًا؟
ماذا لو أنّ أمر ضبط وإحضار في انتظاره بمجرد أن يصل؟
حقيقة وعلى هيئته الجديدة الغريبة تلك فمن الممكن أن يكون أيّ أحد آخر

سواه، وهو الذي لا يفارق التيشيرت والبلوچينز حتى يبدو كما لو أنه قد ولد بهما. ما باله وهو الآن أقرب ما يكون إلى مهراچا هندي أو أمير من حواديت ألف ليلة وليلة؟!

ازدرد لعابه في صعوبة ووجل.

من اللاشيء يتردد حوله أو داخله صدى الكلمات، تلك التي سمعها من قبل ولم يدرك كنهها، واضحًا جليًّا.

.....

أيها الملك السلطان أقبِل..
أيها الملك السلطان أقبِل..
رعيّتك في انتظارك..
ها قد زارنا السعد..
ها قد جاء الهناء..
أيها الملك السلطان أقبِل..
أيها الملك السلطان أقبِل..
رعّيتك في انتظارك..
اكتب لنا تاريخًا..
ليس له من فَناء..

.....

تتكرّر النداءات السابقة عدة مرات، وهو ما زال على حاله متردّدًا، حتى بعد أن أفسح له الحارسان طريقًا للدخول.

الآن..

ينفتح الباب الخشبي الضخم في صرير مزعج يتناقض مع عزف الكمان الجميل.

يعزف الحارسان على البوقين النحاسيين مرّة أخرى.

فلا يجد سليمان مناصًا من التقدم في خطوات بطيئة حذرة.

في الداخل مباشرة، استقبله رجل مهيب كبير في السن، وجهه أبيض محمر مائل للامتلاء، له عينان زرقاوان في لون البحر وذقن دقيقة بيضاء مرسومة بعناية فائقة ويرتدي ملابس تشبه ملابسه، ولكنها أقل فخامة، وأكثر رزانة، كما أن ألوانها تتروح ما بين درجات الألوان الداكنة كالبنيّ والأسود والرمادي.

تردّد في كيفية السلام عليه، أو بِمَ يدعوه. لم يكن متأكدًا أنه سيفهم لغته من الأساس.

ولكن قسمات وجهه المرحّبة أزالت بعضًا من قلقه.

تقف في ظلّه فتاة شابّة في ملابس الأميرات. لا يتبيّن ملامحها جيّدًا.

من داخل القصر تتعالى الأصوات معلنة عن قدومه:
ـ الملك السلطان جاااء.. الملك السلطان جاااااء..
نطق الرجل الكبير المهيب أولًا موفّرًا عليه عقبات بدأ الحوار:
ـ مولاي الملك السلطان، أهلًا بك. لقد طال انتظارنا لتشريفك، حمدًا للـه. تفضّل. تفضّل.
ملابسه التي تغيّرت، هذا القصر، الحارسان اللذان يشبهان العصور الوسطى، جو ألف ليلة وليلة الذي يحيط به من كل جانبه، كل هذا كان من الممكن أن يقبله أو يصدّقه، حتى كانت القشة التي قصمت ظهر البعير التي تمثّلت في هذا العجوز المهيب الذي ينعته بالملك السلطان ويحدّثه بالفصحى كالمسلسلات المدبلجة. هو يحلم إذًا!
ـ سيدي الملك السلطان سليمان، ها قد تحقّقت النبوءة. نبوءتنا التي انتظرناها طويلًا، وقد جئتنا عازفًا. تحمل إلينا ألحانك لتنقذنا ممّا نحن فيه. فأهلًا بك!
أن يستقر الرأي لدى سليمان أنه يحيا الآن حلمًا غريبًا لم يعهده من قبل، فمن المنطقي أن يعرف العجوز المهيب اسمه، ولكن ما هذا الهراء عن النبوءة والإنقاذ؟
لم يتمكّن سليمان من الاسترسال أكثر من ذلك في تساؤلاته، إذ يدعوه العجوز لدخول القصر، وإذ يتحرك تأهبًا للدخول، إذ يكشف عن الأميرة الشابة التي كانت مختفية خلفه، فيقدمّها له قائلًا:
ـ الأميرة ريحانة يا سيدي، هي أيضًا كانت تنتظرك على أحرّ من الجمر لتكتمل أركان النبوءة ويتحقّق لنا الخلاص.
ينظر سليمان للأميرة ريحانة مشدوهًا إذ تحييه بانحناءة وقور تصحبها ابتسامة خلّابة.
عقدت المفاجأة لسانه فبدأ يتمتم في عدم تصديق.
ـ هند؟!

١٢. أن يأتي اليوم الجديد

أدرك نادر من تغيير مكان الاجتماع أن خطوات جادّة تتعلّق بمهمته الجديدة قد بدأت بالفعل. كان موقعه من الجلوس على رأس مائدة، وضعت الكراسي حولها على شكل مستطيل منقوص الضلع، عن يمينه الشيخ إسماعيل وعن يساره الشيخ مؤمن ليُشكلا الضلع الأفقي القصير. بعض الأخوة المعتادين حضور هذه الاجتماعات متراصون على الجانبين بامتداد الضلعين الرأسيين الطويلين. في مقابل الضلع الناقص غرفة زجاجية معتمة متصلة بغرفتهم عن طريق الميكروفونات وكاميرات فيديو مسلّطة على وجوههم. رأى داخلها ظلال عدّة رؤوس لم يميّزها.

كان الأمر شبيهًا للغاية بأحد البرامج التليفزيونية التي تتعمّد ستر شخصيات ضيوفها، بل تزيد الأمر بأن تغيّر نبرات صوتهم إن نطقوا حتى لا يتعرّفهم أحد.

كانت مهمته الجديدة هي دخول مجلس الأمة (كما يطلقون عليه الآن) على مقاعد المستقلّين.

سيكون فرس رهانهم الرابح.

فمن جهة، هو غير محسوب على أي نظام مهما كان، ودليله على ذلك، أنه حين كان إخوته الأوائل في سدّة الحكم، أو كان دورهم آنذاك أن يكونوا كما لو أنهم في سدّة الحكم، لم يكن له بهم أي علاقة من بعيد أو من قريب. كما أنه لم يلوّثه ميكروب التحزّب أو ڤيروس الانتماءات. لم يكن يومًا مع أو ضد أيّ شيء. حياته المزدوجة التى تربّى عليها منذ الصغر، ساعدته كثيرًا ليحكم لجام نفسه، ويتقن دوره المرسوم له بعناية على نحو بارع للغاية.

أما الناس فسيميلون له ميلًا شديدًا.

لِمَ لا وهو صاحب مال ودين ظاهري. والناس لا يقاومون المال، وليس لهم من الدين إلا ظاهره.

سيفتتح نادر سلسلة جديدة من مصانع ومحلّات اللحوم المصنّعة.

ولن يتخذ من أي مظهر ديني ستارًا فهو لم ولن يرتدي الجلباب مثلًا أو يطلق لحيته، يكفيه من التدين سمعته الطيبة الزائفة.

سيرتدي أفخر أنواع البدلات، وسيكون عصريًّا محبوبًا.

سيمولّون حملته الإعلانية الموسّعة: لوحات ضخمة مضيئة على كل الطرق والكباري، مواقع إنترنت، إعلانات تليفزيونية في كافة القنوات الفضائية، بل برنامجًا خاصًّا حصريًّا يظهر فيه مرتين أسبوعيًا.

ثم سيمتلك نادر قناة فضائية تذيع برامج الطبخ المتميّزة، والأفلام مسروقة الحقوق، وبرامج إعلانية للترويج للمنتجات الاستهلاكية. بل إن كل اعلانات القناة المزعومة جاهزة، وعقودها موقّعة بالفعل.

سينفق نادر بسخاء في كل الاتجاهات.

سيكفل عائلات غير قادرة، ويفتتح مصنعًا صغيرًا لتشغيل الفتيات، ومجمّعًا خيريًّا ذا صبغة دينية غير متشدّدة، به عيادات من كل التخصصات، وجمع الملابس والتبرعات وتوزيعها على الفقراء والمحتاجين. سيجزل خيرًا كثيرًا وسيغدق على الجميع بميزانية مفتوحة ليست له. ستصل المساعدات العينية والمادية والمواد التموينية باسمه لكل بيت في دائرته الانتخابية.

وسيعقد كل الصفقات المطلوبة مع من بيدهم السلطة، أو يقترب منهم.

سيجهلون أي صلة بينه وبين حقيقته.

لا أحد أمهر منه في هذا الازدواج.

وسيدخل نادر ويكتسح دون منافسة.

وسيحرص نادر على تلك الشعرة بينه وبين النظام لا يتجاوزها.

هذا هو دوره، وسيقوم به، وإلا استُبدل به غيره!

طوال سنين مراهقته، وهو يحلم بالجمع بين السلطة والمال.

في مرّات اختلائه بأفلامه الجنسية ممارسًا العادة السريّة وهو يحلم باعتلاء كل امرأة رآها عاريةً أمامه. تمنّى أن يكون لديه من الأدوات ما يمكّنه من ذلك. إلا أن قسوة أبيه وتربيته الدينية المتشدّدة أجبرتاه أن يغلّف شخصيته الحقيقية الشهوانية الشبِقة تحت تلك العباءة الخفيفة من التدين الظاهري. ها قد جاءته الفرصة، وسيجمع بين سطوة ومال.

جاءه صوت من الغرفة الزجاجية يسمعه للمرّة الأولى.

بالصوت مهابة وجلالة لا تخطئها الأذن:

ـ نادر يا ابني، لقد اصطفيناك! يا ريت تكون على قد المسؤولية وتحقّق أملنا فيك. لأنك البداية الجديدة، أهم جزء في المنظومة كلها. إخواتك بيضحوا بنفسهم كل يوم علشان ينهكوا السلطة ويخلوها طول الوقت في حالة استنفار واستهلاك. مواردهم محدودة ومواردنا لا تنضب. محتاجين إخوة تانيين بشكل جديد يخشوا في المنظومة بدل اللي راحوا، وانت باكورة الجيل دا!

جفّ حلق نادر والصوت يبدو كأنه رجع الصدى، بينما الكلمة ذاتها لم تغادر أذنه بعد:

لقد اصطفيناك..

* * *

لم تتمكن مَلَك من نسيان ليلة الحفلة.

تذكر تفكيرها الشبقي الشهواني في سليمان وترفّعه النبيل عن استغلال الفرصة والموقف. لا تخطئ المرأة في تفسير نظرات الرجل، وقد أدركت مَلَك أنه يرغبها وبشدّة. لكنه على الرغم من ذلك آثر أن يعاملها بمنتهى الاحترام والتحكم المطلق في النفس.

لم يسبق لها أن رأت رجلًا مثله.

أتراها كانت فجّةً إلى هذا الحد؟

أيكون مفتاحه الرقة واللين؟

بعض الرجال يثيرهم هذا، ولا تثيرهم تلك الأنثى المتوحشة الجمال التي تقتحمهم. أو ربما هي تثيرهم، ولكنها أيضًا تخلق داخلهم الترياق الذي يمكنّهم من صدّها ومقاومتها.

فكّرت أن تتصل به شخصيًّا، ولكن منعها الخجل.

الخجل؟

ما ذلك الشعور الغريب؟

الخجل!

أتكون هذه مرّتها الأولى التي تشعر فيها بذلك الإحساس العجيب.

أم تراه ذلك العازف الغريب قد مسّ الوتر الذي لم يمسّه أحد من قبل في أعمق أعماقها.

أنا باحترمك جدًّا.. ومبسوط قوي ان عزفي عجبك!

.....

مش ممكن تكوني بتحبّي سليمان.. لأنّك ما تعرفيش سليمان!

.....

الذي لا يعرفه هذا الـسليمان أنها تعرفه جيّدًا وأن بذرة الاعجاب والرغبة داخلها قد نمت لتكون بداية لشعور آخر أكثر عمقًا، ويضربها من حيث لا تدري.

ذلك الشعور الذي جعل خفضة عيني رجل أولى وأحب لقلبها من كل العيون التي تلتهمها.

الذي جعل رفض رجل وتمنّعه أولى وأحب من كل المتمسحين بأقدامها والمتمنّين منها الرضا والوصل.

ذلك الذي جعلها اليوم بسيطة في تبرّجها، محتشمة في لبسها، لم يدخل جوفها خمر، ولم يخالط دمها مخدّر.

ارتدت زيًّا رياضيًا أنيقًا، وضعت سماعات الأذن التي لا تعزف إلا ألحانه وبدأت تمارس رياضتها اليومية على المشّاية الكهربائية. تحلّق بها الأنغام إلى درجات من النشوة لم تطرقها. وبدأت تستشعر تغيّرًا في كيمياء جسدها، كأنه نوع من

الاستصفاء، أو إزالة السموم والشوائب من دمها وجسدها. عملية أشبه بالـكاثارسيس Catharsis أو غسيل الروح.
هكذا انتهت مَلَك من رياضتها الصباحية وتناولت فطورًا صحيًّا شهيًّا واتصلت بسائقها ومساعدها والقائم بكل أعمالها حاتم تطلب منه الحضور والاستعداد على وجه السرعة فهي تود أن تقوم بعدّة مشاوير هامة.
ستَبدؤها بدار الأيتام الذي يقع على مقربة من فيلتها الهادئة في التجمّع الخامس.
بالطبع تدرك مَلَك أن مساعدها الأمين سيتهمها بالجنون فور علمه بذلك.
لكن الأمر بالنسبة لها لا يهم ما دامت نغمات سليمان وعزفه سيؤانسانها في رحلة جنونها تلك.

* * *

ـ خلاص يا دكتور ياسر، دا كان آخر عيّان، روّح بقى، شكلك تعبان ومش مركّز النهاردا، إنت لخبطت في العيانين النهاردا كذا مرّة! ودي مش عوايدك!
ـ هه؟
كان ردّه دليلًا على شروده. فرفع عينه ليواجه مساعدته في العيادة مدام ليلى. كانت تنظر له في حنان أموميّ بالغ. لِمَ لا وهي رفيقة كفاحه وصعوده منذ كانت عيادته مجرّد غرفة متواضعة في حي فقير. حقيقة الأمر أن ياسر كان يتعامل معها على أنها أخته أو قريبته أكثر من كونها موظفة تعمل لديه. وبحكم تجربتها واختلاطها بصنوف البشر المختلفة، فقد صارت ذات حكمة فطرية، لذا فلم يكن ياسر ـبحكم العشرة أيضًاـ ليبقي من أمور حياته سرًّا عنها، بل إنه كثيرًا ما كان يأتنس برأيها، أكثر مما يأتنس برأي والدته أو أحدٍ من أصدقائه، وتعويضًا عن أبيه الذي مات وهو طفلٌ صغير.
ربّتت على كتفه، وهو ما كانت العلاقة بينهما لتسمح به، تسأله:
ـ مش هتحكيلي يا دكتور ياسر؟ دا أنا أختك! صاحبتك اللي قلبها عليك.
زفر ياسر زفرة حارّة وسألها:
ـ حد برّا يا أم هاني؟
هزّت رأسها نافيةً. فتابع:
ـ طب اعملي لنا كوبايتين شاي بالنعناع كدا حلوين من إيدك وتعالي أحكي لك.
ضحكت مدام ليلى وهي تقول:
ـ كنت متأكدة واللـه العظيم، وقبل ما أخش لك كنت حطّيت الميّة تغلي، ثانية وأرجع لك!
أخذ يقلّب السكّر في كوبه متأملًا ذوبان الكريستالات الصغيرة في اهتمام بالغ صامت، والمرأة المحنّكة صامتة تتأمّله في إشفاق. ثم بدأ يسرد قصّته مع علا

منذ البداية. منذ كانت علا تحب سليمان، ثم تركته، ثم تعرّف هو عليها، ثم وقع في هواها، حتى اللحظة التي أخبرته فيها أن يتقدّم لخطبتها. بدأ السرد بطيئًا متردّدًا كبدايات مطر خفيف، ثم بدأ نسق السرد يتسارع وانفاعلات ياسر تتزايد حتى صار المطر سيلًا من مشاعر محبوسة داخل الأربعيني الرزين. كل مخاوفه التي لم يكن ليبوح بها لحبيبته باح بها، وهو أمر آخر يمثّل له مشكلة كبيرة. كيف لا يتمكّن المرء من البوح بكل ما يعتمل داخله من تساؤلات ومخاوف لشخص يحبّه؟ أهو نقص في الحب، أم أزمة ثقة؟ وهل يكون الحب آنذاك صحيحًا سليمًا معافى؟

نظر لها بوجه تصرعه التساؤلات:

ـ هوّه أنا كدا أبقى باحبّها فعلًا يا أم هاني؟ ولّا حكايتي إيه؟ ليه مش مبسوط قوي بموافقتها إني أطلبها من أهلها؟ مع إن دا اللي كنت باتمناه من أول يوم؟ إزاي حد يعوز حاجة قوي وبعدين لما تحصل يبقى خايف قوي كدا، ومتردد قوي كدا، ومش واثق قوي كدا؟ إزاي يا أم هاني؟ إزاي؟

حكّت ليلى أسفل ذقنها وهي تقول في حنكة ودراية:

ـ هوّ انت بتحبّها، بس مشكلتك انك مش متأكد انها بتحبّك، وده اللي مخوّفك!

ـ يعني أنا مش هأقدر أنسّيها الماضي، وأحط نفسي مكانه؟

ـ الماضي دا مش حاجة واحدة يا دكتور، كل ماضي وليه وزنه وبيفرق من حد لحد، بس اللي بيحب حد ما بيتخلّاش عنه وما بيسيبوش.

أطرق بوجهه في قلق:

ـ أنا خايف هي اللي تتخلّى عني وتسيبني.

ـ أي حد ممكن يسيب أي حد بسبب أو بدون سبب. السبب دا ممكن يكون منه. والسبب دا ممكن يكون من عند ربنا. دا ودا ودا نصيب ومكتوب يا دكتور.

رفع رأسه مرة أخرى في رجاء وتوجّس:

ـ بس... خايف.

ـ أكيد اللي ربنا سبحانه وتعالى هيختاره، هو اللي هيكون فيه الخير.

وصلته رسالة على المحمول، قرأها بعينه «دي نمرة بابا، كلمه وخد منه ميعاد» اعتبر ياسر تلك الرسالة إشارة من السماء.

نظر لمساعدته الطيبة وأخبرها بفحوى الرسالة، ربّتت على كتفه ثانية وابتسمت في سعادة:

ـ لعله خير يا دكتور، ألف مليون مبروك، اتوكل على اللـه بقى، الحق عيش حياتك وخلّف لك عيّل ولّا اتنين تفرح بيهم وتربّيهم في عزّك. ألف مبروك.

انصرفت ليلى لكن أسئلته لم تنصرف.

هكذا وجد ياسر نفسه مُصيّرًا ومُسيّرًا في اتجاه واحد.

هو يحبها... والحب أنانية!
لم يخلق بعد العاشق الذي يمكنه أن يترك حبّه من أجل شك أو تساؤل. صحيح أنهما يحيلان حياته جحيمًا ويمنعانه من الاستمتاع بمذاق الحب ولذة الحياة، ولكن وصل الحبيب مع ذلك يظل أكثر قيمة وأهون حالًا من جحيم الفقد والهجران.
يخشى ياسر عندها ما سيحدث له لو أنه تركها.
ويأمل ياسر في الجنّة ونعيمها لو أنه حقّق حلمه الوحيد وتزوّجها.
يخاف ياسر لو لم تتمكّن علا من مبادلته الحب بنفس القدر والكيفية.
ويتمنّى ياسر لو يتمكّن من احتوائها واستخراج كل الكنوز المخبوءة في صندوق شخصيتها السريّ.
هكذا يرى هذين الحرفين اللعينين وهما يتلاعبان به ويتقاذفانه ككرة بنج بونج خفيفة.
يشعر ياسر الآن إحساس الريشة في فيلم فوريست جامب الشهير.
وهكذا يستخير المرء ربّه بصلاة أو دعاء.
ثم يقوم بأمر ما دون أن يضمن النتيجة أبدًا.
مهما حدث!

١٣. عالـم آخـر

ـ أنا مش فاهم أي حاجة خالص!

لم تكن هناك عبارة أكثر مناسبة من تلك يبدأ بها سليمان كلامه موجهًا إياه للعجوز المهيب والأميرة التي تشبه هند كثيرًا لولا أن اسمها ريحانة.

لم يجبه أحدهما وهو سائر خلفها بلا إرادة.

لاحظ أن بجانبي المدخل والطرقة التي يعبرانها لوحات لشخوص بائسة مقبضة ومناظر طبيعية حزينة، داكنة الألوان وهو ما يعد عاديًّا جدًّا، فهي مسأله أذواق لا أكثر ولا أقل، لولا أن الصور الثابتة كانت تتغير بمجرد مروره، فتبتسم الشخوص وتتبدل الألوان وتزهر النباتات وتشرق الشموس وتهدأ البحار الثائرة في تلك الصور.

ينظر خلفه بعد أن يمر بها فيجدها قد استعادت سيرتها الأولى بمجرد أنه عبرها.

كطفل صغير يهوى الاستكشاف، ترك مقتاديه الذي يسير خلفهما، وتوقف، ثم ما لبث أن عاد عدة خطوات للوراء عائدًا لبعض ما مرّ به من صور، فوجدها مرة أخرى تتبدّل سعيدة مبهجة. تقدم عدة خطوات ليلحق برفيقيه، فشحبت واكتأبت وعمّ الصور الغم والحَزَن!

أخيرًا وصل سليمان ورفيقاه إلى بهو كبير أو قاعة في القصر ينتظر بها عدد من الناس المتراصّين في صفوف منتظمة على جانبي القاعة، وترتدي كل مجموعة منهم رداءً موحدًا لا يختلف كثيرًا عن طابع ملابسه وملابس رفيقيه إلا في كونها أبسط وأقل بهرجة.

مرّة أخرى تعلو أصوات الأبواق، والهتاف المتكرر عن مجيء الملك السلطان.

موسيقى أوركسترالية تنبعث من جنبات القاعة كأنها تمثّل خلفية عزفه. ويبتهج كل مَن بالقاعة ويشدّون أجسادهم وتستقيم رؤوسهم وترتفع أيديهم في أداء التحيات الرسمية. الأمر كلّه أشبه باستقبال رسمي.

الآن يلاحظ أن العمامة الملفوفة في عناية الموشّاة بالخيوط الذهبية، التي كانت على رأسه بياقوتتها الحمراء الضخمة المزدانة ببضع ريشات ذهبية، قد اعتلاها تاج ذهبي لامع تنعكس أضواء القاعة عن جواهره في ألف لون.

في تناسق عجيب يبدأ كل من في القاعة بالإشارة لـسليمان كي يعتلي ذلك العرش الذي يلحظه للمرة الأولى، كأنه قد انبعث فجأة في طرف القاعة القصيّ.

يزدرد سليمان ريقه في صعوبة ويفكر في الرفض، ولكن ما دام هذا حلمه، فليس غريبًا أن يكون فيه ملكًا. لذا فإنه بنفس البطء المطلوب من ملك سلطان

يتقدّم نحو عرشه.. تقدَّمَ، وبنفس الرشاقة والبهاء، كأنه كان من العائلة المالكة منذ الميلاد.
ثلاث درجات مغطاة بالمخمل الأحمر حملته إلى حيث كرسي العرش المصنوع فيما يبدو من الذهب الخالص ويغطيه مخمل أحمر مطرّز برسوم ملكية تشبه كثيرًا النقوش التي تزيّن كورنيش سقف القاعة والجزء السفلي من الجدران وأجزاء من الأرضية. العرش مغطى بمظلة من مخمل أحمر يبدو أنه المسيطر على القاعة التي تزدان بثمانية أزواج من العمدان المصنوعة من المرمر الخالص. على جانبي القاعة ثمانية أبواب، بالإضافة إلى بابين صغيرين عن يمين ويسار كرسي العرش. ثمانية أزواج من الثريّات الضخمة مدلاة من السقف مصنوعة من الكريستال الخالص والمحلّى بالأحجار الكريمة وقطع الياقوت والسفير والمورجانايت والعقيق والزبرجد مما أضفى على القاعة كلها ألوانًا متباينة ومتغايرة. أما الجدران فقد تزيّنت بلوح مماثلة لكل جزء مرّ به في القصر، وكانت بطبيعة الحال الآن، كما هو الحال، مبتهجة سعيدة متغيّرة على غير ما كانت عليه وقت ولوج القاعة.
جلس سليمان على الكرسي فأحس بنفسه يغطس داخله كأنه مصنوع من حلوى المارشميللو. وبمجرد أن استقر حتى وجد العجوز قد صعد الدرجات الثلاث ووقف عن يمينه، تلته الأميرة ريحانة ووقفت عن يساره. الآن يرفع العجوز يده مشيرًا للموسيقى الاحتفالية أن تكف، وللحضور أن ينصرفوا فأطاعوه على الفور.
الآن يتوقف عن العزف ويلتفت بجذعه ويميل نحو العجوز مستأنفًا التساؤل:
ـ هه؟ ممكن حضرتك تفهّمني أي حاجة لأني مش فاهم؟ أنا إيه؟ وحضرتك إيه؟ وإحنا فين؟ وليه؟ وازاي؟ والأميرة؟ والقصر؟ كل حاجة! كل حاجة يعني لأني مش فاهم أي حاجة!
ضحك العجوز في وقار ولم يندهش لأي من أسئلة سليمان لذا فقد بدأ يجيبه وهو محتفظ بمجال رؤيته للأمام ولا ينظر مباشرة إلى سليمان:
ـ مولاي، فخامتك الملك السلطان، وقد حضرت حسب النبوءة، أما أنا فخدّامك ووزير مملكتك رحيم، وهذا قصرك، وأنت جئت لتساعدنا لأننا في أشد الحاجة لك، أما الأميرة ريحانة فهي أميرة المملكة الأولى وابنة عمّك وفي حكم خطيبتك، ولكي تكتمل النبوءة لا بد لها من مساعدتك على نحو ما.
قرّر سليمان أن يستمتع بحلمه حتى النهاية فاستأنف ما بدأ من أسئلة:
ـ إيه بقى النبوءة دي؟ وإيه المشكلة اللي مطلوب مني أحلّها؟ وإيه علاقة دا باللحن اللي كنت باعزفه؟
ـ ترفّق بي وبسني يا مولاي. أنا رجل كبير ولن أتمكن من الرد على كل الأسئلة دفعة واحدة. تمهّل يا سيّدي.

كادت تند من سليمان قهقهة عابرة، إلا أنه احترم شخوص حلمه حتى الرمق الأخير فقال:
ـ طب بلاش كل دا، أنا جيت ازاي يا عم رحيم؟
ـ رحيم فقط يا مولاي! والحقيقة أنني أجهل الاجابة على سؤال عظمتك، نحن نستغيث بك منذ عشرين سنة بعدما غادرَنا مولانا الملك السابق وقد تولد لدينا اليقين في حضورك حسبما تقول النبوءة. كانت الأمور تتغيّر من سيئ إلى أسوأ ولا يعرف أحدنا موعد تجلّيك. كل صباح أشرقت شمسه علينا كنا نستدعيك ونستغيثك ونرجو اللـه العلي القدير أن يسارع بإرسالك لتلحقنا، وها أنت ذا مولاي قد جئت وشرّفتنا قبل أن ينتهي كل شيء! كان اللـه في عونك يا مولاي.
ـ عشرين سنة؟ وبدون ملك؟
ـ وربما أكثر يا مولاي.
ـ وانتم منين متأكدين كدا إني ممكن أساعدكم؟
ـ النبوءة يا مولاي.
ـ نبوءة إيه بقى؟ إنت عمال تقول النبوءة! النبوءة! النبوءة! إيه بقى حكاية النبوءة دي؟
ـ هذا شيء يطول شرحه يا مولاي، والوقت ضيّق! ولا بد أن تساعدنا سريعًا! لكل شيء وقته، والأولوية الآن لإنقاذ المملكة، أو ما تبقى منها، ومجيؤك هو تحقيق للنبوءة.
ـ اللي تبقى منها؟ ليه؟ إيه اللي حصل؟
أطرق العجوز برأسه في أسى وهو يقول في لهجة حزينة:
ـ نحن نموت يا مولاي! لأننا مملكة مسالمة لا تمتد أبدًا أيدينا بالأذى إلى أي شيء أو أي حد. نحيا كلنا في سلام ووئام، منذ قديم الأزل. ولم نكن نعرف أي شيء عن تلك الشعوب الأخرى التي كانت تضمر لنا الشر والأذى.
بدأت بضع دموع ساخنة تنساب من عيني العجوز وتنزلق فوق أخاديد خدَّيه المتغضّنين واختلاجات ألم تتبدّى على صفحة وجهه إذ يبدو أن ذكرياته الحزينة تتكاثف داخل رأسه وتعيده لما كان لا يود أن يعود. بصوت مختنق استطرد رحيم:
ـ ومن هنا بدأ الموت والمرض والفقر والخراب!
بدأ ينشج وهو يستطرد:
ـ حروب وتدمير ومجاعات وأمراض لعينة فتاكة لا علاج لها وأرواح بريئة بالآلاف راحت وتزهق كل ساعة وكل يوم!
أحس سليمان بالألم والحزن ينتقلان إليه من رحيم وقلبه ينقبض وهو يدرك أنه ما وصف إلا ما آل إليه الحال في كل مكان. أراد أن يخبره أنه لا يعرف من الحياة

سوى ما ذكر. وأنه لا يوجد في الدنيا سوى الفقر والمرض والجهل والخراب والفساد والموت. شيء ما داخله أراد أن يخبر العجوز أن الحق والخير والجمال صارت سلعًا سينمائية أو تليفزيونية، وأنه من النادر حقًّا أن تقابل بعض الصالحين.

أراد أنه يخبره عن حسنية ومآسي حياتها التي لا تنضب ومَلَك وعوالمها الخاصة من فساد وانغماس في مستنقع من الملذّات والنفوس الخبيثة. أراد أن يخبره عن والد هند وأحلامها في حياة مختلفة، عن جاره المريب نادر ومن هم على شاكلته، عن والده المتوفى وأمّه التي تعاني كل شيء من بعده، عن بلده وأهله وناسه وعالمه الذي يذوي ويحتضر هو الآخر.

إلا أنه ولشيء ما يشعر به ولا يجد له اسمًا أحس بالتعاطف مع شكاوى العجوز ورقّ لحاله ودموعه ونهنهاته. فسأل مرّة أخرى بصوت يبدو أكثر رقة وصدقًا:

ـ إيه علاقة دا بيّ؟

غالب رحيم دموعه وهي يهز رأسه علامة الجهل:

ـ لا أعرف يا مولاي. الحقيقة عندك أنت. والحل عندك أنت. لا أحد يعرف كيف جئت ولا حتى كيفية حل مشكلاتنا من خلالك، الحل عندك أنت فقط يا مولاي.

ثم ما لبث أن تذكّر شيئًا آخر فابتسم وهو يقول:

ـ رحيم فقط يا مولاي، لا يصح أن تدعوني بالعم رحيم. أو يمكنك أن تدعوني يا وزير. يا رحيم، أو يا وزير!

هنا تنحنحت ريحانة التي بدت في صمتها وثبات وقفتها كتمثال من المرمر المتوافق مع عمدان القاعة حتى إنه كاد أن ينسى وجودها من الأساس. التفت سليمان ورحيم نحوهما وهي تقول في خفوت:

ـ بعد إذن مولاي وسيادة الوزير.

ـ اتفضلي يا هند.. آ.. آ.. قصدي يا أميرة ريحانة.

ـ أرى أنه من المناسب أن يعرض سيادة الوزير الأمر على مولاي في حضور لجنة حكمائه ووزرائه ومستشاريه، حتى يتسنى له أن يعرف مشكلتنا جيدًا ويفكر في كيفية حلّها كما تقول النبوءة.

أومأ رحيم بالايجاب وأتبع موافقته بقوله:

ـ لقد توقعت هذا منذ البداية، لذا فإنني لما استشعرت مجيء مولاي الملك السلطان، دعوت لاجتماع يحضره الحكماء والوزراء والمستشارون. وهم الآن في قاعة الاجتماعات بانتظار تشريفك يا مولاي.

ربّت على كتفه ووضع يده خلف ظهره كأنه سيحتضنه ثم أشار بيده لـسليمان كي يترجّل عن الكرسي ويرافقه إلى حيث الاجتماع. ومن الباب الأيمن بجوار العرش دخل ثلاثتهم في دهليز صغير أضيء فور ولوجهم وبدأت نفس النقوش

التي زينت أرضية وجدران وسقف القاعة وكرسي العرش في رسم نفسها من العدم على جانبي الدهليز وأرضيته وسقفه، حتى أفضى بهم إلى قاعة زرقاء تعتبر النموذج المصغّر لقاعة العرش ولكن بطاولة اجتماعات مزخرفة يطغى عليها اللون الأزرق وكراسي ذات ظهر مرتفع تحمل نفس نقوش كل شيء، وكل شيء فيها مطعّم بأحجار السفير والياقوت واللازورد والأوبال الزرقاء اللون، اليدان والظهر وأجزاء من الطاولة والحوائط مغطاة بالمخمل أيضًا ولكنها من المخمل الأزرق، أمّا الثريّات فكانت أبسط وأقصر وأصغر تنتهي جميعها بنصف كرة من البلّور الأزرق اللامع وتزيّن كريستالاتها نفس الأحجار الكريمة زرقاء اللون، لا يدري لم ذكرته الآن بعلبة المخمل الزرقاء التي وجدها من قبل.

على جانبي الطاولة المستطيلة الطويلين جلس مجموعة من الرجال والسيدات بملابس زاهية فاخرة تشبه ملابس الجميع، والجانبان القصيران كان أحدهما بلا كراسي حيث إنه يؤدي إلى جزء فارغ من الحائط لم يحتج الأمر من سليمان جهدًا كبيرًا ليستنتج أنّه يستخدم كشاشة عرض من نوع ما، والجانب القصير اللآخر حمل كرسيًّا كبيرًا يتوسط كرسيين صغيرين يشبهان بقية الكراسي على جانبي الطاولة. بمجرد أن لمحت عيونهم مقدم سليمان هبّوا من جلستهم ووقفوا يؤدون فروض الترحيب والتبجيل والطاعة والولاء. فاتخذ سليمان مجلسه على الكرسي الكبير وعن يمينه رحيم وعن يساره ريحانة. فلما استقر في جلسته، جلس الجميع وتعالت أصوات ازدراد لعابهم الخافتة في ترقّب. لتبدأ شاشة العرض تلقائيًّا بالتزامن مع بدء رحيم في شرح الموقف برمّته لمليكه وسلطانه المرتقب.

فجأة تشكّلت على مساحة الحائط الشاغرة صورًا لمساحات من الأراضي الواسعة يختلط فيها الأخضر والأصفر والبني ومجموعة من الأكواخ البسيطة من الخشب ومجموعة من الرجال والنساء بملابس فقيرة بسيطة يعملون في تقطيع الأخشاب والزراعة ورعي الأغنام. فقال رحيم:

ـ بدأت حياة أسلافنا وأجدادنا الأوائل بسيطة جدًّا في الأرض الخاصة بنا ولعصور كثيرة من عصور ما قبل الحضارة والتاريخ. وكما ترى عظمتكم فقد بدؤوا حياة بسيطة للغاية، ومع الوقت اجتهدوا وفكّروا وبدؤوا يحسّنون من معيشتهم وظروفهم ويبتكرون ويخترعون.

تمر الآن صور سريعة تظهر مراحل تطور الأجداد وظهور الآلات والمباني والقرى والمدن. المساحات الخضراء صارت تغطي كل مكان والأشجار والزهور والثمر والحيوانات من كل نوع وصنف هنا وهناك. الرجال والنساء بملابس زاهية نظيفة والكل مبتسم وسعيد للغاية.

ـ ونتيجة جهدهم وفكرهم وعرقهم طول السنين عمّروا الأرض وحولوها لِجنّة حقيقية، فكانت الناس كلها سعيدة وفرحانة. تشتغل وتبني وتخترع كل جديد يود بينهم الحب ويساعد بعضهم بعضًا. يحافظون على القِيم والأخلاق،

ويتعاملون بدستور غير مكتوب ليس به سوى ثلاثة بنود اتفق عليها كل الناس هي الحق، والخير، والجمال!
مرّة أخرى يمسك سليمان نفسه عن الانفجار ضاحكًا وهو يسمع هذه الترهّات. الأمر كله يشبه فيلمًا سخيفًا ساذجًا من أفلام ديزني لاند. هذا يفسّر كل شيء إذًا. أجواء هذا الحلم الغريب، المملكة، القصر، الوزير، حتى إنه حين يتأمّل وجوه أعضاء لجنة الحكماء والوزراء والمستشارين تبدو إليه مألوفة للغاية كأنه يعرفهم من قبل.
إنّه حلم سخيف!
سخيف جدًا!
تبدّلت الصور التي بدأت تظهر الآن مجموعة من الأشخاص الغليظي الملامح بملابسهم الجلدية السوداء وأحذيتهم العالية الرقبة وهم يظهرون من العدم ويبدؤون في مهاجمة البسطاء من الناس فيخطفون صغارهم وبناتهم أحيانًا، وفي صور أخرى يقتلونهم ويستولون على نقودهم ومتاعهم، وفي أخرى يحرقون بيوتهم ومنازلهم، لتتطور الصور فتظهر طائراتهم الضخمة ودبّاباتهم العجيبة وصواريخهم ذات الأشكال الغريبة وهي تقصف وتدمّر وتشيع الخراب والموت في كل مكان، والبسطاء يجرون هنا وهناك هربًا من مصائرهم المحتومة، وتظهر مجموعة من الجنود ذوي الملابس الخضراء والبرتقالية وهم يموتون وينهزمون وتُدَمَّر أسلحتهم وعتادهم بشكل متكرر. يأتيهم صوت رحيم:
ـ حتى ظهر سكان العالم الآخر! لا نعرف من أين جاؤوا ولا أين يختفون! زعم أناس أنهم كانوا أساسًا من أجدادنا الأوائل، ولما كان في قلوبهم ذرة من شر وخبث وسواد، لم يقدروا على العيش مع أجدادنا الخيّرين الطيبين وتركوا أرضنا ورحلوا، وصاروا يرجعون كل فترة لينهبونا وينغّصون علينا حياتنا. يقول آخرون إنهم لا ينتمون لأرضنا أساسًا، ونحن بالنسبة لهم مطمع، أو حقل تجارب. وكما ترى يا مولاي ما يفعلونه بنا وبأهالينا! المشكلة كما قلت أننا لا نعرف من أين يظهرون ولا كيف، والأدهى والأمر أننا على يقين أن بعضهم صار يعيش بيننا ولا نعرفهم! وربما هم من يسهلون عمليات الاختراق المتكررة تلك! لقد صارت تلك الأذناب والتابعون أشبه بالدولة داخل الدولة وسوس ينخر أساس المملكة ويهدد بقاءها واستمرارها.
تتبدّل الصور الآن على الحائط فتبدو صور مواطنين فقراء يتسولون ويأكلون من الفضلات ومرضى يحتضرون ويذوون ويموتون! ناس غاضبة وثائرة وساخطة! ناس يغرقون بالآلاف في البحر أو يحترقون في مبانٍ أغلقت دونهم! مشاجرات بالأسلحة البيضاء وسرقات وحرق ونهب وتفجير واغتصاب! ورحيم يستأنف وقد بدا عليه التأثر لمرأى هذه الصور المؤلمة:
ـ منذ ظهور أناس العالم الآخر في حياتنا، تفشّى الفقر والمرض والجهل، وصار

الناس خائفين، غاضبين، تعسين، مقهورين!
تتبدّل الصور في انسيابية لتظهر أناسًا يعقدون الصفقات المشبوهة، فتظهر صور تخيلية تبيّن عمليات لتبادل بيع أعضاء وسلاح ومخدرات وقمار ومراهنات ورقيق أبيض. رجال أعمال بأرديتهم المزركشة والموشّاة بقطع الجواهر وصفائح الذهب والفضة، بمركباتهم الفخمة غريبة الشكل وهم يتبادلون المبالغ النقدية الكبيرة في سعادة وجشع. استأنف رحيم:
ـ خلال السنوات الستين أو السبعين الأخيرة استفحل الأمر تمامًا وتبدّلت أحوال المملكة بشكل مفزع. لذا لجأنا لهذا القصر والذي يحمل ما بين طيّاته سر بقائنا، في محاولة للحفاظ على بقايا عصر عزّنا ورخائنا وبدأنا ننتظر ظهورك لتخلّصنا من مأساتنا، لأن كل الحكومات والوزارات ولجان الحكماء والمستشارين قبلنا فشلوا في هذا! ولأنك أنت فقط النبوءة! كما أن بعضهم لم يبغِ الإصلاح حقًّا وإن استطاع. وربما كانوا من أصحاب المصالح مع أناس العالم الآخَر، أو مصالح بينهم وبين بعضهم البعض. لا ننكر أن الفساد وصل حتى للقصر!
سارت همهمة بين الحكماء والمستشارين وكلام رحيم يحمل بين طيّاته اتهامًا صريحًا لبعضهم. صمت لوهلة ليعطي كلماته تأثيرًا وهو يقول:
ـ حتى ظهرت يا مولاي، أنت النبوءة، أنت من سيحقق المراد، ويرجع لنا الخير من جديد. أنت من سينقذنا ويطهّرنا ويرجعنا كما كنا، وربما أحسن!
تتعالى أصوات تتردد بين جنبات المكان.
.....
أيها الملك السلطان أقبِل..
أيها الملك السلطان أقبِل..
رعيّتك في انتظارك..
ها قد زارنا السعد..
ها قد جاء الهناء..
أيها الملك السلطان أقبِل..
أيها الملك السلطان أقبِل..
رعّيتك في انتظارك..
اكتب لنا تاريخًا..
ليس له من فَناء..
.....
اقشعرّ بدن سليمان وهو يسمع الأصوات الحماسية التي تردد هذه الكلمات المرّة تلو الأخرى. ازدرد ريقه في صعوبة فوقف، ليقف الآخرون معه احترامًا لوقوفه. كل ما سمعه سليمان لم يكن يختلف أي شيء عن حياته وعالمه وهو

بالكاد يحافظ على بقائه في هذه الغابة الضارية، فمن أين له أن ينقذ عالمًا بأكمله لديه المشكلات ذاتها؟!

مرّة أخرى يدرك مدى سخافة وسذاجة هذا الحلم.

مالت ريحانة على أذنه وهمست، مما اضطره أن يجلس مرة أخرى:

ـ سأصحبك في جولة تفقدية بعد الاجتماع يا مولاي لترى بنفسك ما قد يعينك على إنقاذ المملكة متخفيًا. ولا تنسَ أبدًا أنه لا يجب أن تثق بأحد أو تأمن شرّ أحد. وسأبذل روحي إن كان في ذلك حمايتك.. أو.. سعادتك!

أطرقت خجلًا بعد كلمتها الأخيرة وقد أدركت أن التعبير قد خانها إلى حد بعيد.

نظر لها سليمان مدهوشًا، ورد على همسها بهمس وهو يراقب الحكماء والوزراء والمستشارين في جدالهم الذي يشبه حكماء ووزراء ومستشاري أرضه التي جاء منها:

ـ سعادتي؟ اللي إنتِ ما تعرفيهوش إني شخص تعيس جدًّا جدًّا وآخر حاجة ممكن أفكر فيها هي موضوع السعادة دي.

ـ ربما التعاسة التي تدعيها هي الوجه الآخر لسعادتك دون أن تدري!

ابتسمت في خدر وحياء وهي ما زالت مطرقة، فابتسم سليمان في خبث وهو يواصل طرق الحديد وهو ساخن:

ـ ممكن أفهم انتِ قريبتي وخطيبتي ازاي وانا مش من هنا أصلًا! وغالبًا أنا حاليًّا باحلم أو باخرّف!

نظرت له في شبه لوم وهي تواصل الهمس الذي بدأ يلفت نظر رحيم فحدجهما بنظرة لوم حانية:

ـ الحلم والخرف والواقع والحقيقة والاعتقاد والوهم مجرد أسطح لمكعب واحد، قد تتداخل أو تتقاطع أو تتشارك! اقرصني إذًا لتتأكد من أنني حقيقية وواقعية! وأنا فعلًا قريبتك.. و.. و.. من المفروض آ.. يعني خطيبتك! الأمر متروك لك! ولكنه جرى العرف.. وأيضًا هكذا قالت النبوءة.. و... آ.. أنت السلطان ولك أن تفعل ما تشاء!

ـ طيب هو مش نخلّص الاجتماع دا بقى علشان نروح نشوف اللي هيساعدنا على إنقاذ المملكة؟!

ـ بيدك أن تنهيه يا مولاي!

هنا هبّ سليمان من كرسيه واقفًا مرة أخرى فانتفض رحيم من فوره وأتبعته ريحانة في علامة على أن السلطان قد عرف الآن ما يجب له أن يعرف، وأن الأمر سيحتاج منه لبعض الدراسة والتمحيص لمعرفة كيفية مساعدة المملكة وإنقاذها من الفناء.

١٤. أوكيه.. ويوف-وريا

للماضي رنين في الذاكرة.
هكذا وجدت عُلا نفسها للمرة الأولى منذ عدّة سنوات، تبحث بين طيّات تليفونها على ملف صوتي خاص يحمل اسمًا مميّزًا هو علا. ارتعشت أطراف أناملها وهي تمتد صوب سطح شاشة تليفونها، ثم أجفلت، فتوقفت أناملها على بعد سنتيمترات قليلة من الشاشة الزجاجية الملساء، وترددت لحظات. كانت تلك اللحظات كافية لتنطفئ إضاءة الشاشة، ويختفي الملف الصوتي من أمامها، كأنه إشارة من نوع ما. في لمسة خاطفة سهلة، مسّت سطح الشاشة فأضاء مرّة أخرى وتبدّى لها اسم الملف الصوتي، كأنه يقول لا تترددي، اضغطي على زر التشغيل واسمعيني. ارتعشت شفتاها وتقلّص أسفل معدتها وجفّ ريقها فازدردت لعابها في صعوبة بالغة. تتردد داخلها آخر عبارة قالتها (ماشي يا ياسر.. أوكيه).
(ماشي يا ياسر.. أوكيه).
(أوكييه).. (أوكيييييه).. (أوكيييييه).
الآن يبدو كما لو أنها قد حسمت أمرها، فاقتربت سبّابتها بشدة، وبالفعل ضغطت زر التشغيل، أجزاء من ثانية كانت تفصل بينها وبين أن تبدأ في سماع الملف الصوتي فاتحة الهويس على مصراعيه لتدفق كل ما كانت تود أن تتجاوزه وتنساه من ذكريات. ربما إن مثل تلك الأجزاء من ثوانٍ ما كانت هي اللحظات الفارقة في حيوات أناس عدّة، كانت حدّ السيف بين ليل ونهار أو يمين ويسار. ربما إن تلك الأجزاء من الثانية تمثّل لـعُلا نفس الأهمية وتحوز نفس المكانة والاهتمام. لولا أن قطع التشغيل ورود مكالمة صوتية. ارتبكت علا حتى كاد يسقط منها تليفونها. نظرت في وجل جهة الاسم الذي يضيء الشاشة الآن وقرأته في صوت خافت، ولكنه مسموع...
ـ ياسر.. يتصل بك.
أهي علامة أخرى لتشعرها بالذنب؟
الأمر كلّه أشبه بغرفة منسية في بيت مهجور وقد حذّرت نفسك مرارًا وتكرارًا من أن تمرّ بالبيت، أو أن تحاول فتح باب الغرفة. إلا أنك وبإصرار عجيب تعاند نفسك وتستجلب لنفسك الاحساس بالذنب بأن تزور البيت وتقف أما باب غرفتك المنسية ممسكًا بالمقبض وتتلاعب به ما بين فتح وإغلاق كأنّك تهمّ بتقديم فقرة سحرية مثيرة في سيرك الحياة.
وفي اللحظة المناسبة تجد من يمسك بتلابيبك ويقرّعك ويوبّخك في شدة.

ولكنك لا تندهش، لأن هذا الشخص هو أنت!
هذه المرة لم يكن هذا الشخص هو أنت، بل مكالمة تليفونية واردة وعبارة تضيء شاشة زجاجية تقول ياسر.. يتصل بك!
الحقيقة أن علا أحسّتها بطريقة أخرى.
أن ياسر.. يراقبك أنت، يحاوطك أنت، يمنعك أنت من ولوج غرفة الماضي المغلقة، يملكك أنت.. الآن!
كالملسوعة، وبعد فترة ليست بالقصيرة، وبعد أن أوشكت المكالمة على الانغلاق، حرّكت طرف إبهامها الذي مسح سطح الشاشة عرضيًّا مؤذنًا بفتح الخط وبدء المكالمة. يأتي صوت ياسر المبتهج المنفعل من الجهة الأخرى للكون السحيق قائلًا:
ـ حبيبتي إحنا نزلنا خلاص، مسافة السكّة ونكون عندكم، ابتدي اجهزي وأنا هاكلّم أونكل برضه أقول له، بس طبعًا قلت أكلّمك إنتِ الأول يا روح قلبي.
كانت كلماته الصادقة التي تقطر حبًّا وسعادة تزيد من ثقل ذلك الإحساس الذي يتكاثف رازحًا على صدرها فيصير الهواء ضيفًا لزجًا سميكًا يجد صعوبة بالغة في الولوج إلى رئتيها.
أي عذاب هذا؟
لو عرفت أنها ستكون تعسة هكذا، مُثقلة بالهمِ والحَزَن هكذا، متردّدة ضعيفة هكذا، فلِمَ كانت موافقتها على الارتباط بـياسر إذًا؟!
أن يجد المرء شريكًا لحياته لَهُوَ أن تجد من يزيح عن طريقك كل هذه المصاعب والسلبيات.
استمر ياسر في سرد مشاعره وأحلامه وكيف أن اليوم هو ميلاده الجديد، والفضل كلّه لها.
كان حبّه لها جارفًا، ويبدو أن الفارس الرزين قد أصابه فيروس التهوّر والاندفاع.
حقيقة الأمر أن جزءًا ما داخل علا يعجبه ذلك.
يحرّكه ويثيره هذا الأمر.
يطرب لسماع مثل تلك الكلمات.
ـ باحبّك يا علا.. باعشقك يا علا..
يتسرّب لها تدريجيًّا دفء كلماته وتبدأ عملها في التأثير عليها.
ـ باحب التراب اللي بتدوسي عليه برجليكِ، وباغير من الهوا اللي بتتنفسيه علشان بيخش جوا صدرك.
تهدأ انفعالات علا قليلًا وتخفّ حدّة تساؤلاتها.
ـ نفسي أتحط تحت جلدك، علشان في الحرّ أرطّب على جسمك، وفي البرد

أدفيكِ.
من أين أتى الطبيب الأربعيني الرزين بمثل هذا التدفق والقدرة على التأثير؟
من أي طريق خفيّ استطاع أن يتسرّب من بين مسام جلد علا ويتغلغل داخل نفسها وجوارحها هكذا؟
ليس هذا بنفس الشخص الذي عرفته علا طوال الفترة الماضية. هذا ياسر جديد غيّرته كلمة خرجت من بين شفتيها فكانت كالفتيل الذي فجّر هذا الكم من المشاعر والأحاسيس. يبدو أن هذا الرجل البكر قد حبس داخله كل ذلك في انتظار اللحظة المناسبة. في انتظار تلك الأميرة القادمة من بين طيّات كتب الأساطير التي ستقول له الكلمة السحرية التي ستفتح باب المغارة.
هي الكلمة، التي كجزء الثانية تمامًا، تفصل بين الأشياء، وتتحكم في مقدّرات الناس وحيواتها!
كانت كلمة ياسر بسيطة تمامًا.
سهلة للغاية.
مجرد (أوكيه)!
مجرّد حرفين غيّرا تركيبة شخص ما الكيميائية فحوّلاه كعقار سحري أو تعويذة غامضة إلى شخص جديد.
في خدر العذارى ابتسمت علا وقد نسيت كل شيء عن الملف الصوتي، والمنزل المهجور وغرفة الذكريات المنسية المغلقة.
وفي غنج قطّرت عذوبة:
ـ ربي لا يحرمني من بهجة طلّتك، مستنياك يا ياسر، مستنياك.
(مستنياك يا ياسر، مستنياك)
كانت بالنسبة للفارس الرزين بمثابة أحلى كلمات حب سمعها في حياته، وهو الذي ربما لم يسمع كلمات حب من قبل. كانت كافية للغاية، حتى لو لم تكن كافية لرجل آخر. ربما كان من الأجدى أن تبادله الفتاة المنتظرة نفس مشاعره فترد بكلمات أخريات تحمل من الحب دلالة أكبر، من اللهفة قدرًا أكثر، من الدلال والغنج والسعادة ما يطمئن. ولكن الفارس الرزين المجتهد، الذي تحوّل ما بين ليلة وضحاها إلى محب ولهان لم يكن طامعًا أبدًا. فرد بمنتهى الوله والفرحة:
ـ جاي لك يا عمري، جاي لك يا ليلي وقمري، جاي لك يا أحلى ما في الدنيا.
وهكذا وجدت علا نفسها تبتسم وقد أطربتها الكلمات الرقيقة حتى كادت تفقدها اتزانها.
انتهت المكالمة، وعادت شاشة تليفونها لسيرتها الأولى تحمل الملف الصوتي الذي كان قد أوشك على البدء وهو على وضعية الانتظار.
وهكذا وجدت نفسها تترك مقبض باب غرفتها المنسية وتضغط الزر الذي يعيدها

إلى شاشة التليفون الرئيسة مستغنية بمنتهى الوعي والإدراك عن فتح صندوق بندورا التي كاد أن يصبّ عليها حممًا من جهنم.

وهكذا أيضًا فتحت دولاب ملابسها عوضًا عن دولاب أشباحها، وبدأت تنتقي فستانًا فاتنًا مكشوف الصدر والأكتاف وتُزيّنه الزهور الرقيقة، ثم انتقت شالًا من الشيفون الأسود تغطي به كتفيها. بدأت في مهارة وخبرة في وضع طلاء شفاه من اللون الأحمر القاني، من نفس لون زهور الفستان. ازدادت فتنتها فتنة، وصارت ثمرة يانعة باهرة جاهزة للقطف.

وحين انتهت أخيرًا من وضع لمساتها الأخيرة بوضع الماسكارا على رموشها الطويلة، تناهى إلى أسماعها صوت جرس الباب يرن، فأدركت أنه قد حان الوقت لتقابل الرجل الذي اختارته ليكون رفيقًا لها ربما فيما تبقى من عمر.

تعترف علا لنفسها بالسعادة وهي ترى الفرحة في عيون والديها وياسر ووالديه. ومرّت طقوس الليلة كلّها كالحلم.

أدركت الفتاة البضّة الفاتنة أن الحياة كالقطار لا يغادر المحطة إلا ليستقر في محطة تالية.

وتمنّت فعلًا أن يصير قطارها هانئًا سعيدًا بالمحطة التي وصل إليها.

* * *

في ملل شديد بدأت تأمل أسماء زجاجات عطورها باهظة الثمن.

هذه زجاجة «چار چاردينيا» التي تشبه دمعة من عسل صافٍ، وتلك «چوي دي چين باتو» التي تشبه قلبًا أسود مقلوبًا تغطيه سدّادة حمراء، وتلك «شاليني» التي تبدو كعلبة زجاجية مضلعة مسطّحة، وتلك «أو دي هادريان» التي تمثّل بيضة مزخرفة بالنباتات المتشابكة والفراشات الملوّنة وتعلوها فراشة ذهبية كبيرة، وتلك، وتلك، وتلك...

تعرف قصة كل زجاجة من تلك، وقصة كل رجل أحضرها.

حتى وصلت لزجاجة طليقها الأخير سيف وهدان، الأغلى ثمنًا بينهن من نوع «كلايف كريستيان ـ امبيريال ماچيستي»، فخامة الاسم وحدها تكفي.

فتحت دولاب ملابسها.. دولاب أحذيتها.. غرفة تبديل ملابسها.

أخذت تتجوّل في نزق عبر أرجاء غرفتها/ جناحها الخاص.

تَرى كل ذلك على غير ما كنت تراه من قبل.

تناولت سيجارة رفيعة من نوع داڤي دوف من علبة ذهبية مرصعة بالأحجار الكريمة منقوش على ركنها العلوي الأيمن حرف (M) بالياقوت الأحمر.

نفثت الدخان في عصبية، وبعد أنفاس قليلة لم تصل بها إلى منتصف السيجارة، أطفأتها في غلّ كأنها تدفنها في منفضة السجائر المصنوعة من الذهب الخالص والموضوعة على الكومودينو المجاور للسرير.

فكّرت أن ما تشعر به الآن يشبه تمامًا أعراض الانسحاب التي جرّبتها قبلًا.
مخدّر ما ينسحب تدريجيًّا من جسدها لينقيه.
ولكنه ليس انسحابًا سلميًّا، بل هو قاهر مدمّر، يدمّرها الآن بمنتهى العنف والقسوة، يغرّبها عن ذاتها، ويجعلها جاهلة لما يحدث لها.
ما الذي يحدث لها بحقّ السماء؟
ما تلك الطريقة الجديدة الخرقاء التي بدأت ترى بها الدنيا والعالم من حولها؟
محاولة استعادة هدوئها النفسي وسلامها الداخلي، امتدت يدها إلى ريموت جهاز الـDVD والموصل بنظام صوتي مجسّم يعطي للنغمات بُعدًا آخر لم يكن لها، وبالطبع لم يكن بالـDVD سوى مقطوعات موسيقية يعزفها شخص واحد.
اسمه سليمان.
أغمضت ملك عينيها سابحة في الملكوت ومحاولة التحليق مع نغمات الكمان الشجية إلى عوالم لم تصل لها قبلًا.
كل مرة تسمع فيها هذه النغمات السحرية تستشعر أن شيئًا ما جديدًا يطرأ داخلها.
شيء ما في نغمات عزف سليمان هذه المرة كان يؤلمها.
يذكّرها بالانكسار.
ولكن شيئًا ما آخر في نفس العزف والنغمات كان يشعرها باحترامها لذاتها، وأن للأشياء نسقها الخاص الذي لا يخضع لأي شيء ماديّ، بل هو قدريّ صرف بالدرجة الأولى. أن العواطف لها شفرات خاصة، أو هو تناغم من نوع خاص، تمامًا كما تتناغم الآلات المصاحبة لـسليمان في عزفه على الكمان. هو عزفٌ إذًا ولكنه بين طرفين. كل منهما يحترم الآخر ويقدّره.
بيانو مثلًا.. وكمان.. تمامًا كما يحب سليمان.
الآن بدأ زوال الألم، ربما ليفسح المجال لبعض الأمل.
أيكون الداء والدواء معًا، في آن واحد.
الآن تمسك بتليفونها المحمول طالبة رقمًا ما، ابتدرت صاحبه قائلة:
ـ أيوه يا حاتم، أنا عايزاك تحجز لي الأوبرا.
ـ .....
ـ أيوه، أيوه، الأوبرا.
ـ .....
ـ مش مهم التكاليف، مش مهم الفلوس، عايزة أعمل حفلة كبيرة، حفلة كبيرة قوي.
ـ .....

ـ أيوه، أيوه، وعايزة أجيب فيها سليمان.

ـ .....

ـ أيوه، أيوه، وعايزة دعاية كبيرة، جرايد وتليفزيونات ونت، كل حاجة، كل حاجة، إنت فاهم.

ـ .....

ـ أيوه يا حاتم، اسمع الكلام زي ما باقول لك كدا!

ألقت تليفونها في شرود على سريرها وهي تسأل نفسها عن الخطوة التالية. وحاتم المسكين يزداد اقتناعًا يومًا بعد يوم أن مخدومته قد فقدت عقلها تمامًا، ربما كثير من الرجال في حياة امرأة يفعل ذلك، ربما هو مفعول الخمر والمخدرات لفترة زمنية كبيرة، أو ربما هو فعل سحر ما قد حضّره لها إحدى صديقاتها اللائي يغرن منها ويحسدنها على ما هي فيه.

التقطت تليفونها مرّة أخرى، لتطلب الرقم نفسه ثانية، وتستأنف كلامها:

ـ أيوه يا حاتم، عايزاك تشتري بطاطين، بطاطين كتير، وعايزة هدوم، هدوم جديدة، كل المقاسات، وجِزم، وشنط مدارس، ولعب، اشتري لعب كتير يا حاتم، مش مهم الفلوس!

ـ .....

ـ آه، آه، هتروح بيهم الملجأ اللي إحنا زرناه قبل كدا.

ـ .....

ـ أيوه، آه، وعايزاك تتبرع بخمسين ألف، ولا أقول لك، خليهم ميّة للمستشفى بتاعة الكبد الجديدة دي.

ـ .....

ـ أيوه، اللي بيعملولها إعلانات في التليفزيون.

ـ .....

ـ أيوه دي، وخلي مؤمن يكلمني من البنك علشان أدّي له الأوك.

ألقت التليفون مكانه ثانية، والتقطت سيجارة جديدة، أشعلتها ولكنها لم تسحب منها سوى النفس الأول، ثم وضعتها في مطفأة السجائر كما هي، يتصاعد دخانها إلى سماء الغرفة كأنه عود بخور، ويشكّل أشكالًا وهمية لا تلبث أن تتلاشى كالأفكار. بالطبع هي لا ترى حاتم الآن الذي يضرب كفًّا بكفّ وقد فكّر لوهلة أن يكسر بكلام مخدومته عُرض الحائط، ويستبدل كل ذلك بمكالمة تليفونية لطبيبها النفسي.

نظرت مَلَك لزجاجة الـ«چار چاردينيا» وبدأت تتشمّمها في اشمئزاز.

أمسكت بالزجاجة وقد همّت أن تلقي بها في سلّة المهملات، فاستدعت مخدومتها وابتدرتها قائلة:

ـ فتحية.. إنتِ اتجوزتِ قريب؟ صح؟
تومئ العشرينية الشابة في قلق وتوجّس خيفة أن يتسبّب زواجها في انقطاع عيشها أو معاقبتها على نحو ما. تبدّدت مخاوف المليحة السمراء كليّة حينما امتدت لها يد مخدومتها بالزجاجة العسلية وهي تقول:
ـ خدي يا فتحية، الإزازة دي غالية قوي، وغالية عليَّ أنا كمان لأسباب مش مهم أقولها لك، بس ما تغلاش عليكِ يا فتحية، خديها، خديها حطّي منها لجوزك، هيحبّك قوي، وما تنسيش تبقي تدعي لي بقى.. هههههههه...
انسحبت فتحية وهي تغمغم ساكبة كلمات شكرها كعطر رخيص، وعقلها يسب ويلعن تلك الهانم المجذوبة التي كان من الأجدى لها أن تمنحها نقودًا. وقبل أن تغادر تمامًا، استوقفتها مَلَك قائلة:
ـ اندهي لي صابرين لو سمحتِ يا فتحية.
وهكذا... بدأت مَلَك في توزيع زجاجات عطرها الغالية الثمن، الواحدة تلو الأخرى، محتفظة بزجاجة واحدة أخيرة لنفسها، والعجيب أنها لم تكن غالية بالمقارنة بالزجاجات التي وهبتها للعاملات بقصرها. كانت الزجاجة من نوع «يوفوريا» من إنتاج كالڤن كلاين.
ربما لأنها تستشعر دفئًا وحميمية في رائحتها.
ربما لأن الـيوفوريا هي نفس ما تفعله موسيقى سليمان بها.
حيث تسبح في فضاء رحب من النشوة والسعادة.
الجنون مستمر ولكنه لذيذ!

١٥. أصلي.. وت‌ـقلي‌ـد

وقفت الأربعينية المتأنقة تعيد رن جرس الباب مرة أخرى ومتأكدة من العنوان كما هو مكتوب في ملفات الموارد البشرية بالشركة. أعادت وضع بضع خصلات من شعرها غطّت عينها اليسرى كما كانت. أعادت طلب رقم التليفون لتجاوبها الرسالة الصوتية نفسها «هذا الرقم قد يكون مغلقًا أو خارج...». تأفّفت في فروغ صبر وبدأت تعد العدّة للانصراف حين فتح ذلك الشاب الباب في توجّس مغلّف بالتساؤل وقد بدت له تلك السيدة أشبه ما يكون بمذيعات القنوات الفضائية. ابتدرته السيدة بقولها:

ـ مدام سيلڤيا، رئيسة الآنسة هند في الشغل، يا ترى هي موجودة؟

تدلّى فكُّ عليّ السفليُّ في بلاهة فهو لم يرَ ركبتَي امرأة في المواجهة من قبل، وازدرد لعابه في توتر وقد حار في كيفية التصرف الصحيحة. الوالد في العمل والأم في الداخل وهند ما زالت في غرفتها تتعافى من آثار الكسر المادي والمعنوي في بطء، أما هو فكان في طريقه للنزول لعمله بالورشة، لذا بدا له أنه لا ضير من استقبال هذه الـسيلڤيا العجيبة، وتساءل في قرارة نفسه بما أن اسمها سيلڤيا، هل هي مسيحية؟

العجيب في الأمر أن المرأة بشعرها المصبوغ الأصفر وملابسها فرنسية الطابع وعطرها الفوّاح لم تبدِ أي نوع من الاستغراب وهي تتجوّل عبر أرجاء منزل هند المتواضع وتسلّم على أمها في أناقة ثم تخطر في هدوء جهة الفتاة الراقدة في سريرها لا تلوي على شيء.

انتبهت هند على صوت زوّارها غير المتوقعين وهتفت في تعجّب:

ـ مدام سيلڤيا! أهلًا وسهلًا، اتفضلي حضرتك.

ثم نظرت إلى أمها وقالت:

ـ ماما روحي اعملى ليمونادة ولا عصير فريش لمدام سيلڤيا.

أشاحت سيلڤيا بيديها علامة الرفض وهي تقول في لهجة ودودة، لكن صارمة إلى حد ما:

ـ شكرًا يا مدام، متشكرة قوي، أنا مش قاعدة، بعد إذنك هاتكلم مع هند كلمتين وماشية على طول.

أومأت هند لأمها علامة الموافقة، فانسحبت في هدوء تعدّ لضيفتهم مشروبًا ما، بينما بقي عليٌّ بثغره الفاغر وفكّه المتدلي واقفًا كأنما ينتظر التعليمات الخاصة به هو الآخر. فاكتفت هند بأن أمرته بالانصراف بتشويحة من يدها، فجرّ

ذيله بين فخذيه وانسحب في امتعاض مكتوم.
اتخذت سيلڤيا مجلسها على حافة سرير هند وابتدرتها قائلة:
ـ إيه؟ فينك يا ست هند غايبة بقى لك كام يوم؟ وقافلة موبايلك! وما بتردّيش على الإيميلات! مع إني قلت ان قعدتك مع مستر كمال أكيد فرقت معاكِ كتير.
أطرقت هند أرضًا في خجل، وبدأت تغمغم بما يشبه الاعتذار:
ـ أنا آسفة واللـه يا مدام سيلڤيا بس... بس..
ـ بس إيه؟
ـ زي ما حضرتك شايفه، إيدي اتكسرت، واتجبست، واكتأبت.. و.. و.. يعني!
أوشكت أن تخبرها عن موقف أبيها من العمل والكمان وسليمان والحياة بأسرها، إلا أنها آثرت الصمت، مسلمة قيادها لرئيستها المتمرّسة، التي استلمت زمام الأمور في تلقائية، مستأنفة:
ـ وهو اللي يتكسر مش يبلغ الشغل برضه؟ كنا عالجناكِ، أخدتِ أجازة رسمية، كشف عليكِ أحسن دكاترة، وأخدتِ أحسن علاج. إنتِ مش عارفة مستر كمال بيهتم بموظفينه ازاي. أمّال لو ما كنتيش اترقيتِ وبقيتِ من السكرتارية الرئيسية؟
ـ أنا فعلًا آسفة، بس ليّ سؤال واحد بس.
ـ اتفضلي.
ـ إشمعنى أنا؟
ـ إشمعنى إنتِ ايه؟
ـ إشمعنى أنا اللي حضرتك مهتمة بيا قوي كدا؟ وبتساعديني قوي كدا؟ وبتساندِيني، ومكلّفة نفسك زيارة مع إني ما غبتش غير يومين تلاتة، يعني مش حاجة مهمة، وفي الآخر أنا مش حد مهم! يعني عادي جدًّا إنكم ترفدوني علشان غبت بدون عذر، انقطعت عن العمل يعني، وتجيبوا عشرين واحدة بدالي من بكرة لو حبيتم.
فتحت سيلڤيا حقيبتها في هدوء وأخرجت منها علبة سجائرها الحمراء من نوع موور الرفيعة وولّاعة ذهبية من نوع زيبّو ثم نظرت لـهند تستأذنها:
ـ هو أنا ممكن أدخن هنا؟
ردت هند عمليًّا بأن قامت وأحضرت لضيفتها مطفأة زجاجية.
أشعلت سيلڤيا سيجارتها وتناولت نفسًا عميقًا بدأت تنفثه من فتحتي أنفها في استمتاع. وفي أناقةٍ نفضت طرفها فوق المطفأة وبدأت الرد:
ـ علشان إحنا بنعرف نشوف اللي جوا يا هند، إحنا مش بنهزر!
صمتت لوهلة كي تحدث كلماتها التأثير المناسب وهي تستطرد:

ـ أنا وإنتِ واحد! اوعي تفتكري إني طول عمري كدا، بالعكس.. أنا جايز أكون ابتديت من أقل منك كمان، إنتِ فاكرة إني ساكنة في المعادي طول عمري! تؤ، أنا من شبرا يا هند! وبيتي كان أوحش من بيتكم مية مرة! بس كان جوايا نار! نار مشعللة وما كانش ينفع تنطفي!

تأملت هند تلك اللمعة في عينيها بانبهار:

ـ اشتغلت كمية شغلانات مش فاكراها دلوقتي وخطوة خطوة بقيت باترقى لحد ما بقيت زي ما أنا دلوقتي، ودا مش آخر طموحي، بالعكس! أنا كمان عندي بيزنس صغير بتاعي واستفدت كتير من شغلي مع مستر كمال واللي زيه، ومستنية الوقت المناسب علشان أبقى اللي أنا عايزاه، إنتِ كمان جواكِ النار دي. وعايزة تبقي حاجة إنتِ عايزاها.

ـ طيب ما كل البنات كدا يا مدام سيلڤيا.. أنا ما فياش حاجة مميزة!

(لا تدري كيف تذكرت تربيتة يد سليمان الآن؟)

فرقعت مدام سيلڤيا إصبعيها في انتصار وهي تقول:

ـ أهو هو دا أكبر ميزة فيكِ، إنك حاسّة إنك مش متميزة! وعلشان كدا طول الوقت عايزة تبقي أحسن! عايزة تعرفي أكتر! محتاجة بس حد يحترمك ويقدر جهدك، محتاجة حد يبص عليكِ وإنتِ هتبدعي، هتخرجي كل الطاقة اللي جواكِ.

بدأت كلمات سيلڤيا تحدث أثرها في هند وفكّرت كم هي على حق، ربما هذا هو نفس الشيء الذي رآه سليمان فيها واستغله لتتقدّم في عزفها هكذا. وبعين حالمة بدأت ترى نفسها تلبس فستانًا غاليًا مرصعًا بالحلي وتضع عطرًا أصليًّا غاليًا وتنزل من سيارتها الحديثة الفارهة بينما يفتح لها السائق الباب في أدب واحترام تمهيدًا لنزولها. يطير هذا الخاطر ليحلّ محله خاطر آخر حيث ترتدي فستانًا كلاسيكيًّا أسود اللون وتعتلي خشبة مسرح كبير حيث الجمهور كلّه من علية القوم، تمسك كمانها وتعزف عليه لتضجّ الأيادي بالتصفيق الحاد، ثم أخيرًا جدًّا ترى نفسها ترتدي تايورًا من ثلاثِ قطع، ونظارة وردية أنيقه بلا إطارات، تجلس خلف مكتب ضخم، يدخل عندها السكرتير الخاص لتوقّع بعض الأوراق بالإمضاء، بينما ترد على مكالمة هاتفية على المحمول وعلى الأذن الأخرى تضع سمّاعة التليفون الأرضي مستقبلة مكالمة دولية من الصين.

أفاقت هند من شرودها على صوت مدام سيلڤيا تهتف في ابتسامة منتصرة:

ـ هيييييه.. رُحنا فين يا هند؟.. أنا هنا.. إيه؟ إيه الأخبار؟ قلتِ إيه؟

ـ قلت إيه في إيه؟

ـ باقول لك مستر كمال مسافر فرنسا بعد شهر وكان عايزك معاه، وباعتني آخد الباسبور بتاعك علشان نخلّص التأشيرة بتاعتك وكل اللازم.

ندّت عن هند ضحكة عصبية قلقة، ونظرت لضيفتها في استخفاف وهي تقول:

ـ مدام سيلڤيا، أنا ما عنديش باسبور من أساسه.
ـ يا نهاااااااااااااااار! إنتِ ضايعة يا هند، على العموم أنا هابعت لك السواق بتاع الشركة بكرة ياخدك تطلعي باسبور فوري وتسلميه له! وإحنا هنقوم باللازم.
ثم أخرجت من جيبها مظروفًا أبيض دسّته تحت فخذها وهي تقول:
ـ ودا مبلغ تاني علشان مصاريف العلاج ولوازم المظهر اللائق اللي قلت لك عليه، على فكرة يا هند هاقول لك على مبدأ مهم قوي! إنك تجيبي حاجتين ولا تلاتة ماركات نضيفة، أبرك مليون مرة وأشيك من عشر حاجات تقليد! حطّي الكلمة دي حلقة في ودانك، الأصلي تمنه فيه!
دفنت عُقب سيجارتها ووقفت علامة الانصراف، وكانت هي نفس اللحظة التي دخلت فيها الأم بكوب الليمونادة، وفاجأتها رائحة سجائر الضيفة فأبدت امتعاضًا خفيفًا وهي تقدّم لها الصينية المعدنية وكوب الليمونادة فوقه، إلا أن سيلڤيا أغلقت حقيبة يدها وربّتت في ود على كتف الأم واستعدت لاستقبال هند في حضنها لتقبلها على الوجنتين وهي تعتذر عن عدم قدرتها شرب الليمونادة لارتباطها بموعد هام.
لم تنس سيلڤيا أن تلقي بنظرة أخيرة على هند وهي تقول:
ـ بكرة يا هند، هابعت لك السواق، ما تنسيش! وريّحي لك يومين كدا ولا تلاتة وتعالي الشغل، أنا هابلغ مستر كمال بحالتك، وهو أكيد هيتفهّم دا. وافتكري كلامي كويس، اللي يلبس الأصلي، بكرة يبقى أصلي! واللي يلبس التقليد، هيفضل طول عمره تقليد!

* * *

ـ أيوة يا ياسر عايزة دي بعد إذنك.
ـ حبيبتي بس دي مكشوفة قوي.
ـ ياسر حبيبي، أنا باحب ألبس الحاجة اللي بتريحني، ودا الستايل بتاعي. بليز يا ياسر ما بحبش كدا.
ثلاث كلمات مشتقة من الحب في جملة واحدة، ولكنها لا تقترب من معاني الحب قيد أنملة.
حبيبي! باحب! ما بحبش!
كأن الكون كلّه يدور في فلك عُلا.
كأنما عليه من أجل أن ينال الرضا والسماح، أن يرضخ دومًا لرغبات السيدة الآمرة.
يُدرك بطبيعة الحال ما هو الصحيح، وأن رفضه لمثل هذا الفستان الذي يتعارض مع مبادئه وقواميس قبوله للأشياء، لهو أمر بديهي جدًّا. لكن شيئًا ما داخل الطبيب العاشق منعه من أن يرتفع بمستوى اعتراضه إلى مستويات أخرى.

تصطدم البديهيات في عقله مع الرغبات مع معطيات الأمور، مثل تلك الاصطدامات هو ما يتمخض عنه قولٌ مثل ما قال:

ـ طيب ممكن يا حبيبتي بس تبقي تلبسي عليه شال؟

نظرت له علا فيما يشبه التقيؤ بعد طعام فاسد، قلبت شفتيها في عدم تقبّل، ثم غمغت كلامًا يشبه الكلام، يعتقد ياسر أنه كان قريب الشبه من:

ـ ماشي يا عم بابا! ماشي!

أحس ياسر انتصارًا وهميًّا من تلك الانتصارات التي يقنع بها المرء نفسه، يبدأ الأمر دومًا بأشياء تافهة كتلك، فستان مكشوف، جوب قصيرة، بلوزة بلا أكمام، أو ربما خاتم إصبع قدم. يتطور الأمر فيصير أفعالًا وأناسًا لا نرغب حقًّا لمن نحبّهم أن يفعلوها أو يعرفوها. ثم نصل إلى المستوى التالي حينما نصدق بيننا وبين أنفسنا وفي تعاملاتنا معًا أننا نحقّق الانتصار تلو الآخر، وأننا نضع الأمور في نصابها الصحيح. أي نصاب وأي نسق لأمور لا نقنع بها إلا أنفسنا، وآراء بنيناها داخل جدران عقولنا؟

ـ كريديت.. ولا كاش؟

أفاق ياسر من تساؤلاته أمام الكاشير وهو يمسك بيده الفستان الذي كان يعترض عليه منذ قليل، بينما انصرفت عنه علا تقلّب في ملل بعض النظارات الشمسية على حامل رأسي دوّار. دفع ياسر ببطاقة ائتمانه، ولم يندهش من سعر الفستان، نظر لخطيبته وحبيبة قلبه آملًا أن يدخل الفستان بعض السعادة إلى قلبها. ولكنها كانت تؤجل إحساسها بالسعادة بعض الوقت، فهي مشغولة بالعبث في نظارات شمسية لن تشتري منها شيئًا.

في نفس المقهى الذي جمعهما حين أعلن ياسر عن حبّه لها جلسا.

نفس النارجيلة، ونفس النكهة والمذاق.

السطح الأملس البارد لشاشة تليفونها المحمول هي الكون نفسه، والخطيب المحب الولهان يجلس عند الطرف الآخر للكون، يفصل بينهما أطنان وأطنان من أكياس بلاستيكية، تمثّل النموذج الحي لجبال الهيملايا العملاقة.

كأنه الماضي بشحمه ولحمه، يبحث ياسر بين مفرداته عن جمل متناسقة يبدأ بها الحوار ومحاولًا أن يستعيد خطيبته ولو لبضع لحظات من ذلك الكون الموازي الذي تتشاغل فيه بنقر أصابعها على الزجاج. نظر إلى تلك الحلقة المعدنية اللامعة من الفضة التي تزيّن بنصره اليمنى، ثم تحوّل عنها إلى مثيلتها الذهبية في بنصر حبيبته اليُمنى. حلقتان معدنيتان لامعتان، تحدّدان ما إذا كان ياسر مرتبطًا بـعلا أو أن فلانًا مرتبط بفلانة. أناس حمقى لا يدركون أن الارتباط الفعلي في العيون، وفي القلوب، وفي الأنفاس التي تردّد اسم مَن تحب. الارتباط الحقيقي في كلمة، في حضن، في لمسة حانية. الارتباط الحقيقي لا يكون في حلقات معدنية. عندها ارتفع بنظره نحوها متسائلًا في شوق:

ـ بتحبيني يا علا؟
لم تلتفت له في المرة الأولى، فتحوّل شوقه إلى رجاء، يختلط ببعض من ضيق:
ـ علا.. علا.. بتحبيني؟
أخيرًا جدًّا انتبهت، ولكنها لم تكن سمعت سؤاله، فقالت في صدق:
ـ أيوه يا ياسر، آسفة.. خير؟ كنت بتقول حاجة؟
هذه المرة بدأ ياسر في إدارة الدبلة حول محور إصبعه بيده الأخرى، ومطرقًا في إحباط:
ـ كنت باقول، بتحبيني يا علا؟
سحبت علا نفسًا من نارجيلتها، وتناولت يديه بيدها الحرة في رقة، أبدلت نظراتها المتسائلة بأخرى حانية، ثم قالت بصوت يقطر عذوبة:
ـ بص لي يا ياسر، بص لي.
رفع ياسر عينًا قد أرهقها الصمت، عينًا قد أنهكها الوقت، عينًا تنتظر الغوث، عينًا تترقرق فيها لآلئ من دمع. فاستأنفت علا:
ـ ياسر حبيبي، أنا وانت مع بعض، دا واقع! أنا اخترتك، ومعاك، ومش هاروح في أي حتة إلا إذا إنت اللي كنت مش عايزني.. فاهمني؟
ارتعشت شفته في كبرياء وهو يكرّر السؤال نفسه:
ـ بتحبيني يا علا؟
رفعت علا يد ياسر نحو شفتيها في جرأة، ثم قبّلت أطراف أنامله في صوت شبه مسموع، ثم قالت وهي تبتسم في محاولة لبث الطمأنينة في روح شريكها:
ـ دي.. مني ليك.. هه؟ كدا جاوبتك يا سيدي أنا؟
حاول ياسر أن يبتسم مخفيًا إحباطه وهو يقول في مرارة مكتومة:
ـ أيوه، جاوبتيني!

١٦. أرض اللعنـة

مروج خضراء وبحيرة رائقة عند نقطة التقائها بالأفق تشرب منها الحيوانات في وداعة مثيرة وأدغال قصيرة وأشجار ثمارها كأنها الجنة.

هكذا وقف سليمان أمام المشهد الأسطوري مشدوهًا، حدقتاه باتساع الكون، الكمان في يده، وريحانة تراقبه في حنو بالغ لتشير له أن يتقدّم من البحيرة أكثر.

ـ ربما كانت هذه هي آخر بقعة في المملكة ما زالت على طهرها وبراءتها ولم تلوّثها يد الخراب والدمار الذي أصاب باقي الأجزاء.

ـ دي كأنها الجنة.

ـ هي كذلك، وكانت المملكة كلها كذلك، جنة لساكنيها، واحة أمان يعيش الكل فيها في تناغم وتمازج وحب.

أشارت إلى قطعان الحيوانات قائلة:

ـ انظر.

بدأت تقترب منها وعينا سليمان تتابعانها في شغف. في رقة بدأت تربّت على ظهر غزالة صغيرة فرنت لها وبدا له كما لو أنها تبتسم في اطمئنان.

تشجّع سليمان بدورها فاقترب، شجّعته ريحانة أكثر فمدّ يدًا مترددة ليربّت على ظهر الغزالة هو الآخر.

ـ غريبة قوي إن وسط القتل والدمار والمعاناة يكون لسا فيه جزء بالجمال دا؟

ـ كل شيء له حكمة، أي خبيث أو شائن أو مشوّه، ستجد معه بقعة جمال أو أمل أو ضياء. الأشياء السيئة تنجح دومًا في أن تُبقي مثل هذه الأشياء الجميلة المخبوءة تنتظرنا.

ـ حقيقي.. أي قبح مهما زاد مش هيمسح كل أثر للجمال بشكل كامل.

أفلتت الغزالة من تحت يديها فكادا أن يتلامسا. أحسّت ريحانة بالحرج وبادرها سليمان بالابتسام قبل أن يتجهم وجهه مرة أخرى متسائلًا:

ـ وعرفتِ المكان دا ازاي؟

ـ الصدفة تلعب دورها في كثير من الأحيان، قد تتحكم الصدفة في مصائر الناس أصلًا فتسيّرها أنّى شاءت الأقدار. الصدفة هي ما نسمي به الأشياء التي نجهل تفسيرها، لكن الحقيقة أنه لا شيء اسمه الصدفة، فهناك يد أعلى تسيّر كل شيء وتجري الأمور بنسقها الصحيح. بالنسبة لي، أنا وجدتها صدفة ورأيت كيف مررنا بطريق مدمرة كل التدمير وتسلّلنا من تجويف صغير لا يشي

بوجود أي شيء بعده لنصل هذه البقعة السرية التي لا يعرف مكانها غيري.

لم يبدُ عليه الاقتناع فاستأنف المجادلة.

ـ الحيوانات دي إزاي هادية وأليفة ومتطمنة كدا؟ مش لازم يكون فيه حيوانات مفترسة معاها؟ مش دا هو التوازن الطبيعي للأمور؟ مش كل الدنيا كدا آكل ومأكول.. أليف ومفترس..

نظرت له ريحانة في شبه لوم:

ـ ربما أن هذا هو منطق سكان العالم الآخر بالنسبة لنا، ما نحن سوى مأكولين أليفين بالنسبة لهم الآكلين المفترسين!

أطرق سليمان خجلًا ثم ما لبث أن نفض رأسه رافضًا منطقها ومدافعًا عن منطقه:

ـ أنا ما قلتش كدا.. دول بني آدمين ودول حيوانات! دا عالم.. ودا عالم! ما ينفعش نفس المنطق نستخدمه هنا وهنا!

ـ ولِمَ لا؟

ـ إزاي يعني؟ هو إنتِ عاوزة تساوي ازاي ما بين التوازن الطبيعي اللي ربنا خلقه إن القوي بياكل الضعيف علشان القوي هو اللي يعيش وييجي من بعديه أجيال من الأقوياء.. إن المفترس يتغذى على الأليف علشان يعيش زي ما الأليف بيتغذى على الأعشاب والنباتات علشان يعيش ولما كله يموت يبقى غذاء للنباتات والأعشاب دي.. دورة حياة يعني.. مش هي دي دورة الحياة؟

ـ هذا هو تفسيرنا نحن للأشياء.. ثم إن الأمر كما ذكرت لا بد أن يكون متوازنًا، محكومًا بمعايير تنظّمها يد عليا، لا تخضع للأهواء وللفساد وللدمار وللتدمير.

ـ يعني ما فيش حيوانات مفترسة؟

ـ مرة أخرى، هذه تسميتنا للأشياء، مَن ذا الذي أطلق عليهم هذا الاسم؟

ـ إنتِ هتجننيني يا ريحانة؟ هو لما نمر يصطاد غزالة وياكلها، يبقى اسمه إيه؟

ـ اسمه جائع! هل سمعت عن نمر اصطاد غزالة أخرى زائدة بغرض الإبادة أو التسلية أو اختلاف اللون أو العرق أو المكان؟

ران الصمت بينهما ونطقت النظرات عوضًا عن الألسنة.

الأسئلة تضطرم داخله وتتأجّج ولكنها لا تكاد تبرح ذهنه، ربما كان متردد بما يكفي أن يصمت، وهي مترقبة أكثر مما يشجّعها على أن تبتدر الحديث. هكذا وجد سليمان نفسه يتحدث بأفضل ما يمكنه، فرسة الكمان في يد وقوسه في الأخرى وجانب خده ملتصق بصفحة المونتانيانا المخلصة في عشق.

بدأ العزف وقد أغمض عينيه فلم يلحظ أن الحيوانات الموجودة قد بدأت تلوي أعناقها تجاهه كما لو كانت نغماته نداء خفيًّا لا تملك حياله سوى الطاعة والسمع، تمامًا كأسطورة عازف الناي. أما سطح ماء البحيرة فقد بدأ يهتز

ويتماوج في إيقاع مماثل لما تعزفه نغمات سليمان فبدت البحيرة كما لو أنها تتراقص مع النغمات بصورة موجية ثلاثية الأبعاد. راقبت ريحانة كل ما يحدث حولها في ذهول وهي ترى الكون كله طوع نغمات سليمان ومتناغمًا معه بشكل يجاوز الخيال بمراحل عدّة.
ريحانة نفسها قد بدأت تستشعر شيئًا غريبًا يتغلغل داخلها ويستحوذ على مقاليد أمورها، ربما أن خلايا جسدها نفسه قد بدأت تتراقص على نحو ما، تلين وتستطيل وتتمدد وتتشكّل بنسق يسطّره سليمان ويأطُرُه عبر سُلَّم موسيقي هو بمثابة جهاز للتحكم عن بعد في كل الموجودات وهي من ضمنهم.
حتى أغصان الأشجار وحركة النسيم وتمايل الأعشاب بل اهتزاز حبّات الرمل في الأرض.
وحين فرغ سليمان من عزفه وفتح عينيه إذا المشهد كله جامد متوقف كأنما كان يستمد طاقته وحيويته وقدرته على الحركة من طاقة النغمات الكونية الصادرة عن الكمان.
وبعد ما ظنته دهرًا، تغلّبت ريحانة على انعقاد لسانها:
ـ أهذا ما يفعل التعيس جدًّا جدًّا جدًّا فيما حوله؟
ارتبك سليمان وتلعثم وقد أربكه إطراؤها:
ـ إيه؟ هو إيه اللي حصل؟
فغرت ريحانة فاهها مشدوهة وهي تهتف في حنق مصطنع:
ـ ماذا حدث؟! لكأن الكون كلّه كان يأتمر بأمرك يا سليمان!
ـ إزاي يعني؟ أنا أصلي كنت مغمّض عينيَّ زي ما انا متعوّد لما باعزف ومش شايف أي حاجة.. الغريبة بقى في الموضوع إن المرة الوحيدة اللي كنت مفتّح فيها عينيَّ وأنا باعزف هي وأنا باعزف المقطوعة اللي جابتني هنا.
ـ بعض الروعة يحتاج لإغماض العينين، كثير الروعة ربما يحتاج منّا أن نفتحهما ملء محجريهما.
تلعثم سليمان مرة أخرى ثم ما لبث أن قال في خفوت:
ـ ريحانة.
ـ أمر مولاي.
ـ هوّ انتِ ازاي كل كلامك كدا؟
ـ ما قصدك؟
ـ يعني...
ـ لا أفهمك.
ـ يعني...

ضحكت في بهجة مثيرة للبهجة وغمغمت من بين جلجلات القهقهة:
ـ هل يعني الأولى تختلف عن الثانية؟ هل من المفروض أن أدرك ما تعنيه بعد التكرار؟ سامحني يا مولاي ولكن أميرتك المخلصة لم تصل بعد إلى هذا الحد من الشفافية والذكاء!
ـ إنتِ جميلة قوي!
سعلت ريحانة في ارتباك وانتفضت وقد ابتعدت تلقائيًّا فنحّى سليمان كمانه جانبًا واقترب منها وقد أطرقت صامتة.
ـ على فكرة إنتِ أكبر دليل إني بحلم وإن كل دا مش حقيقة.
رفعت رأسها وهي تحدجه في لوم:
ـ كيف ذلك؟
ـ اللي زيك ما ينفعش يكون غير حلم!
نفضت ريحانة الغبار وبقايا الأعشاب عن ملابسها وقد اصطنعت الجدية:
ـ لا بد لنا من المغادرة.. ما زال في الجولة بقية!

* * *

بقايا أبنية متهدّمة، أنقاض متراكمة، أبخرة سوداء تتصاعد من بين شقوق سريّة من أديم الأرض السوداء، بقايا معدنية صدئة هنا وهناك، سماء ملبّدة بالغيوم السوداء وروائح زيوت وأدخنة وغبار وعطن، يتخلّل المشهد بضع بِرَك ضحلة من طين أسود قذر. يكتمل المشهد ببقايا هياكل عظمية متآكلة ومتحلّلة بين الركام.
كأن عاصفة مرّت من هنا، أو قنبلة شديدة التدمير.
كان المنظر متناقضًا في قسوة مع المشهد السابق.
أحس سليمان غصّة في حلقة، وتقلّصًا في معدته، وغثيانًا شديدًا مع رغبة في القيء وإفراغ كل ما في جوفه من تقزّز وتأذٍّ واكتئاب.
نظر لمرافقته في تساؤل، رغم أن المشهد لم يكن يحتاج لأي كلام فهو يشبه كثيرًا كل ما اعتادته عيناه سواء في عالمه حيث جاء أو في المادة الفيلمية التي عرضها عليهم رحيم أثناء الاجتماع. لكن الأمر مختلف بشكل غريب مثير فالاعتياد الذي كان سليمان يستشعره لم يكن اعتياد التكرار، ولكنه اعتياد المعاشرة. إحساس داخليّ يخبره أنه كان هنا من قبل، عاش هنا، ليست هذه مرّته الأولى. هذا مكان اكتسب كل منهما من الآخر جزءًا وتداخلا وتمازجا.
طبيعة سليمان المرهفة الحسّاسة كانت تمنعه من مواصلة المشاهدة أكثر من ذلك خصوصًا عندما تصطدم عيناه ببقايا جثّة أو هيكل عظمي فيشعر في قرارة نفسه أنه يعرفه أو يعرفها. يرى أصحاب هذه الجثث والهياكل في صورهم أثناء الحياة وهي تتبدّل مع صورهم التي هم عليها الآن في تسارع كرفرفة جناحي

عصفور صغير.

الغريب في الأمر أن وصولهم لهذه المنطقة استلزم أن يمرّوا بكيفية شبيهة بمرورهم السابق ولكنه كان يستشعر أن الطريق معروف لديه حتى إن اختلف المشهد ما بين وبين.

لوهلة خاطفة رأى الوجه الضبابي للرجل العجوز الذي لطالما زاره.

وهلة لم تكفِ سليمان أن يتبيّن الأمر.

شيء قابض حزين يتسرّب إلى روحه ويسري من أوردته وشرايينه مسرى الدماء.

أغمض سليمان عينيه وتهدّلت كتفاه وهو يقاوم رغبة القيء المتعاظمة ودوامات من صداع مضنٍ تعصف برأسه الآن. كانت ريحانة تراقب تلك الانفعالات على وجهه وتستشعر ندمًا خفيًّا أنّها قد تسبّبت في كل هذا الألم لمولاها وسلطانها، فابتدرت هي الكلام ملتمسة العذر ومفسّرة ما قد يبدو على سليمان خافيًا ملتبسًا.

ـ القبح هو الوجه الآخر لعملة الجمال.

لم يجد سليمان في نفسه القدرة على الرد وقد تزايدت حدّة المغص، وبدأ يقيء بالفعل.

ـ أنا آسفة.. لم أعرف كم سيكون الأمر قاسيًا عليك هكذا!

بصوت مبحوح لا يكاد يبين فحَّ سليمان:

ـ ليه؟ ليه هنا؟

ـ من هذا المكان بالذات بدأ كل شيء. هذا هو أول مكان ظهر فيه سكان العالم الآخر. من هنا بدأت كل ممارساتهم من قتل ونهب وتدمير واغتصاب وكل شيء.

ـ برضو ليه؟

اقتربت منه في صرامة وهزّته في عنف:

ـ افتح عينيك يا سليمان! قاوم ضعفك وخذلانك! هذه حقيقة! كل ما حولنا حقيقة! قبح، جمال، دمار، عمار، مروج خضراء أو أنقاض سوداء، حيوانات أليفة سعيدة أو جثث مغدورة متحلّلة!

ـ مـ...شش.. قــ...ـــاااادرر.. مــشــشش قااااددددررر..

ـ الأمر في يدك يا سليمان! أنت النبوءة! أنت الملك السلطان ونحن رعيتك التي طال انتظارها لك.. أفق باللـه عليك! افتح عينيك! ليست الروعة فقط ما تستحق أن نفتح أعيننا لها، ولكن أيضًا الخوف والألم والدمار. افتح عينيك يا سليمان لترى! افتح عينيك لنرى جميعًا... أرجووووك!

هدأت نفس سليمان قليلًا مع تزايد نسق تنفسه. صدره يعلو ويهبط وهو يستشعر الألم الشديد في جفنيه وهو يصارع لفتحهما كأنهما بوابة قديمة

صدئة خرِبة تفتح للمرة الأولى حتى ليكاد يُسمع لفتحهما صرير مقيت.

وأخيرًا جدًّا فتح سليمان عينيه وهو يرتجف في شدّة وتصطك أسنانه بعضها ببعض، وجهه ممتقع ومصفرّ كأنه سيغيب عن الوعي. الدوار الأسود يكتنفه وهو يسقط في غياهب دوامة متسارعة من خوف وهلع وألم وتقزّز.

ـ مممششششش قااددر آاااخخخددد نننففففسسسييي..

اقتربت منه ريحانة وقد حوّطته بيديها وأدخلته طواعية في محيط حضنها وبدأت تهمس:

ـ سـ ــلــ ــيــ ــمـ ــا ن

فتح عينيه على آخرهمه وهو يذكر من نطق اسمه هكذا من قبل، ولكن شتّان ما بين وبين. نظر لها في ألم وهو موشك على البكاء. ولأن منظره كان مثيرًا للشفقة وممزّقًا لها، لم تدرِ ريحانة بنفسها إلا وقد ضمّته في حضنها في اكتمال يليق بجلال الموقف ومهابته.

حضنٌ دافئٌ مُطَمْئِنٌ مُشبِع.

هذا هو الحضن الذي يقول كل شيء ويتوقّف الزمن مفسحًا له المجال.

حين بدأ الحضن كان سليمان يرتجف أو بالأحرى ينتفض كأنه موشك على نوبة صرع، ولكنّه الآن هدأ. في البدء كان الدوار، والآن الهدوء والطمأنينة لدرجة أنه أحس جسده مرتخيًا مستريحًا، لكأن النوم يداعبه. كل الأحوال تبدّلت وصارت إلى مآلها الجديد الذي يثبت لنا جميعًا أن طرفي الكون ربما أقرب لبعضهما من دفتي بداية الحضن ونهايته.

في بطء مهيب بدأت ريحانة ترفع رأس سليمان من ذقنه لينظر لوجهها.

عيناه في عينيها.

والوجهان متقاربان.

الشفاه ترتعش مغرية بما هو أكثر، لولا أنه لم يحدث.

ابتعدت ريحانة قليلًا ثم تناولت يده الحرّة وربّتت عليها في رفق.

ـ اسمها أرض اللعنة.

لم يفلت سليمان يده من يد ريحانة وقد بدا له اسم المكان مناسبًا للغاية.

ـ الأمر بيدك الآن. إما أن تعود مملكتنا كما كانت جنّة وإما أن تفنى وتصير أرضًا للّعنة!

جال سليمان بناظريه كأنما يبحث بين مسوخ الصورة الشائهة التي يراها على حلول للمهمة التي وجد نفسه مقحمًا فيها دون سابق تفسير أو اختيار. ثم جالت بخاطره فكرة غريبة، فرفع كمانه واتخذ موضعًا للعزف. راقبته ريحانة في انتباه راجية أن تحدث نغماته تأثيرًا من نوع ما. وما إن أغمض عينيه وبدأ في العزف حتى التمعت السماء بنوبات من البرق، ثم ما لبث أن صمّت آذانهما هزيم

الرعد، ارتجت الأرض كما لو كانت موشكة على زلزال وبدأت دوامة صغيرة من الغبار والأتربة والوسخ والقاذورات في التكوّن في مركز غير بعيد عنهم وبدأت في حركتها الدودية المتماوجة تمهيدًا لإعصار لا تلبث أن تتعاظم وتقترب، تقترب، تقترب.

صرخت فيه ريحانة وقد بدأت كُتل كاملة من الأنقاض في الارتفاع عن الأرض والانخراط داخل دوامة الإعصار الوليدة:

ـ كـــف_____ى.

تردد صدى صوتها عبر الفراغ فبدت كما لو كانت الكلمة تترد المرة تلو المرة فكف عن العزف ليهطل المطر الملوّث وتذوي دوامة الإعصار كأنها دوامة ماء صغيرة في حوض استحمام تبتلعها بالوعة وتسقط كُتل الأنقاض أرضًا في دوي شديدة مثيرة عاصفة مكتومة من الغبار سرعان ما وأدها المطر في مهدها.

ـ لنعد إلى القصر الآن!

هتفت بها ريحانة أخيرًا.

وإذ يتخذان طريقهما آفِلَين إلى حيث قد بدآ رحلتهما لم ينبس أيّ منهما ببنت شفة.

أفكار شتّى تثقل كاهليهما، فريحانة رأت اليوم أشياء لم ترها من قبل، ولم تكن تظن لتراها أبدًا، أما سليمان فقد أدرك أن الأمر جاد حقًّا وليس هزليًّا كما كان يظن.

المسؤولية تبدأ من المعرفة.

والمعرفة ثقيلة إلى الحد الذي ربما لا يكفي لحملها شخصان.

هكذا وضع كل منهما جسده على سريره الخاص به بعدما تسلّلا إلى داخل القصر خلسة من أحد المخارج السرية التي تحفظها ريحانة عن ظهر قلب.

غرفة سليمان لونها أحمر بكل ما تحويه من فرش وستائر مخملية بل لون الحوائط والملاءات والسرير، مجرد تنويعات من درجات الأحمر.

كانت ليلة كابوسية على سليمان بكل ما تحمله الكلمة من معانٍ، لذا كان جميلًا أن يستيقظ في الصباح ليجد نفسه وقد عاد إلى واقعه وغرفته وسطوحه ومرآة حمّامه التي تحمل له دومًا رسالات العالم الآخر له.

كان جسده ثقيلًا جدًّا لذا فقد استغرق بعض الوقت جالسًا على سريره لا ليستريح، بل فقط ليتأكد من أنه في غرفته، هذه كتبه، وهذا سريره الخشن، وهذا الكومودينو المجاور لسريره. أغمض عينيه وفتحهما عدّة مرات ليعود بجذعه للوراء مرة أخرى مستأنفًا الرقود، ولم يلحظ تلك العلبة المخملية الثانية الحمراء التي انضمت لأختها حاملة نقش نغمة ري الموسيقية!

الوتر الثالث

ـ وتر لا ـ

«وقد زاحم الكمان وأسرته سائر الآلات الوترية، وأصبحت لهم السيادة عليها منذ أكثر من قرنين، ولا تنافسه في تلك السيادة آلة أخرى سوى البيانو».

١٧. النغمة المفقودة

ـ إنت فين يا عم جلال؟ أنا بتحصل لي حاجات غريبة قوي، ومش عارف هيّ إيه؟ أنا مش عارف إذا كنت باحلم ولا اتجننت ولا إيه اللي بيحصل؟ آخر حاجة حاسس إن الأيام بتعدي من غير ما آخد بالي منها. جلال.. أنا خايف جدًّا وانت صاحبي الوحيد، أرجوك الحقني! أنا لو ما كنتش مجنون فعلًا، يبقى أنا باتجنن!

جاءه صوت جلال مرحبًا في تثاقل، يتثاءب وآثار النوم بادية عليه، وصوت أنثوي مملوء بالغنج والدلال يسأله عن كُنه المتصل. سأله سليمان في فضول:

ـ جلال.. إنت فين؟ وبتعمل ايه؟

جاوبه جلال بصوت حاول أن يجعله خافتًا:

ـ حدوتة كدا هابقى أحكي لك عليها.

ـ إنت فين يا جلال؟

ـ بعدين يا صاحبي، بعدين.

ـ جلاااال! أنا باتجنن يا جلال! دا حقي عليك! اخلص بسرعة!

جاءه الصوت الأنثوي ذاته يبدي امتعاضًا ويطالب صديقه بإنهاء المكالمة والعودة إلى أحضانها بسرعة لأنها «بردانة» على حد قولها. أحس سليمان أن الصوت مألوف له إلى حد ما. ولكن عقله المشتّت لم يتمكن من استجماع أفكاره للحد الكافي للتذكر. يستوي جالسًا في سريره وهو ما يزال متشبثًا ببقاء الخط مفتوحًا علّه يتذكر. إلا أن جلال وأد محاولاته تلك بأن أعلن نهاية الاتصال معتذرًا:

ـ معلش يا صاحبي.. هاكلمك.. هاكلمك أول ما أخلّـــــ...

كانت «يلّاااا بقاااااا» لحوحة، شبقة، مهتاجة، هي آخر ما وصل لأسماع سليمان قبل أن ينقطع الاتصال.

يضع سليمان التليفون جواره في توتر، ويلقي بجسده خلفًا مرةً أخرى متخذًا وضع الرقود.

كانت لحظة خاطفة.

مجرد لمحة.

فاستوى سليمان مرّة أخرى جالسًا كالملسوع.

فعلى الحائط الذي أمامه مباشرة وجد كتابة مائلة مكتوبة بخط نسخ أنيق. فرك عينيه مرّة أخرى ليتحقّق ممّا يرى.

«حينما تشتد الظلمة ويبلغ السيل الزبى

يأتيكم الملك السلطان وكذلك هو اسمه
بيده الخير كلّه والنغمة المفقودة».

استرجع عقله كل أحداث الحلم/ الليلة السابقة/ تخيّلاته أيًّا كان الاسم.

كم يود لو أن ريحانة معه الآن.

كم يود لو أنه لم يعد من هناك.

هو يجهل كيف عاد وإن صار متأكدًا كيف يذهب.

حاول أن يتصل بـجلال مرة أخرى إلا أنه وجد تليفونه مغلقًا. فكّر أن يهاتف أمّه ولكنها لا تعرف شيئًا عن مقطوعته الغريبة، ولا أحلامه ولا خيالاته ولا ما يحدث له. لا تعرف أيّ شيء عن المملكة ورحيم وريحانة. أحس بالقلق والتوتر وبرغبة عاتية في أن يفرغ مثانته، وربما أشياء أخرى. وما كاد يفعل حتى ازدادت دهشته مرة أخرى فعلى الحائط الصغير للطرقة المؤدية للحمام وجد العبارات نفسها مكتوبة ولكن بخط الرقعة. وفي الحمام، كانت العبارات نفسها مكتوبة على شاشة العرض الرئيسة، مرآة الحمّام، ولكن بالخط الكوفي. راوده خاطر غريب، فاندفع خارجًا من الشقة/ الغرفة، نحو السطح، ليجد الكلمات ذاتها مكتوبة على الحائط من الخارج بخط الأندلس.

نفس الكلمات، أربع مرات، أربعة حوائط، أربعة خطوط مختلفة.

تُرى ما الذي يجب أن يعنيه ذلك؟

ولماذا هذا التنوع هذه المرة؟

تتنوّع الإشارات والعلامات في حياة المرء ولكنه في بعض الأحيان يضل طريقه باتجاه المغزى. الحياة مليئة بالمفاتيح والأبواب المغلقة. تتخذ تلك الأبواب أشكالًا متعدّدة، فمنها ما يكون على شكل أسئلة، وهو الشكل الأعمّ الأغلب، ومنها ما يتخذ شكل المهمة أو المأمورية التي لا تتبدّى مفاتيحها إلا إذا بلغت الذروة المنشودة. يضع المرء لنفسه أحيانًا تلك الأسئلة، ثم يُمضي عمره كلّه باحثًا عن الأجوبة، وربما يجد المرء نفسه في أحايين أخرى مدفوعًا دون إرادة شخصية منه في رحى تلك المهمة المقدسة. كلمات مثل «بيده الخير كلّه والنغمة المفقودة» تُشعرك بوجوبية الاستمرار في الطريق الذي تجهل كيفية الاستمرار والسير فيه.

يتساءل سليمان الآن أيهما المهمة الحقيقية في حياته، هنا أم هناك؟

تُرى أين النغمة المفقودة لأي شيء.. التي تحدثت عنها العبارات الغامضة؟

أين نغمة حسنية المفقودة؟ ملك؟ هند؟ ريحانة؟

بل أمه.. وأخواته البنات؟

أين نغمة جلال المفقودة؟

بل أين كانت النغمة المفقودة بينه وبين علا؟

يدرك الآن أو يعتقد أن ثمّة علاقة بين قدرته المذهلة على العزف، وذلك العالم الغريب الذي ذهب إليه، أو تخيّله؟ يدرك الآن أو يعتقد أن لكل منّا مجرد نغمة موسيقية لها ذبذبتها وإيقاعها الخاص، قد تكون تلك الذبذبة لينة، أو تكون خشنة، عالية أو منخفضة، رنّانة أو مكتومة، وربما تتغير ما بين هذا وذاك حسب المزاج والحالة الشعورية والنفسية. ربما نغماتنا الخاصة هي ما يميّزنا، تمامًا كبصمات الأصابع، وشكل صوان الأذن وخريطة قزحية العين، بل توزيع المسام العرقية في الجلد. أتكون تلك النغمة الخاصة بكل منا بذبذباتها هي ما يطلق عليه الهالة أو الـ«أورا» «aura» التي يتحدثون عنها طوال الوقت؟ ربما هو الآن بصدد اكتشاف خطير ولكنه يجهله... ربما... ربما.

ربما... الكون كله قائم على نغمات موسيقية. وهي التي تحدّد شكل كل شيء ومصيره، فيكون الصالح منّا هو من توصّل إلى نغمته المفقودة الصحيحة وتناغم معها، ويكون المرء المفتقد لتلك النغمة شقيًّا أو شرّيرًا أو بائسًا أو مجرمًا.

يرن تليفونه الآن، فينظر لشاشته «هند يتصل بك».

ما هذه النغمة؟

هذه ليست نغمة تليفونه الأصلية، ما غيّرها، بل مَن؟

اتسعت عيناه في دهشة بالغة إذ يجد تشابهًا كبيرًا بين رنّة تليفونه وتلك المقطوعة الموسيقية التي عزفها للوصول إلى ريحانة والمملكة الأخرى. ولكنّ شيئًا ما يختلف، بالتأكيد هذه مقطوعة أخرى. الرنّة تتواصل لحوحة متصاعدة كأنها استغاثة. ما بين فضوله لسماع بقية المقطوعة الموسيقية، وتحديد أوجه الشبه والاختلاف بينها وبين مقطوعته هو، وبين وجوب الرد على هند التي تتصل به الآن.

في النهاية قرّر أن بمقدور هند الانتظار قليلًا.

توقفت الرنة، وهو لم يهتدِ إلى رنته الجديدة تلك ضمن قائمة رنات التليفون.

يرن التليفون مرّة أخرى.

هذه المرة.. بالرنة العادية... و... «هند يتصل بك».

زمجر في غيظٍ مَن فاتته محطة وصوله، من أقلعت الطائرة بدونه، من أخطأ إجابة السؤال الأخير في مسابقة ذات جوائز مالية ضخمة فخسر كل شيء!

لقد ذهبت الرنة التي كان ينتظرها ولم تعُد ولم يجدها وهو غير واثق إن كان بمقداره تكرارها بنفس النسق.

الآن يفكر ثانية عن وضعية الوهم والحقيقة. هل كانت الرنة الأولى حقيقية؟ أم كانت وهمًا هي الأخرى؟ أين حدود الوهم والحقيقة في كل ما يجري. فكّر أن يتجاهل اتصال هند للمرة الثانية إلا أنه أشفق عليها فرَدَّ لسببٍ من تلك الأسباب التي يجهلها، ولكنها تظل أبدًا تتحكم في مقاليد أموره وتصيّره إلى ما تصبو وتدفعه دفعًا نحو المجهول أو هكذا يظن.

ـ إنت فين يا سليمان؟ بقى لك كذا يوم ما بتردش على التليفون، دايمًا خارج نطاق الخدمة، إنت كويس؟ الفترة اللي فاتت أنا كنت برضو قافلة تليفوني أغلب الوقت.. متضايقة ومكتئبة وقلقانة، كنت محتاجة أتكلم معاك، محتاجة آخد رأيك في حاجات.

تلعثم سليمان وارتبك، تلك الافتتاحية المقتحمة تحمل بين طيّاتها أكثر مما تحمله الكلمات نفسها. سليمان الذي يشعر بالآخرين جيدًا أحس بالقلق والتوتر من تلك الكلمات المتدفقة في انفعال. ما الشيء المشترك بينه وبين هند لتحتاج الحديث معه، بل أخذ رأيه في الأشياء؟ يدرك أن تلك الأشياء هي بذور شجرة كبيرة جدًّا، تنمو في سرعة فتضرب جذورها أعماق الأرض كأنما بدأت قبل خلق الأرض ذاتها، وتمتد فروعها حتى تلامس السماء السابعة. تلك الشجرة حين تروى بذورها فإنها تتحوّل إلى هذا الشكل ربما في اللحظة ذاتها. يدرك أيضًا أن تركه لهذه البذور سيتيح الفرصة حتمًا لهذه الشجرة للنمو. الخير كلّه في وضع الأمور في نصابها الصحيح استباقيًّا.. أن يئد المولود قبل أن يحدث الحمل نفسه.. أن ي...

ـ تعرف إن إيدي اتكسرت؟

جاء صوتها واهنًا للغاية، تمامًا كصوت الأنثى حين ترجو شيئًا.

ذلك الوهن الأنثوي الرائع والخطير في آنٍ معًا هو أكثر الأسلحة الفتّاكة التي يندر من الرجال مقاوموها. مرة أخرى يتلعثم سليمان مرتبكًا. وكان من الحتمي أن ينطق بما هو حتمي فهتف في لهجة صادقة: سلامتك.

كلمة واحدة، ومنطقية للغاية، لكنها جاءت على النحو الذي لم يرغب له أن يكون. قالت في لهجة ممتنة: اللـه يسلمك.

خطر على باله أن يحكي لـهند ما يجري له، فهو أيضًا يحتاج لمن يسمعه ولمن يأخذ رأيه في الأشياء. غريبة هي الأقدار حين تضع في طريقك أحيانًا بعض الأشخاص الذين لم تتوقعهم. بل تتآمر الظروف لتجعل منه الطريق الوحيد الذي يمكن السير فيه. وهكذا أفضى كلٌّ منهما لصاحبه بما يجري له وإن تعمّد إخفاء بعض التفاصيل لا يدري لماذا، هكذا طال الحديث بينهما بعد أن كاد ألا يحدث. وبعد أن فرغ منهما الحكي جاء وقت الرأي، الذي ربما جاء على شكل صمت. يحمل الصمت أحيانًا الكثير من الكلام، ولكن كثيرًا من الكلام لا يمكن استنتاجه على الوجه الصحيح. الصمت كتلك القشرة الرقيقة من الثلج التي تغطي سطح بحيرة جليدية، يحتاج فقط لمن يكسره، ولو بوطأة قدم، أو حصا لا وزن لها واقعيًّا.

ـ طب انتَ، يعني، آسفة.. بس انتَ متأكد؟

ـ قصدِك باخرّف يعني؟ هو طبعًا احتمال.. أنا مش متأكد من حاجة.

ـ طب والموضوع دا محتاج لإيه؟ دكتور مثلًا؟

ـ هههههه.. كدا يبقى قصدك إني اتجنّنت!

ـ لا.. لا.. إخص عليك يا سليمان! إنت أعقل واحد في الدنيا.. بس جايز يكون إرهاق، كتر تفكير، أحلام قوية.
ـ .....
عمّ الصمت ثانية.
فاستطردت هند فيما يشبه الاعتذار:
ـ سليمان.. إنت زعلت؟
ـ لأ!
ـ أمال ايه؟ سكِتّ ليه؟
ـ بافكّر!
ـ في إيه؟
ـ كلامك!
ـ وهو كلامي فيه إيه يستحق التفكير؟
ـ الموضوع كلّه من أوله لآخره يستحق التفكير!
ـ طب إنت رأيك إيه؟ أسافر ولا لأ؟
اغتصب سليمان ضحكة قلقة وقال:
ـ هههه.. بتغيري الموضوع علشان حاسّة إنك ضايقتيني؟
ـ يعني... بس.. أنا فعلًا محتاجة رأيك.
ـ ماشي يا ستي.. أنا شايف إنك تجربي، مش هتخسري حاجة، ولكن المهم هتعملي إيه مع أبوكِ؟
ـ ما اعرفش، بس حاسّة بإحساس غريب إن الموضوع اللي حصل بيننا غيّر فيه حاجة، حاجة جواه اتهزّت لما رحنا المستشفى وما رضيتش أقول ان هوّ اللي كسر إيدي، ما اعرفش يا سليمان. على فكرة بابا كان حنين قوي، أنا نَفسي حاسّاني متغيّرة وقادرة على حاجات ما كنتش أقدر عليها قبل كدا، هاحاول وأشوف ما دام إنت رأيك إن السفر دا حاجة مفيدة ليَّ.
ـ تمام.. أنا برضو كدا شكلي لازم أحاول وأشوف موضوع المملكة بتاعتي دي إيه ما دام لسا مش متأكد إني اتجننت.
ضحكت هند فأصابت سليمان عدوى الضحك منها. ضحكا كثيرًا إلى حد القهقهة رغم أن ما قيل لم يكن يستحق حتى الابتسام. إلا أنهما كانا كمن يفرغُ شحنة القلق والتوتر داخلهما بالضحك.
ـ سليمان.
ـ نعم..
ـ ممكن أسألك سؤال؟

ـ أكيد..
ـ هي ريحانة دي بتاعة المملكة التانية شبهي قوي؟
ـ جدًّا! أكتر مما تتصوري!
ـ وحلوة؟
ـ أفندم؟
ـ قصدي يعني وهي لابسة أميرة وكدا.. كانت حلوة؟
ـ .....
كم هو قاسٍ الصمت في كثير من الأحيان. هكذا يدرك المرء أن أصدق الإجابات تأتي أحيانًا على شكل صمت. كغريق يقاوم حتى الرمق الأخير، استطردت في قلق:
ـ هترجع لها.. قصدي لهم؟
ـ ما اعرفش.. بس حاسس إن الموضوع دا مش بإيدي، حاسس كدا إنه قدر ومكتوب عليَّ، وإني ما ليش سيطرة عليه.
ـ يعني لو حبيت تروح دلوقتي كل اللي هتعمله إنك تعزف المقطوعة الغريبة دي؟
ـ المفروض.
ـ سليمان.. هو أنا ممكن أكون معاك مرة وانت بتعمل حاجة زي دي؟
ـ ده على افتراض إنه حقيقة أصلًا.
ـ كلامك عن اللي حصل هناك زي ما يكون حقيقة يا سليمان، على فكرة الحقيقة هي الحاجة اللي الواحد بيكون مؤمن بيها قوي ومصدقها، علشان كدا عمر الحقيقة ما كانت حاجة واحدة.
ـ لأ طبعًا.. الحقيقة دايمًا بتكون حاجة واحدة! وجهة النظر أو الرؤية هي اللي ممكن تختلف من حد للتاني.
ـ بس اللي جرى دا بالنسبة لك حقيقة، صح؟
ـ صح.
ـ يبقى هو كمان حقيقة بالنسبة لي.
ـ ...
صمت جديد وفشل آخر في الرد، قطعه سليمان هذه المرة مستأنفًا الرد على سؤال سابق.
ـ امممم.. ما اعرفش يا هند.. ما اعرفش إذا كان دا ممكن. وما اعرفش إذا كان دا مسموح. الطريق اللي بيتفتح دا ما بيكونش حقيقي، بيكون زي نفق كدا على شكل دوامة من نور صافي ومبهر، وزي ما أنا باتحرك وباقرّب من المملكة، زي ما

باحس إن المملكة بتقرّب مني. أنا بس اللي باشوف الكلام دا وأتحرك فيه.
جاء رده مخيّبًا بعض الشيء وأعادها مرّة أخرى إلى عالمها الواقعي، فغمغمت بأسى:
ـ آسفة.. ما كانش قصدي إني أقتحمك كدا.
ـ أنا اللي آسف يا هند إذا كان ردي قليل الذوق أو ضايقك.
ـ واضح بقى إن الوقت اللي بتروح فيه دا هو اللي بيكون تليفونك فيه خارج نطاق الخدمة. وواضح كمان إن الوقت هناك بيمشي أبطأ من هنا بكتير بدليل إنك لما بترجع بتلاقي إنه عدّى كذا يوم هنا رغم إنه بيكون يوم واحد هناك! وإنك لما نمت صحيت لقيت نفسك رجعت هنا، يعني بتروح بمقطوعة وترجع بنومة!
ـ صح جدًّا! براڤو عليكِ! أوّل مرّة أفكّر فيها كدا! واضح فعلًا إنه لازم الواحد ياخد رأي حد غيره علشان يفكّر معاه.
ـ خلاص! خليني أنا للتفكير.. وروح إنت شوف مملكتك بيحصل فيها إيه يا سيادة السلطان!
ـ هههههه.. إنتِ صدقتِ حكاية السلطان دي؟ واللـه ما أنا عارف حاجة، أهي حكاية السلطان دي أكتر حاجة مخلياني خايف ليكون الموضوع كله تهيؤات!

١٨. للنشاز أيضًا نغمة

ضع نقطة من ذلك السائل الأزرق على ذلك الأصفر، ما النتيجة؟ أجل، سيصير لون السائل أخضر. أجل، نقطة واحدة من ذلك السائل الأزرق شديدة التركيز، بالغة التأثير، حوّلت سائلًا آخر إلى لون جديد كلية.

هكذا نظرت حسنية إلى ماكينة الـسرفلة التي تعمل عليها لتدبير متطلبات معيشتها وأخيها محمود، وقرّرت أنها لا يجب أن تستسلم لهكذا حياة. الشجرة المجدبة أورقت وأزهرت وصارت تنتظر الثمر بشغف غير مسبوق. صارت الآن راغبة في الحياة وباحثة عن سبله بأي طريقة كانت وفي أي اتجاه. تذكّرت فقدانها لوالديها في رحلة الحج، حينها أخبرها العديد من الجيران أنها تحتاج لرفع قضية تعويض على الشركة المسؤولة عن التنظيم، وأنه من الممكن أن تحصل على تعويض سخيّ فهي لم تفقد شخصًا واحدًا بل اثنين، وليسا أي شخصين، بل والديها والعائلَين الوحيدين لها ولأخيها المعاق. أي قاضٍ سيتعاطف بشدة مع حالتها وسيحكم لها بالتعويض المناسب. أشاحت حسنية بنظرها عن ماكينة الـسرفلة واتجهت صوب الغرفة الداخلية حيث يتحرك صدر محمود في بطء شديد صعودًا وهبوطًا أثناء نومه الذي لا يلبث أن تتخلله بضع حركات لا إرادية أو أصوات عدم انتظام تنفس يقطع شخيره العالي المستمر. تذْكُر حسنية أنه في هذا الوقت كانت بالضعف الذي لم يمكنّها من المضي قُدُمًا مدفوعة بنصائح الآخرين، أما الآن...

الأمر متغير فهي تستشعر في نفسها تلك القوة الخفية التي تدفعها للذهاب حتى آخر الكون لتحقّق مأربًا ما أو الوصول لهدف تبتغيه.

تذكر الآن تلك البطاقة الصفراء الصغيرة التي تحتفظ بها منذ اليوم المشؤوم. لا تذكر جيدًا أين وضعتها، ربما في أحد أدراج التسريحة الوحيدة بالمنزل، أو ربما درج الكومودينو، أو...

أخذت تبحث عنها في اهتمام مفاجئ حتى عثرت عليها أخيرًا وبدأت تقرأ في صوت هامس «مكتب السعيد للمحاماة والاستشارات القانونية ـ هدفنا رعاية مصالحكم» وبخط رفيع تحتها «تعويضات ـ عقود ـ توكيلات ـ أحوال شخصية ـ شركات وبنوك» وأخيرًا جدًّا رقم تليفون محمول. أخذت تقرأ البطاقة عدة مرات وترددت أناملها على أزرار تليفونها المحمول، موشكة أن تفعل ما لم تفعله لسنوات، لولا سليمان الذي حوّلها إلى ما هي عليه الآن. ذلك الذي جعلها تبحث عن بطاقة صفراء كانت مخبوءة منذ زمن سحيق في أحد الأدراج غير المطروقة بالشقة الصغيرة المتواضعة. كانت تود دومًا لو أن بحياتها أحدًا ما

لاستشارته. وهكذا وجدت نفسها ثانية تفكر في الشخص الوحيد الذي صار من الممكن أن تفكر فيه وتستشيره. ذلك السائل الأزرق شديد التركيز الذي غيّر حياتها في لحظة غير عادية. استشعرت قلقًا مفاجئًا إذ تذكر الآن أنها لم تره منذ عدة أيام، لا صاعدًا ولا هابطًا، وأنها ما عادت تسمع عزفه على الكمان، وأنها لم تشاهد له أثرًا طوال تلك المدّة. أيكون من المقبول أن تصعد إليه؟ أيُعقل أن تتخلّى عن حذرها وخجلها، وربما أدبها والأصول والعُرف والتقاليد؟ أهو نوع من الاشتياق لرؤيته؟ لسماع صوته؟ للحديث معه ولو لغوًا؟ ازداد قلقها واضطرابها وهي تفشل المرّة تلو الأخرى في تسمية الأشياء، وتفسير المشاعر والأفكار. اهتزّت البطاقة في يدها لتسقط أرضًا، لتزدرد لعابها في صعوبة وقد أحسّت حلقها جافًّا.

أين هو؟

أين أنت يا سليمان؟

ماذا أفعل يا سليمان؟

الآن يبدو أنها قد حسمت أمرها بالصعود إليه، فاستعادت البطاقة التي سقطت منها أرضًا، وتوجهت نحو الباب ففتحته. إلا أنها توقفت لوهلة، تاركة الباب مفتوحًا، وعادت مرة أخرى إلى تلك المرآة الكبيرة فوق التسريحة لتنظر لنفسها. وجدت أن ملابسها متسخة، ووجهها مرهق شاحب، وعينَيها ذابلتان. تشممّت نفسها في قرف شديد. هكذا اتخذت طريقها مرة أخرى لغرفة نوم محمود تطمئن على نسق نومه، ثم تعود مرة أخرى إلى غرفتها لتفتح دولاب ملابسها وتنتقي منه غيارًا جديدًا وجلابية نظيفة ذات ألوان مبهجة من الساتان اللامع، وفي ثوان كانت تستحمّ وهي تردد نفس اللحن الذي تجهل اسمه في صوت مسموع.

الماء البارد دغدغ جسدها البض، وإحساسها أنها قد استعادت بعضًا من جرأتها، وأنها لا تعبأ بما سيقوله الآخرون، لأن الآخرين باختصار ما عاد لهم حساب أو خاطر، كل هذا ملأها بالنشوة العابرة، وربما...

ربما...

بعض من سعادة!

سعادة؟!

آه يا حسنية...

أكَتَب اللـه لك نصيبًا من سعادة بعد كل هذا الشقاء؟

لا تدري كيف تذكرت الآن مقولة تجهل من قالها «لقد خلق اللـه المعاناة حتى تظهر السعادة من خلال نقيضها. فالأشياء تظهر من خلال أضدادها». كيف لعقل حسنية البسيط أن يتذكر عبارة معقّدة كتلك؟

تستمر في دندنة لحنها المميّز، إلا أنها توقفت فجأة وانتفضت ورغاوي الصابون

ما زالت على وجهها وتشوّش رؤيتها، إذ استشعرت حركة غريبة بالخارج. تذكّرت أنها تركت الباب مفتوحًا فأحست بندم رهيب. تساءلت هل من الممكن أن محمودًا قد استيقظ؟ ولكنها استبعدت هذا الخاطر مباشرة، فهي تعلم أن محمودًا إذا ما استيقظ فإن أول ما سيفعله حتمًا هو أن يناديها، وهو ما لم يحدث؟ كما أن محمودًا لا يملك القدرة على الحركة بهذه الليونة واليسر، ناهيك بالاعتماد ذاتيًّا على نفسه للحركة والخروج من الغرفة.

هل تصرخ؟

بعصبية وقلق مسحت بقايا رغاوي الصابون عن وجهها، وتركت ماء الدش ينهمر دون جسد تحته. ارتدت منشفة كبيرة غطت بها نفسها واندفعت للخارج في سرعة شديدة وقد تسارعت نبضات قلبها وأحست بالخوف والوجل. أيعقل أن يكون مَن بالخارج سارقًا مثلًا؟ أم...

هنالك ندت منها صرخة عالية.

صرخة ترددت في أرجاء العمارة كلها.

وقفت إذ ذاك وجسدها كله يرتجف، فرائصها مرتعدة، والماء يقطر من جسدها وشعرها اللذين ما زالت بقايا رغاوي الصابون تغطي أجزاءً منهما. كوّرت قبضة يدها في آلية، بينما تشبّثت الأخرى بطرف المنشفة لتحكم لفّها حول نفسها ولتحول دون أن تخاتلها المنشفة فتسقط عن جسدها كاشفة منه أكثر مما هو مكشوف الآن.

تمالكت حسنية نفسها بعد صرختها الحاسمة ومتحفزّة في شدّة وهي تنظر لذلك الشخص الآخر الذي سمّرته المفاجأة أيضًا، ولكن على نحو مغاير.

فها هو الآخر يقف أمامها الآن وقد غزاه العرق الغزير، وجفّ حلقه، وتقلصت معدته، وانتصب ما بين فخذيه انتصابًا مؤلمًا.

كان ما يبين من جسد حسنية المرمري، ورائحة الصابون الطازجة التي تفوح من تلك الثمرة السماوية المشتهاة أكثر مما يحتمل.

أيصارحها أنه يراها هكذا في أحلامه؟

على نفس هذا الوضع وبنفس هذه الكيفية؟

أيقول لها إنه، بالرغم من زوجتيه، يحلم بها ويحتلم أيضًا حتى يبلّل فراشه وملابسه؟

أيقول لها إنها الآن أشبه ما تكون ببطلات أفلام مراهقته، اللائي ما زال وهو على وضعه وسنه هذين يجد بعض المساحة لرؤية مزيد منها؟

لم يدرِ بنفسه إلا وهو يقترب منها في حذر، ناسيًا الاجتماع الذي قدم منه لتوّه، والخطَة، والصعود، والمركز الاجتماعي، والسمعة، وصورته التي يريد أن يقنع الآخرين بها ليحقّق مأربه. نسي فتاواه وصلواته وإمامته للبسطاء في المساجد.

نسي كل شيء وهو يقترب كالمنوّمين من أكثر إناث الأرض فتنة وإغراءً بالنسبة له. لا يملك حيال نفسه أيّ شيء، هي إرادة ذاتية لا تخضع له بأي حال من الأحوال. العينان متسعتان كأنهما يلتهمانها حيّة، والأصابع المرتعشة المتردّدة تسبق الجسد الجائع في نهم. يبلّل شفته بطرف لسانه الجاف ويزدرد لعابه في صعوبة بالغة. يأتيه صوت حسنية الحاسم، والخائف معًا:

ـ إنت اتجننت ولا إيه يا واد؟! إنت اتهبلت؟! أخرج برّا لاحسن أصوّت تاني وألِم عليك الناس وتبقى فضيحتك بجلاجل يا ابن نرجس! انت نسيت نفسك ولا إيه يا نجس؟!

كان هجومها عنيفًا وألفاظها حادة ونظراتها خشنة متحفّزة، ولكن منذ متى توقف ذئب عن الاقتراب من فريسته لأن الفريسة تزعق أو تغضب؟

لم يتوقف نادر عن الاقتراب من حسنية حتى كاد يمسّ جلدها العاري أعلى الصدر بأطراف أنامله.

ترتعد حسنية الآن أكثر وقد ألجمتها قدرته على المواصلة والاقتحام على هذا النحو.

فكرّت في معاودة الصراخ والاستغاثة، إلا أن صوتها جاء مرتعدًا وهي تهدد مرة ثانية:

ـ هاصوّت يا نادر! اخرج برّا يا مجنون! والله العظيم هاصوّت يا نادر! اخرج برّا الله لا يسيئك! اخرج برّااااااا...!

أخيرًا جدًّا ينطق الذئب الجائع فيما يشبه التضرع، وقد صار انتصابه مؤلمًا لدرجة غير محتملة:

ـ بـ.. بـ... بــــ... باحبّك.. باحبّك يا حسنية.. طـطـطول عععمري باحبّك.. أنا عايزك يا حسنية! عايزك قوي! عايززززك...!

يضع الآن يده على كتفها العارية ويلعق شفتيه بلسانه مرة أخرى ونظراته مثبتة على نصفي الكرة الناضجتين اللذين يبين أعلاهما متجاوزًا الحد الأعلى من المنشفة الملفوفة.

تتراجع حسنية كالملسوعة، حتى أوشك نادر أن يقع، إذ كان على وشك أن يتكئ عليها بجسده المتداعي الآن تحت تأثير الشهوة العارمة.

الآن تصرخ حسنية وقد أدركت أنه لا عقل هناك تخاطبه، ولا منطق يمكنها أن تتفاهم معه به:

ـ يا خللق... يا هوووو... الحقووووني.. غيتووووني... يا سليمااان.. يا أم عبدالرحماااااان... يا حاااجّة.. يا جدعااان... غيتوووني.. الحقوووني.. يا أم زيااااد.. الحقوووواا.

بعصبية شديدة، انقض عليها نادر يكمّم فمها، ويحتضنها في قسوة وعنف.

تتملّص منه، تحاول أن تصرخ ثانية، لكن كفّه المتعرقة المتوترة كانت مطبقة بقوة على فمها فلا يند منها سوى بضع همهمات لا تصل إلى أذنها هي شخصيًّا.
ـ باحبّك! وطول عمري باحبّك! إنتِ بتاعتي يا حسنية! فاهمة يعني إيه إنتِ بتاعتي؟
يحتضنها الآن في قوة أكثر، تضعف قبضتها عن الملاءة، ينحسر جزء منها، كاشفًا عن أرض جديدة يتوق إلى وطئها. يقترب بوجهه ولعابه الذي يسيل بين شدقيه وأنفاسه اللاهثة جهة وجهها، فتستشعر تقزّزًا رهيبًا ورغبة عارمة في القيء. يقبّلها قُبلة عصبية في خدّها الأيمن وهي تحاول في قلّة حيلة أن تشيح بوجهها بعيدًا. يلتصق بجذعه بها، يقرّبها منه أكثر. يلصق أسفله بأسفلها ويبدأ بالضغط والاحتكاك بها في جنون. تتسع عيناها في هلع إذ تستشعر ذلك التصلّب الرهيب وهو يضغط على ما بين فخذيها بلا شرعية ولا استئذان.
ترغب الآن حقًا في قتله.
في الهروب والتملّص من اعتصاره القابض على جسدها ولا تملك منه فكاكًا.
تتحجّر الدموع في مقلتيها والثور الهائج مستمر في حكّ نفسه بها.
تتقزّز أكثر فأكثر وقد اتخذ من وجهها مرتعًا للعابه ولسانه وشفتيه. يد على فمها تحكم الغلق، والأخرى تجوس في جسدها تهصرها وتعتصر ما لا يملك له حقًّا، ولم يستطع من قبل إليه سبيلًا.
يرتجف جسدها في شدّة مواكبة لتلك الارتجافة المتعاظمة التي بدأت تشمل جسده مصحوبة بتلك الدفقة من ذلك السائل الدافئ الذي تشعر به أعلى فخذيها.
الآن فقط يفلتها وقد وصلت شهوته الذروة، ونال شبقه الذي كان يرجوه.
الآن فقط يستعيد بعضًا من عقل ويتراجع عنها وعن جسدها.
أعلاها يلوّثه لعابه وبقايا شفاهه ولسانه، وأسفلها يلوّثه سائله الأبيض الدافئ اللزج.
أما كل موضع لأنامله على جسدها فقد صار ينضح نارًا كأنها ثقوب من جهنم.
الآن تفقد يدها السيطرة على المنشفة التي أحاطت بها نفسها طول الفترة الماضية، فيسقط منها ما يسمح بكشف ثديها الأيمن كاملًا.
يشيح عنها نادر في هلع وهو ينظر إلى تلك البقعة الدافئة التي تبلّل ملابسه هو ما بين فخذيه. لا ينظر إلى ثديها العاري الذي لطالما حلم به في لياليه المسهدة. وحين يرفع نظره، ينظر مباشرة إلى وجهها، حيث نجحت الآن الدمعة المتحجرة في الإفلات من أسرها، هابطة عبر خدّها ومختلطة ببقايا لعابه على جلدها الناعم البضّ.
لا يتمكّن من تفسير نظراتها له جيدًا. أهو لوم، أم غضب، أم حزن، أم ماذا؟

يتلعثم وينعقد لسانه إذ يحاول أن يغمغم معتذرًا وهو موشك على البكاء:
ـ أنا.. أنا.. أن... أنا آسف يا حسنية... أص... أص... أصلك حلوة.. حلوة قوي.. أحلى حاجة في الدنيا.. وأنا قدامك ضعيف.. ضعيف قوي.. إنتِ الحاجة الوحيدة اللي بتخليني ضعيف يا حسنية.. إنتِ الوحيدة اللي ما باقدرش أمسك نفسي قدامها.. أنا عايزك.. أنا باحبّك.. أرجوكِ اتجوزيني.. أرجووكِ.. أنا عايززك.. وباحبّك.. باحبّك قوي.

على الرغم من جسدها الذي يرتجف في شدّة، وتلك الرغبة المتعاظمة للقيء، وإحساسها بالنجاسة والقرف والرغبة في أن تسلخ جلدها للتخلص من أي أثر له عليه، فإنها تماسكت وحوّلت غضبتها وقرفها واشمئزازها وكل ما يعتمل داخلها إلى بصقة!

بصقة كبيرة، هائلة، قويّة، محمّلة بكل المشاعر التي تشعر بها حيال الذئب الخسيس الذي انتهكها وانتهك حرمتها منذ برهة.

بصقة اخترقت المسافة بينها وبينه لتستقر كاملة غير منقوصة على وجهه وذقنه وجزء من شاربه.

بصقة لخّصت كل ما يمكن أن تقوله، أو تفعله.

لا تنكر أنها فكّرت الآن في أن تستحضر سكينًا ضخمة من المطبخ الذي يجاورها الآن لترشق نصله في صدره، موضع القلب تمامًا حتى تخرجه من ظهره، من الجهة الأخرى، ولا تتركه إلا بعد أن تتأكد من أنها قد خلّصت البشرية كلّها من هذا المنافق النجس المملوء بالخزي والعار.

إلا أن هذه البصقة كانت كافية بالنسبة لها.

شافية لحد لا تتخيّله.

كاملة بطريقة لا يمكن تصديقها.

هي الآن تشعر نحوه بالشفقة.

بالقرف.

بالاحتقار.

تراه مريضًا يحتاج إلى علاج مكثف.

ـ امشي يا نادر من هنا وما اشوفش خلقتك تاني!

سكتَت لوهلة، ثم نظرت له في قسوة وقد رفعت شفتها العليا علامة الاشمئزاز:

ـ عليَّ الحرام من نعمة ربي لو لسانك دا خاطب لساني تاني! ولا شفت خيالك ولو صدفة! ولا حتى سمعت صوتك بالغلط لأكون دابحاك بسكينة المطبخ الكبيرة! عارفها يا نادر! سكينة المطبخ الكبيرة اللي كانت عند أمّي وأمّك؟ عارفها؟ هي دي يا نادر! وأقسم باللـه.. أقسم باللـه مانا عاتقاك ولا سايباك إلا

مدبوح على راس الحارة!
لملمت حسنية شتات نفسها، وأحكمت المنشفة على جسدها مرة أخرى ساترة ما ظهر منها فيما سبق، لتستأنف تهديدها ووعيدها المغلّظين:
ـ إنت لسّاك هنا يا ابن الكلاب؟ إنت ايه عايزني أعملها بجد دلوقتي ولا إيه؟ أسفوخس عليك وعلى اللي جابتك... اخرج برا يا كلب يا ابن الكلب... برررررااااا.
كان صوتها حاسمًا، ولهجتها شديدة صارمة، فارتجف نادر وبدأ يتراجع في خزي وإحساس شديد بالذنب والندم يملآنه. تراجع وهو مطرق في الأرض يجرجر أذيال الخيبة والهزيمة وبعض من دموع تخاتله فتندلع.
صحيح أنه قد نال شبقه وأفرغ شهوته.
إلا أنه قد نال أقسى وأقوى درس في حياته.
يذكر الآن صفعات والده له وهو صغير حين يخطئ.
يتحسّس موضع صفعات والده، فيجد الآن مكانها لعاب حسنية وآثار بصقتها.
يخرج سلسلة مفاتيحة في اضطراب لتسقط منه أرضًا.
يرتعش جسده وهو ينحني لالتقاط السلسلة من الأرض، حتى يفاجئه آخر شخص كان يود أن يراه الآن وهو ينحني ويسبقه للسلسلة، ثم يصعدان بجذعيهما معًا لتتلاقى الأوجه وتمتد يد الآخر إليه بسلسلة المفاتيح.
ينظر له نادر في قهر وألم متذكّرًا أن حسنية لم تنطق سوى اسمه في استغاثتها مصاحبة لأسماء زوجتيه.
تتلاقى عيونهما في لحظة خاطفة فيستشعر سليمان في عيني غريمه الهزيمة والألم. في صدق يسأله:
ـ إنت كويس يا حاج نادر؟
تصلبت يد نادر وهو غير قادر على الرد، يلتقط سلسلة المفاتيح وهو يغمغم غمغمة غير مفهومة، ويشيح بوجهه عن سليمان محاولًا فتح الباب لولا أنه حاول بالمفتاح الخطأ.
مفتاح.. ثم آخر.. حتى وصل إلى المفتاح الصحيح ليجرّ جسده جرًّا للداخل ململمًا أذيال خيبته، غير مبالٍ بغمغماته غير المفهومه، ولا نظرات محدِّثِه المتسائلة عن حاله. وبعنف يصفق الباب خلفه في قلّة ذوق.
من خلف الباب المغلق، يستمع لصوت خطوات سليمان التي تقترب من باب شقة حسنية الذي ما يزال مفتوحًا. يأتيه صوتها الباكي تستغيث بـسليمان وتستنجد به. يأتيه صوت بكائها وهو يدرك أنها الآن قد ارتمت في أحضانه. يدرك الآن أن سليمان يضمّها في حنوّ لم يقدر هو أن يقدّمه.
يدرك الآن أن للناس نغماتهم الخاصة.
وربما العازف الشاب هو نغمة حبيبته حسنية التي ظلت تبحث عنها.

ووجدتها.
ربما هو بالنسبة لها، مجرد نغمه نشاز لا تتوافق معها ولا تناسبها.
ولكن منذ متى كان كل ما نسمعه بلا نشاز؟

١٩. قل-ق وت-ردد

الفرص في الحياة شيء مراوغ، ربما لأن تعريفها وتصنيفها يختلف من شخص لآخر، ربما لأن الفرص تتغيّر وتختلف بتغيّر واختلاف المُقدّم والمُستقبِل. فرصة فلان قد لا تكون مناسبة لعلّان، بل ربما لا يراها من الأصل. ما يجده البعض خيرًا مستفيضًا، يراه الآخرون شرًّا مستطيرًا. يقفز المرء لسفينة يحسبها النجاة، فيقفز الآخر منها وهو على يقين أنها المُغرقة. حسابات لا تتشابه، وظروف لا تتماثل، وشخوص لا تتساوى، والأمر كلّه مخاتل ككثير من معطيات الدنيا.

هكذا رأى الشاعر الشاب في مضيّفته الأربعينية فرصة مواتية.

وجدها سفينة نجاة، ولو مؤقتة، أو حتى غير مؤكّدة.

الأمر بدا كالصفقة، فالطرفان في المسأله لديهما ما يمنحان، ولديهما ما يحصلان عليه.

هي لديها المال، وربما النفوذ، وقدر لا بأس به من علاقات يطلبها جلال حثيثًا، فقد تشتري له ملابس، قد تغدق عليه من العطايا، وقد تؤمن له فرصة عمل أفضل من بائع ملابس مغترب، يعيش على الكفاف، بل ما هو أقل.

وهو لديه الشباب، والفتوّة، وقريحة من موهبة تلامس هوًى من نفس نرمين المطلّقة الفاتنة التي لم يذو جمالها بعد وهي قد جاوزت الأربعين بتأثير من طبيعة واهتمام وبعض التدخُّلات الخارجية المحترفة التي تجعلها متشبثة بسن ليس لها، وتدّعي ما لم يكن فيها.

بعض الصفقات تتم دون الإعلان عنها، وفي حالتهما تلك، كان من الأجدى عدم الإفصاح، رغم القبول والإيجاب المتبادل بين الطرفين. ورويدًا رويدًا، تحوّل جلال لأحد مقتنيات فيلّا مدام نرمين، فلا يغادرها إلا لمامًا، حتى استقر به الأمر بترك محل الملابس انتظارًا لفرصة العمل التي وعدته بها في شركة أحد معارفها.

أما الشاعر الشاب، فلم يجد فيما يفعله غضاضة أو تعارض مع مبادئه أو أخلاقه، ربما لأنه يتشكّك في وجودهما لديه من الأصل. يرى جلال أنها رفاهيات، كماليات، أشياء لا لزوم لها لشخص مثله لم يجد من الحياة ما يعضّد موقفهما عنده. المبادئ والأخلاق تُميتُها الحاجة في أحايين عدّة. وربما جلال الشاعر الموهوب البسيط الحال هو أحد هذه الأمثلة. ما جدوى المبادئ والأخلاق حقًّا لابن عائلة فقيرة لا يرتبط بها إلا بالاسم فقط؟ أب مكدود مختفٍ، وإخوة لا يعلم عن أحوالهم شيئًا، وأم بطبيعة الحال ترهلت وأثقِلَت وصارت موجودة في هذه الدنيا للدعاء وإعداد الطعام لا غير.

ما جدوى بعض الأشياء لمفتقد كل الأشياء؟

تحوّلت نرمين بمرور الوقت إلى حبل سُرّي يرتبط به جلال، لا يدري لفكاكه توقيتًا، وهو خائف من فكاك كهذا. اعتياد الأشياء الجديدة أمر مخيف لأنه يدفع المرء لخشية العودة للماضي الذي هرب منه للحالي، ويخشى زوال ما اعتاد عليه، ويخاف المستقبل الذي لا يبدو واضحًا أو جليًّا بأي شكل من الأشكال.

القلق والتردد صنوان لا يفترقان ولا يعني التردد اعتياد النكوص ولكنه يعني اصطراع التساؤلات قبل حسم الأمور والتقرير بل ربما إكثار التساؤل بعد اتخاذ القرار، تمامًا كمن يعزف على الوتر الحساس لآلة مرهفة هي نفسه، يخشى إن جاءت نغمته نشازًا أن يهدم ذلك اللحن من أساسه، لكنه لا يملك رفاهية عدم العزف عندما تكون الفرصة مواتية. ربما لأنه عندئذٍ قد لا يهمّه إن جاءت نغمته نشازًا، أو حتى انقطع وتره الحساس الذي كان يحرص عليه أيّما حرص، فالفرصة جاءت، وهذا يكفي.

جلال؟

ما جلال؟

ما الذي جاء به إلى هنا حقًّا إن كان بالأمر تساؤلات بلا أجوبة؟

حسنًا! يستيقظ المرء في الصباح على سرير وثير، يجد إفطارًا شهيًّا، وما يشربه أيًّا كان، ومخزونًا لا ينضب من السجائر النظيفة تلك التي لا يسعل المرء بعد تدخينها دون علّة! ينزل الماء على جسده بالقوة ودرجة الحرارة التي يطلبهما إذا ما عنّ له ذلك لأي غرض كان، «الريموت» في يده والعالم مفتوح على مصراعيه أمام عينيه، يفتح دولاب الملابس ليجد قمصانًا جديدة ورائحة مثيرة تفوح من بين الطيّات، بذلات لم يرتدِها أحد قبل الآن، جوارب مغلّفة بالسولوفان المخصوص من الحرير الطبيعي، رابطات عنق على كل شكل ولون، أطقم لأزرار الأكمام ودبابيس رابطات العنق. لكن كل هذه الأشياء ما زال يصاحبها القلق، ويغلّفها الخوف والذعر. النعيم بلا أمان مرّ طعمه، إلا كونه لحظة تمرّد على كون اعتاد قذف الفُتات في وجهك بلا شبع. إذ يهاب الجنين ذلك الحبل السُرّيّ الموصول بالحياة لأنه يهدده في أي لحظة بالانقطاع. أن ينضب ويجفّ المعين. ماذا لو توقّف وحيه وكفّ عنه شعره؟ ماذا لو أنه لم يتمكن ذات يوم من تلبية رغبات المدام جسدية كانت أم معنوية؟ ما المصير؟ وهل ثمّة عواقب أخرى؟

لحظات كتلك لشاب كـجلال كانت أشبه بربح رحلة مجانية إلى فندق من ذات النجوم الخمس بنظام الإقامة الشاملة.. تكاليفه مغطاة بالكامل.. كم حلم هو بذلك السوار المطّاطي على معصمه الذي يعني كم هو مميّز واستثنائي! كم أن كل شيء مباح ومفتوح ومتوفّر ما دام هذا السوار موجودًا، ومن طبقة الـVIP! لولا تفصيلة بسيطة واحدة...

هو يجهل المدة الزمنية لرحلته المجانية الممتعة تلك!

أين يكمن الاختيار بين أن تعيش اللحظة بكل ما فيها، أو أن تقتلها بتفكيرك في

لحظة انقضائها؟
مسكين أنت يا جلال.. ولكن لم يكن ثمّة فكاك من شَرَك محكوم اغتنمه هكذا.

* * *

يرسم المرء لحياته دومًا خط سير ما، فتأتيه من المؤثرات الخارجية ما تدفعه دفعًا أن يحيد. يدافع المثاليون دومًا عن مثاليتهم بفرضية أن الاختيار قائم في كل المراحل والمنحنيات، لكن منذ متى كانت الاختيارات دومًا اختيارًا؟ البعض منا قد لا تتاح له الاختيارات، أو تبدو الاختيارات بالنسبة له من نوعية (كلاهما مرّ)، أو تبدو الاختيارات مبهمة مظلمة كأبواب سريّة مخبوءة في جنبات قبو مظلم. يبدأ المرء حياته فيجد أنه ابن فلان وفلانة، وأنهما كذا، وأنه كذا، وأن ما حوله كذا، وأنهم جميعًا يفعلون كذا وكذا وكذا. أن تتمرّد داخليًّا على (كذوات) حياتك لَهو أمرٌ يسير وهيّن، بل نملكه جميعًا بشكل لا خلاف عليه ولا تورية ولا مراء فيه. أن يتحوّل هذا التمرّد إلى طوره الخارجي المؤثّر لَهو أمرٌ آخر بكليّته، تتراوح درجة صعوبته ما بين القلق والتوتر والتساؤل المشفوع بالتراجع الذليل حتى يصل إلى درجة الخيالي أو المستحيل. وهكذا وجد نادر نفسه شاء أم أبى صنيعة آخرين.

يعود بذاكرته للماضي السحيق ليرى نفسه ذلك الطفل البريء بسنواته القليلة، ربما ست أو سبع سنوات، ذلك الذي يصعد السلّم مشبّكًا الأيدي مع زميلته الجميلة البضّة حسنية وقد ابتاع لها لتوّه ببضعة قروش وفّرها من مصروفه اليومي كيسًا من العسلية، التي كانا يُسمّيانها آنذاك «حسلية» ويسخران من كون حسنية بتحب «الحسلية». يتبادلان لعق الإصبع ذاتها بمرح وجذل بالغين. يتسمّر مكانه إذ يقابلان في رحلة صعودهما والده الشديد، الذي لا يلبث أن يرمق ابنه بنظرة قاسية لا يستحقها، ولم يكن يستحقها يومًا، زاجرًا إياه وموبّخًا:

ـ ماسك إيد بنت يا نجس؟ وكمان بتلحسوا مع بعض في الحلاوة.. آه يا نجس يا ابن النجسة... البنات شياطين بنات شياطين يا ولد.. إيّاك حسّك عينك أشوفك ملامس بنت تاني ولا حتى بتكلمها.. فاهم ولا مش فاهم يا ولد؟

نظرت حسنية لأبيه في ذعر. ارتعاشة يدها في يده أنبأته أنها على وشك البكاء، عصفور صغير يختلج بين أنامله القابضة في قوة، بل زادها محاولًا أن يبث في رفيقته طمأنينة ولو زائفة. الآن يأتيه صوت نهنهتها الخافتة. الصوت الواهن الضعيف الذي لا يكاد يبين يلامس طبلة أذن الصغير فيبدو كما لو كان إعصارًا هادرًا تولّد في أذنيه. هذا الإعصار ربما قد تسلّل إلى نفس الصغير عبر أذنه المرهفة، ليصير الإعصار داخله بركانًا صغيرًا انفجر في وجه أبيه زاعقًا بصوته الطفولي الرفيع:

ـ لا يا بابا.. حسنية بنت حلوة... حسنية مش شياطين.. حسنية جميلة.. حسنية بتحب الـ«حسلية» علشان كدا أنا جبتها لها.

حدجه الأب بنظرة نارية والشرر يتطاير من عينيه إلا أنه ولأمر ما لم يزد عن الغمعمة قائلًا:

ـ اسمع الكلام يا نادر.. يالا يا ابني... خش لماما وسيب البنت دي دلوقتِ!

توقف جسد حسنية عن الارتجاف وإن سقطت دمعتان صافيتان كحبتَيْ لؤلؤ من مقلتيها الصغيرتين. نظر لها نادر نظرة من قبيل «أنا عملت اللي عليَّ».. نظرة كأنها طبطبة أو اعتذار. نظرةً ملؤها الدفء والحنان والاحتواء. مسحت الطفلة الصغيرة دمعتيها في قهر، بينما واصل الأب نزوله مكتفيًا بهذا القدر من الإيذاء.

يعود نادر من ذكرياته للّحظة الآنية فيرى انعكاس وجهه عن صفحة زجاج مكتبه اللامع. في هلع يضبط دمعتين متمردتين تسلّلتا عبر حواجز أهدابه، ثم انطلقتا دون عودة عبر تضاريس وجهه الحليق من الوجنتين وحتى بدايات العنق. مرّ زمن كبير حتى لم يعد يذكر آخر مرة بكى. هو ليس ضد بكاء الرجال، ولكنه يؤمن أنه حكر على المصائب الكبيرة. ربما أنه غير مدرك لمكنونات نفسه. لا يعرف أن ما يواجهه الآن ربما يتفق تصنيفيًّا مع ما يسميه مصائب كبيرة.

يسمع طرقات خفيفه من سكرتيرته ذات الخمار، نرجس فيرد عليها بصوت متهدّج:

ـ مش دلوقتِ يا نرجس، مشغول.

يأتيه صوت السكرتيرة متشبّعًا بالقلق:

ـ حضرتك كويّس يا حاج؟

يأتيها صوته الحاسم:

ـ شوية يا نرجس! شوية!

في استسلام مرتبك هتفت:

ـ حضرتك ما تنساش ميعادك مع مستر علي بتاع القناة الفضائية بعد ربع ساعة.

بفروغ صبر زمجر:

ـ مش ناسي يا نرجس.. مش ناسي.

يضمّ رأسه بين كفّيه كمن يعاني من صداع رهيب، يعضّ شفتيه في ندم، يراجع عقله أحداث اعتدائه على جارته وحبيبة عمره حسنية فيتضاعف الندم عنده أكثر. يشعر بفجوة رهيبة في صدره مكان القلب تمامًا، كأنّه خواء بلا روح. يعترف لنفسه أنه لم ولن يحب سوى رفيقة عمره وطفولته وأيامه، ولكنه لا يجد لها سبيلًا. أتُرى لو أن والدتيهما ما زالتا على قيد الحياة، أكان ثمّة سبيل للتلاقي؟! اختيار عمره الوحيد الذي يبدو له سهلًا متاحًا تقهرها الظروف والأنواء، إلا أنها مستعصية بلا منطق أو تبرير، وربما انتقلت الآن إلى خانة المستحيلة. يهبط برأسه ليخبطها برفق بزجاج المكتب وهو يهزّها يمنة ويسرة مغمغمًا لنفسه

في لهجة ملؤها المرارة:
ـ غبي.. غبي.. غبي!
رفع رأسه قليلًا ليظل مستندًا بذقنه على الزجاج وما زال الرأس بين الكفين مستقر كبيضة رخّ كبيرة وحيدة راقدة في عشّ صغير. بقايا الدموع بعينيه جعلت من رؤيته رؤية مهتزّة متراقصة فتبدو الأشياء كأنها غير متماسكة أو ممسوخة مهتزّة. يشعر بمدى التشابه ما بين روحه الآن، وبين تلك المرئيات التي على غير حالها. اعترافه الواضح والصريح بحب حسنية وكمية الأذى الذي يشعر به الآن مما اقترف في حقّها جعله يفكّر أنه لن يقدر على مواجهتها بعد الآن. ليس السبب تهديدها السخيف أنها ستذبحه بالطبع، ولكن السبب هو. هو فقط لن يستطيع. هو لن يقدر أن يمنع نفسه عنها، كما أنه لا يمكنه الحصول عليها.
في حسم رفع رأسه وتناول أحد التليفونات المحمولة العديدة على مكتبه، ليضغط زر المكالمة السريعة رقم ٤، يأتيه الصوت الأنثوي المطيع على الجانب الآخر، ودون مقدمات هتف في ضيق:
ـ جهّزي الشنط والبنات وبلّغي أم عبد الرحمن برضه تجهز شنطها وبناتها.
ـ ...
ـ أيوه هنسيب البيت! أنا خلاص فكرت ولقيت إننا نعزّل لفيلّا التجمّع اللي إحنا قافلينها ع الفاضي دي!
ـ ...
ـ أيوه يا ستّي هاكلّم السوّاقين والشغّالين.. ما تقلقيش خالص.. ما تحمليش همّ.. كله هيبقى خير إن شاء اللـه.
أغلق المكالمة، وهو ما زال يغمغم لنفسه جملته الأخيره.. «كله هيبقى خير إن شاء اللـه».
الآن تعاود نرجس طرقها على الباب.
يأخذ نفسًا عميقًا ويمسح بقايا دموع كانت قد جفّت من تلقاء نفسها على خدّيه.
يضغط جرسًا صغيرًا سامحًا لها بالدخول.
مطرقة بنظراتها هتفت:
ـ مستر علي وصل يا حاج، ومستنيين حضرتك في أوضة الاجتماعات.
شدّ نفسه واستجمع شتاتها وهو يهبّ واقفًا، تحركت نرجس تسبقه وهو قادم في أثرها قائلًا جملته الأخيرة الأثيرة.
«كله هيبقى خير..
كله هيبقى خير إن شاء اللـه».

٢٠. غي ـ بوب ـ ة

يظل إحساس العودة للأماكن أسطورة لا تنضب من مشاعر وأحاسيس، لا يوجد إنسان على وجه الأرض بدون ذكرى لمكان سابق.. بيت كان لأبويك في صغرك.. حضانة ارتدْتَها في بدايات قصّتك مع الدنيا، ساحة لعبت بها الكرة مع صبيان في مثل سنّك، أو جزء سريّ من سطوح منزل اعتدت أن تعتبرها مخبئًا لكنز من أغطية زجاجات المياه الغازية. ربما تحمل الأماكن قيمة أعلى حين ترتبط ذكراها بأشخاص حفروا أماكنهم في القلب، كمحبوب سابق مثلًا أو قريب عزيز كجد أو جدّة. بعض الأمكنة يحسبها المرء لحداثته أوطانًا بالإقامة أو الميلاد، فقط ليكتشف فيما بعد أنه غريب وأن تلك الأوطان غربة. تصغر تلك الأوطان أو تكبر، فبعض الناس يعتبر نطاقه الآمن وطنه، مجرّد مجموعة من أماكن محدودة، وأشخاص اكتسبوا وجودهم داخل ذلك النطاق بدعوى من ظروف أو ثقة أو اعتياد. هكذا اصطرعت الأحاسيس واختلجت داخل سليمان الذي عاد مرّة أخرى إلى منزل الطفولة والعائلة، إلى أهل بلدته المتواضعة، وأخواله، وأعمامه، وأمّه، وأخواته.

إنه الأمر ذاته بتقليديته وديمومته، عريس لأخته الكبرى المطلقة بسنت.

وعلى الأخ أن يكون موجودًا حاضرًا فيما لا ينوب فيه سوى نفس الدم والأصل والمنبت.

إنسان صالح، ملتزم، متعلّم، أرمل، من بيت طيب، وهكذا اتسّمت كل صفاته الأخرى، من أخلاق، وتصرفات، وأحلام، ورغبات. النموذج الأنجح للجنس البشري الذي لا يتغيّر ولا يتبدّل بالتكرار عبر ملايين السنين وآلاف الأجيال. قد تتغيّر معطيات، وقد تتبدّل بعض الشكليات، لكنّه يظل سر استمرار الجنس البشري، وامتداد الأجيال، واللبنة اللازمة لقيام كل الحضارات.

دوره المرسوم مسبقًا في عملية استمرار الأنساب والأنسال سهل للغاية، وها هو الآن يجلس مع بسنت وأمه وأكبر أخواله ليتلقّى منهم التعليمات ويحفظ دوره جيّدًا. بالطبع لم يسلم من تعليقات ثلاثتهم عن وجوبية أن يخبّئ غابة الحشائش الضارّة التي يربّيها فوق رأسه بشكل ما. قطعًا هُم يفضّلون الحلاقة، بل وطلبوا منه صراحة أن يسرع بزيارة الحاج محمود الحلّاق الذي يعرف جيّدًا ما عليه أن يفعل. لكنهم في النهاية رضخوا لاقتراحه السخيف ـ بالنسبة لهم ـ بارتداء غطاء للرأس، وليكون شكله لائقًا، سيشفع ذلك بارتداء الزي التقليدي كاملًا، وهو ما لاقى استحسان الجميع، رغم أن الاقتراح في مكنونه لم يخلُ من مسحة سخرية.

سيمكث الخال للغذاء، وسينتظرون جميعًا قدوم العريس. حقيقة الأمر أن سليمان كان يود لو نال قسطًا من الراحة قبل هذه التمثيلية الاجتماعية، وربما عزف على كمانه بعض الوقت ليخفّف من توتره، أو ربما ليسمح لنفسه باستحضار المزيد من الذكريات التي انقطع تيّارها تلقائيًّا بمقدم الخال. لم يكن مسموحًا له بالتأكيد فعل أي من الاحتمالين الأوَّلين، لكن من حسن الطالع، لن يحتاج شلّال الذكريات سوى لبضع لحظات من شرود الذهن والسرحان. تتميّز الواجبات الأسرية واللوازم الاجتماعية باحتياجها لعنصرك الماديّ فقط، أن تكون حاضرًا بجسدك الذي تشغل به ذلك الحيّز من الفراغ الذي يراه الآخرون. أن يكون لأنفاسك صوت، وأن تندّ عنك حركة كل فينة وأخرى، وسيكون من المُستحسن أن تمارس بعض الطقوس الأخرى كشرب أو أكلٍ يلجان من فتحة فمك وتحتاج لبعض التعاون المدروس بين أسنانك ولسانكَ وعضلات البلع في بلعومك ومرّيئك.

الذكريات ضبابية إلى حد كبير، وكأنها لم تحدث.. أو لكأنها حدثت لشخص آخر!

يتذكر الآن يوم غيابه عن المنزل عند البناية التي كانت تحت الإنشاء في الطرف القصيّ من البلدة، وتذكر الزهرة التي عاد بها لأمه. ما الذي دعاه حقًّا وهو ابن الرابعة لأن يمضي بعيدًا هكذا. لا يستطيع تحديد الفكرة التي كانت مسيطرة عليه آنذاك. ما الذي كان يبحث عنه؟ ولِمَ كان البحث عن الأشياء مهمته منذ البداية وحتى الآن؟

يعود اليوم ثانية..

يذكر آخر ما كان يفعله قبل أن يهيم على وجهه هكذا ويذهب إلى مكان لم تطأه قدماه من قبل، ولم يصحبه أحد إليه كذلك. كان يلعب مع مجموعة من الأطفال ما بين الثالثة والسادسة، منهم نرجس بنت خاله حسن وابن جارهم عم سيد ومرزوق ابن.. ابن... ابن... لا يذكر.. ابن من؟ ثم فجأة أحس نداءً خفيًّا يسحبه من بينهم، كنداهة محترفة برزت له من بين الزروع. والعجيب في الأمر أنه لم يشعر أبدًا بطول مسافة أو انقضاء وقت حتى وجد نفسه وقد وصل البناية. لم تظهر له غيلان ولا شياطين، ولم تأكله أفاعٍ ولا ذئاب. فقط وقف عند تلك البناية يتأملها.. و.. و.. شيئًا ما لا يذكره حدث.. أجل.. لقد ظلّ هناك لبعض الوقت لأنه حين وصل كان الوقت ما زال نهارًا، وحين عاد من تلقاء نفسه إلى منزله بعد ذلك والوردة في يده، كان الوقت ليلًا لأن الظلام كان مخيّمًا على كل شيء.

كيف يذكر كل شيء هكذا ولا يذكر ما حدث هناك؟

هل نام؟

لا يظن ذلك لأنه لو كان قد نام، فلا مكان له سوى أن ينام على الأرض وعندها كانت ملابسه ستتسخ. وقد أخبرته أمه على حد قولها «إنه ما كانش مبهدل نفسه» بما يعني أن ملابسه كانت ولا بد نظيفة.

.....
ـ الناس جُم يا سليمان.. قوم افتح الباب.
هكذا انتزعته الجملة من تيار الوعي المتداعي في قوة شلال هادر.
الآن يعود طواعية لممارسة الوقت الآني، ومستعيدًا كل ما لقنّه إيّاه الكبار.
جرى كل شيء من خلف زجاج سميك فبدا ثنائي الأبعاد، يسير ببطء فيلم صامت من أفلام إرهاصات السينما الأولى، يرى ابتسامات الجميع، صينية الشربات، قراءة الفاتحة، الحوارات الودية، والنظرات الودودة، ودوره الذي أدّاه بآلية على أكمل وجه.
ثم ككل شيء انتهى الأمر وانفض السامر كأنه لم يُقم.
ثم جاءت الساعة الثانية عشرة المقدّسة.
ولكن المكان غير المكان، ولو أنه انطلق في العزف الآن فسيتجمّع الناس عند بابهم ظنًّا منهم أن مسًّا شيطانيًّا قد مسّهم، أو أن عفريتة من عفاريت الجنّ قد جاءت لتقتنص الابن الذكر للمرحوم عبد الرحمن الذي جاء يزورهم بعد غياب طويل، وأن تلك الأصوات لا بد التشريفة التي تصاحبها في مهمتها الملعونة. الآن يسائل نفسه عن جدوى إحضار كمانه معه إذ لم يتسنى له العزف عليه نهارًا أو ليلًا ربما في سابقة هي الأولى من نوعها منذ أمد بعيد. كان يسمع دومًا المثل القائل «الحيطان لها ودان».. في بلدتهم الصغيرة تلك الآذان هي الحيطان ذاتها.
راوده خاطر عجيب لِمَ لَم يفاتح والدته ولا كبيري عائلته بخصوص ما يجابهه الآن من ارتباك ولغط؟ أيكفيه ما تحدّث فيه مع هند؟ هند التي لا يجد لها تصنيفًا في حياته، فاختار واعيًا وقاصدًا أن يضعها في خانة الأصدقاء، بل يستمر وعيه وقصده في تجاهل ما يتسرّب منها نحوه من مشاعر مختلفة وتصنيفات مغايرة. أم هو حقًّا يدرك ما سيقولونه بهذا الصدد فيشتري راحة باله ويحمي نفسه من سخيف الافتراضات وقميء الاقتراحات. عمّه سيطلب منه زيارة أحد الشيوخ، أمّا خاله فسيأمره بزيارة أحد الأطباء، أما أمّه فستطلب منه أن يترك غربته في المدينة ليعود إلى أحضانها وبين أخواته ليعمل مدرّسًا مثلًا في المدرسة القريبة من المنزل.
أيحتاج حقًّا لزيارة شيخ وطبيب والمكوث في حضن الأم وكنف البنات؟
أم يحتاج إلى زيارة أخرى لمملكته وسلطانه والعجوز رحيم والأميرة ريحانة؟
في تلقائية احتضن كمانه كأنه يلتمس منها الأجوبة لأسئلته التي لا تنتهي.
يملّس بأنامله على أوتارها الأربعة في حنوّ بالغ كأنها عشيقة أو حبيبة.
صول ـ ري ـ لا ـ مي.
صول ـ ري ـ لا ـ مي.
كأنه النعاس قد بدأ يتسلل إليه، تتصاعد أبخرة كثيفة من جنبات الغرفة الصغيرة.

تتكاثف الأبخرة فتصير الرؤية ضبابية معتمة. الآن هو غير متأكد إن كانت عيونه مفتوحه، وأنه ما زال واعيًا، أم أنه قد استسلم للنوم وهذا ضباب الأحلام الغامض.

كل الناس يميّزون بين وعيهم وغيابه إلا هو.

هل هذا حقيقي هو الآخر، أم وهم هو الآخر؟

في وسط الأبخرة الضبابية المتكاثفة يبرز وجه مألوف. لا يذكر على وجه التحديد أين رآه، لكنه يعرفه تمام المعرفة. أهو وجه من وجوه المملكة الأخرى أم وجه من وجوه حياته هنا؟

الوجه مألوف وودود ويشُعره بحميمية يفتقدها في حياته.

لا يفتر ثغر الوجه الذي لم يتمكّن من تذكره، إلا أن الصوت يأتيه واضحًا عميقًا كأنّه من جبٍّ سحيق:

ـ إيه.. لحقت تنسى يا سليمان؟!

أراد أن يتكلّم، أن يردّ، أن يتساءل عن كنه الشيء الذي نسيه، بل يسأله من أنت؟

لكنه لم يتمكّن من فتح فمه، بل لم يصدر عنه صوت، كأنما أصابه الخرس أو احتبس صوته.

عاود الصوت العميق:

ـ هو أنا مش قلت لك لما قابلتك وانت صغير إنك لازم تكمّل الحكاية من بعدي؟ وقلت لك دا أكتر من مرة بعد كدا؟

أحس بالقهر والعجز والرغبة العارمة في البكاء وهو غير قادر على التحاور والاستجابة أو الإفصاح عن التساؤلات.

ـ ...

ـ يبقى انت نسيت يا سليمان.. إخص عليك... مع إني أخدتك ووريتك هيحصل إيه.

ـ ...

ـ كل واحد مخلوق لسبب يا ابني.. وانت عارف دا كويس.. نفّذ سببك يا سليمان.

ـ ...

ـ ما تقلقش؛ أنا معاك على طول حتى لو مش بتشوفني.. هو أنا ممكن أسيبك أبدًا؟

ـ ...

ـ خد بالك من نفسك يا حبيبي... خد بالك من نفسك.. خد باااالك منـــ...

اختفى الوجه أخيرًا وهو لم يستطع أن ينطق بكلمة واحدة أو حتى يندّ عنه صوت أو أي نوع من أنواع الاستجابة. من هذا الرجل؟ من؟ ما الشيء الذي نسيه؟ وأين قابله وهو صغير؟ أيكون هو مَن قابله عند البناية الجديدة عندما تاه؟ أيكون السرّ كله لديه؟ ثم ما ذلك الموضوع الخاص بسبب خلقه وإنفاذه؟ أهي مهمة جديدة، كأنه لم يكتفِ بالمهمة العجيبة التي على عاتقه؟ أيكون الوجه مبعوثًا من مملكة العالم الآخر، وهذا نوع من الاستدعاء واستعجال العودة؟ ولكن ماذا عن مقابلته وهو صغير؟ إنه يذكر كلمات رحيم أنهم كانوا يستغيثون به منذ سنوات عديدة؟ أيكون هذا هو الرجل الذي أخبره بمهمّته المستقبلية، لذا يلومه الآن على النسيان؟ غثيان رهيب يعتريه فتأتيه رغبة قيء قاهرة متملّكة، لكنه لا يستطيع القيام من سريره. جسده مشدود كأنه مربوط بإحكام، والصداع الرهيب يطيح برأسه كأنها قنبلة وانفجرت، عرق غزير ينضحه كأن جلده قد صار كلّه مَسامَّ مسرّبة للعرق. بل من أين جاءت هذه الحرارة الخانقة؟ من أنت يا رجل؟ من أنت؟ التساؤلات التي تتزاوج وتتوالد داخله تتحوّل إلى آلاف من علامات استفهام تجري خلفه، وهو يجري منها في ذعر.. كلما اختبأ منها في مكان آمن، كلما ظهرت وتولّدت من العدم لتحتل المكان. أخذ يجري ويجري ويجري. وعلامات الاستفهام المجنونة تجري وراءه في إصرار عجيب. الكون كله صار مسطّحًا ممتدًا إلى ما لا نهاية. يلهث في شدّة وهو غير قادر على إدخال الهواء عنوة إلى صدره الذي يعلو ويهبط في سرعة محمومة.

في مؤامرة مفضوحة.

تنبثق من العدم الذي صار يحيط به من كل جانب، كل وجوه حياته هنا وهناك.

يبدأ ظهور الوجه صغيرًا ثم يكبر ويتعاظم كلما اقترب من وجهه حتى يتجاوزه، وهو ينحنى يمنى ويسرى متفاديًا الوجوه المتطايرة كنار عظيمة تقذف شرارات لا نهائية نحوه.

من الصمت تتصاعد نغمات لا نهائية كلها تشبه مقطوعته السحرية، إلا أنها تتقاطع وتتعارض وتتزامن، بل تتبدّل افتتاحياتها ومفاتيحها المرة تلو المرة بشكل عشوائي فوضوي يجعله أشبه بالضجيج.

الآن يستعيد سيطرته على صوته فيصرخ صرخة متعاظمة ارتجّ لها جسده كله. ومن بين الوجوه المتطايرة، والنغمات المزعجة، وعلامات الاستفهام المجنونة برز وجه أمه وهي تهتف به كأنها تنتشله من كل هذا.

ـ سليماااااااااااااان... سليمااااان.. مالك يا ضنايَ؟

من خلفها بدأ يميّز وجه أختيه.

تهتف أمه ثانية:

ـ يا نهاااار.. دا الواد سخن مولّع يا كبد أمّك يا سليمان.

تشير لأخته:

ـ اجري بسرعة يا بت يا آلاء هاتي لأخوكِ شوية كمادات بميّة وخل وكام حتّة تلج من الـ«فليزر».. اجري يا بت بسرعة.
جلست بسنت على حافة السرير جواره تنهنه وتبكي متَّهمة العريس بالنحس وسوء الطالع.
بينما أمه تستأنف في صوت متهدّج:
ـ محسود طول عمرك يا سليمان.. محسود طول عمرك يا ضنايَ.. محسود يا غريب يا ابن الغريب... أخبّيك إزاي من عيون الناس يا عمري.. أحميك إزاااااي؟
كانت تلك هي اللحظة المناسبة ليغيب على وجه اليقين عن الوعي، ويسقط في غياهب سواد تام، لا شيء فيه البتّة.
فقد اختفى كل شيء... وصَمَت.

٢١. ڤي ـو بـورت

تحمل التجربة الأولى لأي شيء بين طيّاتها قدرًا كبيرًا من القلق والارتباك، بل أحيانًا النظرة المبالغة للأشياء. ولا تفشل الدنيا، ولن تفشل، في منحنا هذا الشعور بقدر يختلف ما بين تجربة إنسان وآخر. البعض يشعر بالخوف، والبعض يشعر بروح المغامرة، والبعض يشعر بالقنوط واليأس المغلفَين بيقين راسخ من انتظار الفشل أو الأشياء السيئة عمومًا. لكن شعورًا واحدًا يظل ملتصقًا بكل تجربة أولى... الدهشة.

هند مدهوشة بإحساس الباسبور في يدها، مدهوشة بخاتم الفيزا لفرنسا الذي بدا لها كأنه بطاقة بريدية ملونة، مدهوشة بالنداء الداخلي للمطار وشكل موظفة الجوازات وبطاقة الإقلاع.

كان من المفروض أن تقابل مستر كمال الآن، ولكن عوضًا عنه فوجئت برئيستها المباشرة سيلڤيا فعقدت الدهشة لسانها، لم تسمح لها بأن تتزايد فابتدرتها قائلة:

ـ إيه؟ اتضايقتِ؟ مستر كمال جات له سفرية تانية مفاجئة وبعتنا بداله وفهّمني كل حاجة هنقولها مكانه في الاجتماع. يلّا علشان عايزين نتكلم في اللي هنعمله في فرنسا شوية قبل ما نركب الطيارة.

تدرك هند أنها في سفريتها هذه كنوعٍ من الاختبار، لذا فإن السكرتيرة الشابة أومأت برأسها والابتسامة تصنع قوسًا تُنافس قوس النصر في اتّساعها. شعورها بالجدية، وأنها تمارس عملها الآن، ووجود سيلڤيا عوضًا عن مستر كمال، كلها عوامل ساعدتها كثيرًا في التغلب على ارتباكها، بل دفعت قدرتها على الاندهاش إلى بلاد أخرى لا يوجد في باسبورها الوليد أي نوع من الـ«ڤيزا» الخاصة بها.

أخرجت من حقيبة يدها بلوك نوت أسود وقلمًا عمليًّا من نوع بريما. كان منظرها مضحكًا إلى حد ما وتلك الجبيرة على يد وبالأخرى تحاول أن تفعل كل شيء في آن واحد. رفعت سيلڤيا نظارتها التي بلا إطار على جبهتها ومقدّمة شعرها الأشقر الناعم وهي تغمغم في سخرية:

ـ «بلوك نوت»؟! قلم بلاستيك؟! إنتِ من القرن الكام يا هند؟ ودول علشان إيه إن شاء الل ـه؟

ارتبكت هند وتلعثمت وهي تغمغم:

ـ علشان أسجّل فيها تعليمات سيادتِك.

علت قهقهتها بصوت عالٍ أثار انتباه بعض المسافرين على الطاولات المحيطة بهما في ذلك المقهى المعروف بالمنطقة الحرة في المطار. ربّتت على يدها في تلقائية، وهو تقول:

ـ دلوقتِ يا بنتي فيه حاجة اسمها «سمارت فون»! اسمها «آي باد»! اسمها «تابلت»! تعملي بيها كل حاجة وتخشي على النت وتبعتي إيميلات وكل حاجة.. فكّريني أجيب لك واحد ضروري، علشان نظام الباشكاتب وباكتب تعليمات سيادتك دي مش هتنفع في الشغل خالص.

لم يكن كلامها غريبًا ولا مجهولًا بالنسبة لها، ولكنها أمور لم تألفها بعد.

نظرت لها نظرة سريعة في لحظة صمت عابرة لتبدأ في شرح مهمتهما القادمة في أراضي الثورة والحرية والعطور الأخّاذة. كانت هند منتبهة تمامًا وتشعر أنها تتعلم كثيرًا من هذه التجربة الفريدة. الآن أدركت أن الناس لا يصلون لما يصلون إليه بسهولة. هناك شيء ما يميّز الشخص الذي يصل إلى شيء ما. الآن تتذكر كيف استطاعت أن تفلت بأعجوبة من براثن أبيها بتلك الكذبة التي اختلقتها مع أمها عن سفرها لزيارة خالتها المريضة في دسوق. بالرغم من أنها قد لاحظت مؤخرًا أن والدها قد صار أقل حرصًا على تضييق الخناق عليها، وعلمت من أمّها أنه يواجه مشكلة قانونية كبيرة في عمله ممّا يستحوذ على كل تركيزه هذه الفترة. جزء منها كان يستشعر قلقًا بالغًا على والدها رغم كل شيء وتذكر له أوقات حنوّه وصفائه معها، وتتمنّى له أن تتم أموره على خير. ولا تنكر أن جزءًا آخر كان يشعر بالذنب حيال الكذبة التي غادرت بها، وأنه كان لا بد سيتضاعف إن وجدت مستر كمال مرافقها. فكّرت لوهلة ماذا ستفعل إن دخل والدها السجن أو أصابه مكروه! هذا نوع سخيف من الأسئلة التي يسألها المرء لنفسه حيث تختلط فيها المشاعر المتضاربة فينتهي الأمر بأن يكره المرء نفسه أو يرثى لها.

ـ هند...

انتشلتها سيلڤيا من تيار وعيها لتذكّرها باللحظة الآنية.

انتبهت هند ودوّنت مواعيد مقابلاتهما وأسماء العملاء الذين سيقابلانهما، أسماء الأماكن، الفنادق، وسائل الانتقال، أسماء وأرقام السكرتارية الخاصة بهؤلاء العملاء، و... و...

كانت اللحظة التي أعلنت فيها فتح البوابة الخاصة بالرحلة المتوجهة إلى شارل ديجول كترانزيت قبل الذهاب إلى مرسيليا. وإن هي إلا دقائق حتى كانت مدام سيلڤيا قد وضعت سمّاعات الأذن وارتدت واقي العينين ثم راحت تغط في نوم عميق طوال الساعات الأربع كاملة ولم تستيقظ إلا للترانزيت، نفس هذه الساعات التي حاولت خلالها هند أن تنال أي قسط من النوم، أو على الأقل الاسترخاء، إلا أن كمية الأدرينالين التي كانت تموج خلال أوردتها وشرايينها الآن

مع تجربة ركوبها الطائرة للمرة الأولى كانت كفيلة بأن تظل يقظة كظهر قنفذ مستثار لعدة أيام.

انتهى يوماها الأولان في مرسيليا على خير، ما بين اجتماعات وملاحظات وتعليمات ومقابلات. وكعادتها أوت مدام سيلڤيا إلى فراشها مبكِّرًا استعدادًا لمقابلات اليوم الثالث، بينما تسلّلت هند المتحررة من الارتباطات الآن، لتستكشف المزيد سيرًا على الأقدام، فارتدت لباسًا رياضيًّا خفيفًا واتجهت صوب الـ«ڤيو بورت» أو الميناء القديم حيث المئات من مراكب الصيد واليخوت الراسية، ومحلات الطعام والمقاهي، بل مداخل الشوارع الرئيسة المؤدية لمحلات التسوق وغيرها. في الصباح كان المكان يعجّ ببائعي السمك والفواكه البحرية الأخرى، أما الآن فالمكان مليء بالسياح والعشّاق. على البعد كان ذلك الفتي يغنّي لفتاته على الجيتار، تذكّرت الآن كمانها المكسور. كان صوت الفتى رائقًا، ونظرات العشق بادية على الفتاة. اعترتها برودة مفاجئة فأحكمت إغلاق سوستة الجاكيت الخفيف الذي ترتديه، واستأنفت السير. أحسّت بالجوع، فهي لم تتناول الطعام فعليًّا في عشاء العمل. نظرت إلى اليوروهات القليلة في جيوبها فقرّرت أن تتناول شطيرة من الشاورما التي يسمونها هنا وفي كل أورُبّا تقريبًا «دونر». صاحب المطعم مصري مهاجر من طنطا وروّاد المطعم أغلبهم من العرب، مغاربة وتوانسة وجزائريين. أكلت الـ«دونر» بشهية بالغة وحيّت النادل بابتسامة رقيقة. كانت أغلب المحال مغلقة الآن، إلا أنها استطاعت بفرنسيتها التي لا بأس بها أن تقرأ الاسم المثير للمحل الذي تقف أمامه الآن. «سحر المغرب» ونجمة خضراء تتوسط الكلمتين. ثم لافتة حمراء كبيرة خلف زجاج المحل مكتوب عليها «نقرأ لك حظك في الحال – قراءة ودع وأصداف – قراءة فنجان – أوراق التاروت – قراءة الكف – قراءة النرد ـ...» توقفت عند هذا الحد وابتسمت ابتسامة خفيفة، وفي اللحظة التي بدأت تفكر فيها في الاستمرار بالسير، برز لها من داخل المحل شاب يبدو من قسماته أنه مغربي سألها بالفرنسية في أدب:

ـ ألا ترغبين في معرفة حظك أيتها الآنسة؟ نوّارة ماهرة جدًّا في ذلك.

ـ نوّارة؟

ـ أجل! إنها من المغرب. إنها الأفضل. جرّبي الأمر. من أين أنتِ؟ كلّا! كلّا! دعيني أخمّن. امممممم. أنت من مصر؟ صح؟

ابتسمت هند وكادت ضحكة تفلت منها، فاكتفت بأن أومأت برأسها إيجابًا. حقيقة الأمر أنها خائفة، والوقت متأخر، والمكان يبدو مريبًا. إلا أن شيئًا ما في لهجة الشاب المغربي وطريقته طمأناها ولو بشكل زائف، كما أنها لا يوجد معها ما تخشاه. ما بحوزتها لا يتعدى العشرين يورو ولو أن هذا الشاب طلبها الآن دون أي تهديد لأعطتهم إياه عن طيب خاطر. مستمرًا بالحديث بالفرنسية هتف مشجّعًا:

ـ حسنًا! سنقوم بعمل خصم لأختنا من مصر، ما رأيك الآن؟
ألف صوت داخلها يمنعها من قبول هذه الدعوة، وصوت واحد فقط يطالبها أن تخوض التجربة. هذا هو الصوت الذي يفوز دائمًا. يقولون إن الفضول قد قتل القطة، لا يعرفون أن الفضول قد قتل من البشر أضعافًا مضاعفة.
هكذا وجدت الشابة التي تكتسب كل يوم خبرة جديدة في الحياة نفسها في إثر المغربي الشاب الذي لا تعرف من أين اكتسب ثقتها هكذا. كانت كالمنوّمة أو المسحورة، ولم يهدم ساحرية تخيّلاتها أي خواطر سوداء. طمأنينة غريبة وهدوء نفسي شديد ساعد عليه الأضواء الخافتة وروائح البخور الشرقية التي تعبّق المكان مع تلك الغلالات الشفيفة الملونة والسلاسل المصنوعة من الأحجار الكريمة على الحوائط وسقف الردهة، تلك الأشياء التي تضفي على المكان جوًّا أسطوريًّا أخّاذًا أشبه بحواديت ألف ليلة وليلة. كانت السجاجيد سميكة للغاية، للحد الذي يجعلك تشعر أن أقدامك تطأ أرضًا من حلوى الخطمي أو الـمارشميلّو كما يسمّونها. أواني فخّارية كبيرة وأكواب زجاجية ملونة بشموع بيضاء داخلها يتراقص لهبها لتضفي ظلالًا تتراقص كأنهن راقصات بلاط شهريار. للأماكن أرواح خاصة بها، وهي تستشعر روح هذا المكان فلا تشعر إلا بالراحة والاسترخاء. أفاقت على صوت المغربي الشاب وهو يدعوها للجلوس والانتظار على أحد الآرائك المغربية الوثيرة المزدانة بالنقوش والألوان، نفس النقوش والألوان والفسيفساء المغربية الزاهية التي تكسو كل شيء من حوائط وطاولات وأوانٍ وأثاث. أحسّت هند نفسها كأنها تغطس في تلك الأريكة ذات الملمس المخملي الناعم، فالتفتت نحو الشاب المغربي الذي ودّت لو سألته عن اسمه الآن. إلا أنه كما ظهر فجأة، اختفى فجأة، وفي اللحظة التي بدأت تلتفت فيها باحثة عنه، إذا به يقبل عليها بصينية مغربية من الفضة اللامعة عليها برّاد صغير تتصاعد منه الأبخرة الساخنة وكوب زجاجي أرجواني شفاف صغير مزيّن بنقوش مثلثة ومربعة دائرية. في مهارة بالغة بدأ الشاب في صب الشاي المغربي الأخضر بالنعناع ويرفع البرّاد عاليًا إلا أنه يحافظ على مسار شلال الشاي الصغير المتدفق من فوهة البراد، لا تدري هند لماذا ذكّرها منظره ببائعي العرقسوس في مصر. كان صوت صبّ الشاي وابتسامة الشاب المُرحبّة والروائح وتلك الموسيقي الخافتة التي بدأت تدغدغ آذانها الآن من مصدر لا تعرفه، تلك الصينية والبرّاد والكوب وتلك الأبخرة الدافئة كلها مدعاة لإحساسها بسعادة بالغة. حتى إنها أغمضت عينيها وهي ترشف الشاي في تلذّذ وهي تقول لنفسها إنها لم تذق مثل هذا الشاي من قبل، وأنه لا بد ألذّ كوب شاي شربته في حياتها.
غريب جدًّا أنها كانت مستسلمة لنسق جريان الأمور دون تشكّك أو خوف.
وفي اللحظة التي كانت مستعدّة تمامًا لمقابلة نوّارة، وجدت فاتنةً شابة ترتدي قفطانًا أحمر من المخمل مطرّز بخيوط الذهب والفضة وله حزام عريض يحصر

خصرها في أناقة، مزدانة بالحليّ المصنوعة من «النقرة» أو الفضة الأمازيغية والمرصّعة بصنوفٍ شتّى من الأحجار الكريمة، حول الرقبة وفوق الرأس وحول المعصمين وعلى شكل خواتم كبيرة غريبة الشكل والتصميم في أغلب اصابعها. لم يفتها أيضًا نقش الحنّاء على يديها وقدميها الحافيتين. باختصار كانت حدقتا هند متسعتين بالقدر الذي تود فيه لو تحتوي كل ما تراه داخل عينيها.
في صوت رقيق وباللغة العربية المغربية:
ـ مرحبا بيكِ. نوّرتينا بزّاف.
ضحكت الفتاة في حرج وهي تقول:
ـ ديما أنسى! باينة فيك ما فهمتينيش، ياك؟
نفضت رأسها ثانية بعد أن قابلها ثغر هند الفاغر، وعيناها اللتان تشيان بأنها لم تفهم منها أي شيء. ابتسمت الفاتنة المغربية وهي تمدّ يدها بالسلام:
ـ أختك.. نوّارة.
هبّت هند بصعوبة من أريكتها الوثيرة وقد ازدادت ابتسامتها اتساعها وهي تمد يدها غير مصدّقة أن نوّارة ستخرج لملاقاتها شخصيًّا، كما أنها ظنت أنها ستجد امرأة عجوز، ربما بعين واحدة، وبصوت خشن كرجل سكّير. لكل شيء في الحياة صورة ذهنية مسبقة في عقولنا، بالرغم من أننا دائمًا نكتشف خطأ هذه الصورة.
ـ مغا نهضر معاك غير بالمصرية، عادل إمام، أم كلثوم، أبو تريكة، بالصحّ؟
واستأنفت الضحك وهي تشير لهند أن تتبعها للداخل، الذي لم يختلف عن أي شيء بالخارج، وإن زادت عليه تلك المنحوتات لرؤوس أمازيغية مرعبة، بالإضافة إلى حراب وسيوف ودروع مزركشة، كما أن رائحة البخور هنا أقوى كثيرًا.
جلست هند أمام الفاتنة الساحرة نوّارة وهي شبه مخدّرة.
ـ كِدير.. آ.. كيف حالك؟
أومأت هند برأسها علامة أنها بخير.
ـ علاش.. آ.. ليه عايزة تعرفي حظك؟ إنتِ شابة، وزوينة.. آ.. حلوة، أشْنُ كيهمك؟ يووووو! إيه اللي يهمك؟
ـ الحقيقة ما اعرفش! بس هوّ فيه حد مش عايز يعرف المستقبل؟ مش عايز يعرف بكرة فيه إيه؟
ـ اعطيني يدك.
مدّت هند يدها السليمة فبدأت قارئة الطالع تنظر في خطوطه بتمعّن وتركيز. تضيّق ما بين حاجبيها المزجوجين بعناية، ثم تعض شفتها السفلى في بطء، ثم تغمض أحيانًا، وتعود برأسها للوراء أحيانًا أخرى، وهند تمنع نفسها من الضحك بصعوبة وهي ترى نوّارة تقوم بتلك الطقوس أمامها، بينما كفّها مستقر بين

راحتيها الدافئتين.
ـ إنتِ ديما كتعاني فِينْ ما كُنتِ.
سحبت هند يدها من يدي نوّارة التي نظرت لها باستغراب شديد قائلة:
ـ علاش؟
كانت هند قد بدأت تفهم معنى الكلام حتى لو لم تعِه حرفيًّا فقالت:
ـ عايزة أجرّب حاجة تانية، حاجة ما تكونش موجودة في مصر، عايزة أجرّب التاروت، قريت عنها زمان وعايزة أجرّبها.
ـ كيفاش تبغين.
من بين ثنايا طاولتها جلبت مجموعة من الأوراق شبيهة بأوراق الكوتشينة لكنها أكبر حجمًا وأكثر زركشة. بدأت نوّارة تركز نظرها أكثر بحدقتَي هند المتسعتين أصلًا.
ـ بالمصري.. واخّا؟ آ.. بالمصري.. أوك؟
ـ أوك.
ـ تارو مرسيليا هادا أشهر تارو بالعالم. قدّامك ٧٨ ورقة. كل ورقة ليها معنى ديفيرانس. فاهمة عليّ؟
هزّت هند علامة الإيجاب.
ـ فيكِ أربع طرق. الطريقة الغجرية وهادي بس بنحب نقول لك لمحة واحدة عن ماضي، عن حاضر، عن مستقبل. هادي سريعة بزّاف ديما بتسحبي ثلاث ورقات. الطريقة العادلة هادي لوضع معين أو إجابة سؤال محدد في محيطك الاجتماعي، محيطك المهني، أو العاطفي كيفاش تبغين، هادي بتسحبي خمس ورقات. طريقة الملك سليمان للمستقبل بالنسبة لحالة معينة، وبتسحبي سبع ورقات كيف نجمة داود وورقة بالنص. وفي الأخير طريقة الربعطاش وديما تسحبي ربعطاش ورقة واضحين جدًّا وكلّاش المجالات، الأسرة، العمل، العاطفة والجنس والروح. البطاقتين بالوسط يعطونك الاتجاه.
كان الاختيار لـهند سهلًا وتلقائيًّا، فهتفت فيما يشبه المفتونة:
ـ عايزة سليمان! قصدي الملك السلطان سليمان.
ـ زوويينة بزّاف.
هكذا فردت أمامها البطاقات في مهارة فائقة. اعترت هند رعدة خافتة وهي تمد يدها السليمة المرتعشة لالتقاط البطاقة الأولى. فوضعتها نوّارة بالركن العلوي الأيمن من النجمة السداسية، فالثانية لرأس المثلث السفلي، فالثالثة للركن العلوي الأيسر، فالرابعة للركن السفلي الأيمن، فالخامسة لرأس المثلث العلوي، والسادسة للركن السفلي الأيسر، ثم أخيرًا السابعة في المنتصف.
بدأت نوّارة في أخذ مجموعة من الأنفاس العميقة، يعقبها زفرات طويلة منتظمة.

أغمضت عينيها لدقيقة أو أكثر، ثم بدأت تدمدم شيئًا خافتًا بشفتيها، لم تتمكن هند من سماعه بطبيعة الحال.

ـ البطاقة الأولى الغموض، ديما مشاكل في البيت، قلق وتوتر بالعمل، وغموض بالعاطفة، الحذر واجب، أمل كثير، إحباط أكثر. كلّاش بالميزان، ميزان حسّاس، لا تفريط، لا إفراط.

ـ البطاقة الثانية الكهنة، خذي قرارات سليمة، حكيمة، استثمري نفسك في مشاريع ناجحة، إذا فوقاش فرصة، سيري، روحي، غَتندمي بزّاف لو راحت منك.

ـ البطاقة الثالثة الجلّاد، إرادة بزّاف، تصميم، شجاعة، ذكاء، نجاح غير متوقع، سيطرة على الغريزة، تنازل يكون محسوب.

ـ البطاقة الرابعة المحاولة، المحبوب اللي مش داري بيكِ في ورطة، حاولي تساعديه، هو في خطر، خطر بزّاف.

ـ البطاقة الخامسة القمر، السر في السماء، نجوم، قمر، كواكب، شموس، عالم تاني.

ـ البطاقة السادسة البابا، وسيط بين المنشود والموجود، والسر في اللحن، والسلام بين الناس والناس.

ـ البطاقة الأخيرة العدالة، بس مش منك، منه هو، العدالة يا هند، العدالة. بقا معايَ، العدالة.

ارتبكت هند من كيفية معرفة اسمها، وغموض كلماتها، وحين افترّ ثغرها للسؤال، وضعت نوّارة سبّابتها على فم هند، ثم أخرجت من بين طيّات ملابسها قلادة فضية رفيعة تتدلى منها حجرة عقيق حمراء صافية لم ترى أروع منها في حياتها. كوّرتها في يدها ودفنتها في يد هند ثم ضمّت أصابع هند لتغطيَها.

ـ كادو! ما تقلقيش! بون تشانس!

ثم اختفت فجأة من أمامها، فألجمت المفاجأة لسانها، وحين مرّ عليها وقت كافٍ، بدأت تتسلّل من تلقاء نفسها، فوجدت الشاب أمامها كأنه انبثق من العدم بنفس الابتسامة على وجهه، وبدأ يقتادها للخارج. كانت هند متلعثمة ومأخوذة بالتجربة وبالكلام الذي قالته نوّارة، وحين سألت المغربي الشاب عن الحساب، أعاد لها النقود ثانية:

ـ نوّارة قالت كادو، يبقى كادو. بون تشانس أختي من مصر.

سلّمها للطريق ثم أغلق الباب وراءه، وفي ثانية كانت الأنوار قد انطفأت عن اسم المحل، واللافتة، والواجهة الأمامية، ليغرق المحل كباقي الشارع في ظلام وصمت لا يقطعه سوى وقع خطوات هند المضطربة على الأرض الصلبة لطريق العودة للفندق.

٢٢. حـمّى للـجميع

ضباب كثيف يبرز منه وجه مألوف.
يشعر كأنه غريق سابح في فضاء لا أرض فيه ولا سماء.
يمد يديه، التي لا يراها، محاولًا جذب انتباه الوجه المألوف الذي يقترب منه فتتضح ملامحه أكثر فأكثر. تبدو قسمات الوجه لائمة غاضبة إلى حد ما. يبدو الوجه يخاطبه رغم أن شفاهه لم تتحرك، كأنها تخاطبه بنوع من أنواع التخاطب الأثيري، فيفهم ما تقوله، دون أن تنبس ببنت شفة:
ـ لماذا كل هذا التأخير يا سليمان؟ ألا تعلم أننا نحتضر هنا؟
ـ هند؟
ـ بل ريحانة أيها السلطان؟
ـ أنا عيّان قوي.. وزي ما أكون باموت.
ـ لا تتأخّر أرجوك أكثر من ذلك. رعيّتك في انتظارك.
ـ عيّاااااااان!
ـ لا تتأخر.
ثم اختفى الوجه في العدم الضبابي الذي انبثق منه.
كانت حالة سليمان سيئة للغاية. فقد مرّ على مرضه بتلك الحمّى الغامضة ما يقرب من أسبوعين أو يزيد. يفيق منها قليلًا فيرى أمّه وأخواته وربما خاله أو عمه بجواره يمرّضونه ويقرؤون له مما تيسر من القرآن، ثم ما يلبث أن يقع مرة أخرى بين براثن الغيبوبة أو ما يشبهها. تزوره الوجوه والأطياف، ويسترجع شرائط الذكريات والأحداث، كالمحتضرين. ثم يفيق ثانية، فيعود كل شيء كما كان. حتى إنهم فكّروا في إرساله للقاهرة حيث الأطباء الأكثر خبرة، ولكنه كان يرفض ذلك متعلّلًا بالتحسّن، الذي لا يدوم إلا لساعات قليلة. وهن جسده وطالت ذقنه، وتشعّث شعره فصار كالمجاذيب. وأمّه موقنة أن ما به ابنها البكريّ ما هو إلا فعل مسّ أو حسد، تمامًا كما حدث مع والده من قبل ليموت من أثرها لأنهم لم يتمكّنوا من إنقاذه وهي لا ترغب لابنها المصير ذاته. أدرك سليمان أيضًا أن الوجه الذي زاره قبل الحمّى كان لوالده. وتعجّب كيف لم يتعرّفه منذ الوهلة الأولى. الآن يذكر أنه نفس الوجه الذي رآه حينما زار البناية البعيدة وهو طفل صغير، ولكنه لم يذكر بعد ما دار بينهما من حوار وأحداث آنذاك، أجهد نفسه ليتذكر ما حدث لكن ذهنه كان مشوّشًا من أثر الحمّى.
أحس سليمان بالخوف يتملّكه مدركًا أنه ملعون على نحو ما، أو ربما هو يموت.

الأقرب لمنطقه أن علّته في عقله، وكل ما يحدث له، ما هي إلا ألاعيب يمارسها ذلك الجزء المعيب في عقله.
الحقيقة أحيانًا تكون أكثر من قدرتنا على استيعابها.
لذا فأن يكون كل ما يحدث له حقيقيًّا يحمل بين طيّاته من الحقائق ما ينوء به أعتى الرجال.
أنّى له أن يكون مخلّصًا أو نبيًّا؟
كيف لابن البلدة البسيطة، اليتيم الأب، المكبّل بأم واهنة وأخَوات يتحمّل مسؤوليتهن عن بُعد، الذي يكافح الكفاف في المدينة القاسية ليثبت فنّه وإبداعه.. أن يكون مخلّصًا أو نبيًّا؟
هو فقط يبحث عن حقيقته الذاتية ويريد أن ينفذ أسطورته الخاصة.
لا يريد أن ينقذ عوالم خفية أو يكون مصلحًا لحيوات مَن حوله.
لا يريد سوى ما يستطيع أن يكونه.
ولكن منذ متى أدرك أيٌّ منّا ما يستطيع أن يكونه؟
هكذا وجد سليمان نفسه يتحسّن تلقائيًّا دونما علاج أو طبيب خلال الأيام القليلة التالية، لكأن الأقدار ترغب له في أن يستمر في مهمته المقدّسة.
وهكذا وجد أن أفضل ما يفعله هو أن يعود إلى جحره الضئيل في تلك الحجرة الصغيرة على السطوح. وأنه لا بد له من أن يزور المملكة مرة أخرى.. وربما أخيرة.
الحقيقة الغائبة عنّا بمثابة اللعنة هي أيضًا.
ولا سبيل للتخلّص منها.. إلا بكشفها.

* * *

على اللابتوب الخاص بها أخذت علا تقلّب صور حفل خطوبتها، وصورًا أخرى تجمعها بخطيبها ياسر. كانت تبحث عن شيء ما، ولكنها غير مقتنعة بوجوده. كانت تبحث عن شغفها، ذلك المحرّكِ الرئيس لحياتها. تكبّر الصور أكثر فأكثر، لترى سعادة حقيقة في عيني ياسر، ربما أكثر في مجموعة الصور الأولى، بينما ترى ابتساماتها الذكية، قدرتها على اتخاذ أوضاع جيّدة في الصور، تناسق ألوان ملابسها، اتّساق تبرّجها مع أوقات التصوير، نهارًا كانت أم مساءً. لكنها فشلت في العثور على تلك اللمعة في عينيها، تلك الجذوة التي كانت تراها دومًا. ودون وعي منها، انتقلت بأناملها الدقيقة نحو ملف مخبوء، اختارت أن تظهره من اختيارات الملفات. بالطبع لم تكن سوى صور الماضي التي جمعتها بـسليمان. الآن تبدو الفروق واضحة جلية بين مجموعتي الصور. ليس الأمر أنها كانت أصغر، ولكنها كانت أسعد، لأنها كانت تستشعر تلك الجذوة المتقدة داخل روحها. تلك الروح المغامرة التوّاقة دومًا للجديد والمثير والغريب.

اهتمام والديها المتباعد بها وبشأنها لم يكن أبدًا كافيًا، وإحساسها بالفراغ الدائم وبكل سهولة أشقاها طوال عمرها. كانت تبحث دومًا عن تلك النكهة المفقودة لحياتها وأيّامها، وحين ظنّت أنها قد وجدتها، لم تتمكن من الاحتفاظ بهذه النكهة فترة أطول. زال المذاق وصارت خاوية مرة أخرى.

الآن هي تمسك بمقبض باب الغرفة المنسية بشكل ثابت، ويبدو عليها الإصرار في المضي قُدُمًا لفتحه دون أي حسابات أو اعتبارات لما قد يحدث نتيجة هذا التصرّف الأرعن.

تخرج من ملف الصور، لتقترب حثيثًا من الملف الأخطر.

ذلك الملف الصوتي الذي يحمل اسمها كاسم فريد غير متكرّر.

هنا أيضًا نسخة منه، مخبوءة كالصور.

وضعت سماعات الأذن لتتوحّد بكليّتها مع ما ستسمعه، وأوصلتها بمخرج الصوت في جهازها. واقتربت بسبابتها المتحفزة في ارتعاشة خفيفة.

ترددت لوهلة.

ولكنها كانت قد حسمت أمرها، ولم يعد ثمّة مجال للتردد، فالسهم قد غادر قوسه، وليس ثمة مجال للتراجع.

ضغطت الزر بمنتهى الاشتياق، وأغمضت عينيها، تاركة السحر يتسلّل عبر الأسلاك، فأذنيها، فعقلها، ومنه إلى كل روحها.

استشعرت جفافًا في حلقها، وارتعاشة في شفاهها، وفراشات ألف أسفل معدتها.

تأوّهت بشدة.

وبدأت دموعها تنساب غصبًا عنها.

بدأ الأمر على شكل بضعة دموع متمرّد، ثم انهدّ السدّ، وجرفه السيل العرمرم من دموع كمصب نهر.

نار متقدة تستعر داخلها، وجذوة نار لم تنطفئ يومًا ها هي قد أذكت نارها، وزادتها اشتعالًا.

الآن تشعر بالندم والتسرّع والغباء والحمق.

أيصاب المرء حقًّا بالملل من شخّص ألّف له مقطوعة موسيقية؟

كيف كانت بهذا القدر من الرعونة والسذاجة وعدم النضج؟

أين هي الآن؟

حبيسة علاقة عادية، مع إنسان عادي، في حياة عادية، كل شيء فيها، بل كل ما تنتظره منها عاديٌّ عاديٌّ عادي؟

أعادت سماع اللحن ربما ألف مرة.

وبكت حتى جفّت مآقيها.
وانتحبت حتى كادت تمزّق نياط قلبها بنفسها.
ولم تلتفت لعشْر مكالمات وردتها ولم تجب عليها.
سبعٌ منها حملت اسم خطيبها ياسر.

* * *

جلست حسنية بمنتهى الحمّاس أمام ذلك السكرتير بمكتب السعيد للمحاماة في انتظار مقابلة الأستاذ. كانت مرتبكة وتشعر أنها محط أنظار الجميع، أشخاص ببذل رسمية، ورجال بجلابيب وشنبات غليظة، وسيدات راقيات يدخنّ السجائر في شراهة.
ما الذي تفعله هي في هذا المكان سوى التمرّد وإثبات الذات؟
من محفظتها الجلدية الصغيرة أخرجت تلك البطاقة الصفراء شبه المهترئة لتقرأ ثانية «هدفنا رعاية مصالحكم». هي الآن لا تبحث عن مصلحتها الشخصية فقط، ولكن مصلحة أخيها الواهن المسكين محمود أيضًا. لقد أدركت أنه لا مكان في الحياة لضعيفين معًا. فإذا ما كان ضعف أخيها قدريًّا، عليها هي أن تستخرج القوة ولو من بين أحشائها.
جاءها الساعي يسألها إن كانت تود شرب كوب من الشاي أو فنجانًا من القهوة، فاعتذرت إليه طالبة كوبًا من الماء لتطفئ النار المستعرة داخلها كأنها حمّى.
قلّبت بين أرقام التليفونات القليلة المسجلة على تليفونها البدائي مقارنة بما بين يدي الناس الآن. وفكّرت أن تتصل بـسليمان، ولكنها تساءلت عمّا ستقوله له، فلم تجد، بل استشعرت حرجًا بالغًا دون أن تفعل شيئًا، جاءها الساعي بالماء، فازدردته بصوت مسموع علامة القلق.
أخيرًا جدًّا، وبعد أن أوشكت على المغادرة فهي لا تضمن الصبي شلبي الذي يعمل عند العم عدلي البقال في رعايته لـمحمود فترة غيابها. صحيح أنها قد أعطته مهدئًا لينام قبل النزول، وأنه غالبًا لن يستيقظ إلا في الصباح، لكنها غير معتادةٍ تركَه والخروجَ هكذا.
بالأمر بعض من خيانة لا تدري لها سببًا.
ربما قد بدأ بعضٌ من ندم يتسلل إليها، وقد أومأ لها السكرتير بالدخول لمقابلة الأستاذ.
تجاوزت سريعًا الترحيب والبشاشة التي استقبلها الأستاذ بهما وحاولت أن تشرح له الأمر سريعًا، فلامها على التأخير وأخبرها أنه ما زال يذكرها منذ أعطاها البطاقة.
طمأنها أنه لن يدخّر وسعًا لتعويضها بما يتناسب مع مصابها الجلل، ليس مصابًا

واحدًا، بل اثنين.
سيستغل ظروفها، وظروف أخيها المعاق أفضل استغلال ممكن.
كل ما عليها أن تقوم بعمل توكيل رسمي له، وسيرشدها سكرتيره للكيفية، بل سيساعدها أيضًا، وبعدها تترك له كل شي، وليس عليها أن تقلق البتة.
سخرت لنفسها.. ليس عليها أن تقلق؟
وهل لمثلها نصيب من الدنيا.. سوى القلق؟

* * *

أخبرها مساعدها أنه قد حاول الاتصال به مرارًا وتكرارًا فلم ينجح.
نعتته بالكاذب، وربما بالحقير، فأخبرها أن تحاول بنفسها لتتأكد.
في قهر ألقت بتليفونها المحمول نحو السرير فكاد يسقط أرضًا وينكسر، زفرت في حنق، ودفنت وجهها بين كفيها في قنوط. كان الصوت الإليكتروني القميء الذي يجاوبها من الطرف الآخر معلنًا أن هذا الرقم قد يكون مغلقًا أو خارج نطاق الخدمة، بمثابة السباب القذر في أذنيها. لوهلة فكّرت أن سليمان لا يرغب في مكالماتها وأنه ربما قد غيّر رقم التليفون، إلا أنها واثقة أنه غير موجود فقد أرسلت مندوبها أكثر من مرّة يسأل عنه في الأوبرا، وبطريقة ما استطاع أن يعرف مكان سكنه من زملاء له بالفرقة، وراقبه مرّات عدّة، وسأل عنه بعض الباعة والجيران، ولكنه غير موجود. هتفت لنفسها بصوت مسموع:
ـ ممكن أفهم إنت ليه ظهرت في حياتي؟ ليه غيّرتني؟ ليه عملت مني واحدة تانية أنا ما اعرفهاش؟ ليه مش قادرة أكمل العيشة بتاعتي اللي كنت متعوّدة عليها ومبسوطة؟ ليه تعمل كدا يا سليمان؟
صمتت لوهلة لتتأمل وجهها ممسوح المساحيق في المرآة الكبيرة المقابلة للسرير، فأحسّت كما لو أنها الآن مسخ مشوّه، شدّت جفنها الأيسر السفلي لأسفل، واقتربت من المرآة أكثر، شدّت وجنتيها لتتأمل الهالات السوداء التي أخذت مكانها تحت عينيها ربما للمرة الأولى في حياتها.
تساءلت لوهلة.
أيعقل أن بعض التجاعيد قد بدأت تشقّ طريقها نحو صفحة بشرتها الرائقة؟
ما مر عليها ليس بالكثير، هي عدّة شهور فقط، أيعقل أن يتغيّر المرء هكذا في عدة شهور؟ أن يشيخ ويهرم ويتهدّل ويتبدّل ويصير كائنًا آخر لا يعرف عنه شيئًا؟ في عدة شهور؟! فيما مضى كانت تشعر أنها مالكة هذا العالم، والمسيطرة على مقاليد أمورها. كان الرجال يلقون بأنفسهم تحت أقدامها ويعرضون كل غالٍ ونفيس، وكان دورها أن تتقن إيقاع الفريسة في شباكها بالنسق الذي يضمن لها السيطرة الكاملة. هي فقط من تعطي الإذن بالبدء، وهي فقط التي تبدأ عملية النهاية بمنتهى الحرفية والذكاء. الآن يبدو كما لو أن مفتاح التحكّم فيها

قد صار في يدِ آخر، في يدِ عازف الكمان الشاب الذي خلب لبّها، وشغفها حبًّا. ولكنها لا تجده، ولا تتمكن من الوصول إليه، بكل نفوذها وعلاقاتها، وخدّامها. وحتى إن وصلت إليه، فلا يعني ذلك الوصول إلى قلبه، إلى رضاه وصفوه، إلى وصله وعطفه وحنوّه وحضنه! لا يعني أي شيء.. إذ لا سلطان في ذلك لمخلوق على آخر.

الاعتراف الصادم يقتلها ويذيبها أكثر فأكثر؟

ذلك؟ ما تراه ذلك؟ أيعقل أنه الحب؟

أيعقل ذلك يا مَلَك؟ أتحبينه يا مَلَك؟

أطرقت بوجهها في حزن شديد، مدركة أنها سقطت ضحية مَن لا يرحم.

الحب فقط هو ما يغيّرك للدرجة التي تفقد فيها قدرتك على تعرف نفسك التي كانت، بل تحس بالدهشة وعدم تصديق نفسك التي آلت إليها.

ـ باكرهك يا سليمان.. باكرهك لأن ما كانش ينفع إني أحبّك. ما كانش ينفع إنك تكون غريب كدا. ومختلف كدا. وسخيف قوي كدا.

ضربت بكفها المضمومة صفحة تسريحتها فاهتزت الزجاجات والعلب التي تحوي مستحضرات تجميلها وما تبقى من عطورها بالشكل الذي أسقط بعضهم أرضًا، أو على سطح التسريحة بشكل عشوائي.

ـ باكرهك يا سليمان لأنك صدّيتني، ورفضتني. باكرهك لأني مش عارفة أنولك ولا أخليك تحبني إزاي. باكرهك لأنك خلّيتني ضعيفة، ومقهورة، وبادوّر عليك زي المجانين.

كانت دموعها الآن قد بدأت تتسلّل من بين جفونها لتسيّل بقايا من كحل بها، يصنع المزيج سائلًا هبابيًّا أسود يصبغ ما تحت عينيها ووجنتيها بخرائط عشوائية حزينة.

لا تدري من أي بؤرة سرية في جسدها بدأت موسيقى سليمان تملؤها مرة أخرى.

رفعت وجهها نحو السقف ورفعت يديها في ابتهال خاص.

ـ يا رب.. يا عالم بالحال، أنا عارفة إني مزعلاك قوي، ومقصّرة قوي، بس أنا عارفة إنك بتحبّني قوي، ومحتاجالك قوي.

صار البكاء نشيجًا يرج كيانها وهي تستأنف الدعاء في لوعة.

ـ يا رب! أنا مش قادرة على كدا يا رب. يا تجيبهولي، يا تشيل حبُّه من قلبي. أنا فاض بيَّ يا رب. ساعدني يا رب.

كانت نغمات سليمان الآن كأنها تملأ كل جنبات المنزل، كأنه موجود ويطوف أنحاءه عازفًا حيًّا كائنًا موجودًا. تناولت تليفونها الذي ألقته على السرير، وطلبت رقمًا من المكالمات السريعة.

ـ حاتم.. أنا عايزة أطلع عُمرة يا حاتم.

ـ ...

ـ أيوه يا حاتم.. احجز لي عُمرة بليز في أسرع وقت..

ـ ...

ـ أيوه يا حاتم.. تعبانة ومحتاجاها.

ـ ...

ـ متشكرة قوي يا حاتم.. ربنا يخلّيك!

حاتم معتاد أن يحجز رحلات سياحية، فنادق، يستأجر بلطجية، يدفع إكراميات لتسهيل أمر ما، يدفع فواتير حفلات، يجلب ضيوفًا ويرافقهم للاحتفاء بهم. كل ذلك يفعله حاتم ويتقنه، أما هذه الأشياء الجديدة الغريبة التي تطلبها منه المدام، فهي بمثابة معرفة جديدة له، عُمرة؟! حاتم عارف يشتري بطاطين ويحجز رحلة عُمرة؟!

الآن.. تأتيه الرنة الثانية.

ـ أيوه يا حاتم! ما تحجزش حاجة! أنا هاعرف أتصرف!

أغلقت المكالمة، لتقول لنفسها في صوت خافت مملوء بالإصرار والتحدي:

ـ هاعرف أجيبك يا سليمان! هافضل وراك لحد ما أجيبك! هاعرف مفتاحك منين وهاجيبك! ومش هاضعف! ومش هاتقهر كدا عليك!

أخذت نفسًا عميقًا وهي تنظر لصورتها الممسوخة في المرآة، فتبدأ في مهمة تتقنها جيّدًا. ولم يمر سوى عدة دقائق حتى عادت مَلَك الفاتنة المغوية رائعة الجمال مرة أخرى لتقول بحنق شديد:

ـ هتشوف يا سولي! والله لتشوف!

٢٣. القـوّات السـوداء

يختفى الحائط الأول، فالثاني، فالثالث، فالرابع، ليظهر النفق الضبابي الدوامة.
يصل سليمان العازف، ليجد الوجوه عابسة، والقلق مختلط بالأثير، فعرف أن المملكة قد تعرّضت لهجوم جديد، بل إن أجزاءً من القصر نفسه قد تهدّمت نتيجة الهجوم وهو ما يحدث لأول مرة. وفي غرفة الاجتماعات التي صار لونها أخضر بكل مكوناتها عرضت الشاشة مشاهد القصف والتفجير ومئات القتلى والجرحى.
وقف مستشار الحرب بجوار الشاشة شارحًا:
ـ هذا ما حدث في المقاطعة الثانية يا مولاي.
ڤيديو آخر لمحاولات الهجوم على القصر ليستطرد:
ـ وهذا ما حدث للقصر والمقاطعة الخامسة.
بدت الدهشة على وجه سليمان فمالت ريحانة الجالسة على يساره تخبره أن المملكة مكونة من خمس مقاطعات حسب خصائص أرضها وسكّانها من حيث وظائفهم ونشاطاتهم بل مدى رقيّهم وقدراتهم المالية، في الحقيقة هم أربع مقاطعات، بالإضافة إلى مقاطعة خامسة مركزية وتلك التي يقع فيها قصر الحكم.
استأنف مستشار الحرب عارضًا بعض الصور الأخرى:
ـ بالطبع تصدّت قواتنا لتلك القوّات المغيرة، ونجحنا في إسقاط بعض طائراتهم، ولكننا لم ننجح في أسر أي أحد من جنودهم أحياء.
ـ يعني إحنا في حالة حرب فعلًا؟ يعني فيه حرب دايرة ومعلنة؟
أطرق مستشار الحرب أرضًا، وبدا عليه أنه يلتمس بعض المساعدة:
ـ الحقيقة يا مولاي أننا لا يمكننا أن نطلق لفظة حرب على ما يجري، بل هو نوع من الهجمات المفاجئة والتي لا نتمكن من استباقها ولا معرفة مصدرها على وجه التحديد.
ـ ليه؟ مش المفروض فيه رادارات مثلًا؟ أو أي حاجة نقدر نراقب بيها الحدود؟ مش معروف الطيارات دي بتيجي منين.. وبتاعة مين؟
ـ الأمر أعقد من ذلك يا مولاي. فنحن لا حدود لنا بالشكل المفهوم فحدود مملكتنا هي العالم المحيط بنا. كما أننا لا نعلم على وجه التحديد أي شيء عن طبيعة هؤلاء المهاجمين. حتى إننا اعتدنا تسميتهم القوات السوداء، نسبة لملابسهم ولون طائراتهم. نحن لا نعرف لهم أرضًا، ولا وجود لهم إلا حين

يهاجموننا.
ـ إزاي يعني؟ هو فيه حاجة اسمها كدا؟
ـ آ... آ... آ...
تلعثم مستشار الحرب ولم يجد ما يجيب به سلطانه العازف، فالتقط رحيم منه الخيط مستأنفًا:
ـ كما أخبرتكم قبلًا سيدي السلطان أننا لا نعرف من هم على وجه التحديد. البعض يقول إنهم بعض أسلافنا الأوائل ممن حملت قلوبهم بذور الشر والدمار والتخريب الذين تركوا أرضنا ورحلوا. والبعض يقول إنهم لا ينتمون لعالمنا أساسًا وإنهم يغيرون علينا من عالمهم الآخر لتنفيذ هجماتهم والاختفاء بعد ذلك ثانية عبر فجوة فضائية أو ممر سريّ يمكّنهم من الوصول إلينا دون رصد، وربما يشوّشون على أجهزة رصدنا بتقنية نجهلها بحيث لا نستشعر حدوثه من الأصل.
ـ ليه؟ ليه بيعملوا كدا؟ هدفهم إيه؟ وليه ما يكونوش بييجوا زي ما أنا باجي.. زي ما في طريقة أنا باعرف أجي لكم بيها وهي المقطوعة اللي أنا باعزفها على الكمنجة بتاعتي.. ليه ما يكونوش الجماعة بتوع القوات السوداء همَّ كمان عندهم طريقة بييجوا بيها زيي وفجأة بيظهروا لكم؟
ـ آ.. آ... آ...
تلعثم رحيم ولم يجد جوابًا.. فتحدّث المستشار العلمي:
ـ هذا هو أكبر الظن يا مولاي أنهم يتسللون إلى عالمنا عبر نفق كوني أو عدة أنفاق تمامًا تفتحها ذبذبة خاصة ومن الممكن أن تكون موسيقية كما افترضت سيادتكم. المشكلة أنهم فقط من يتحكّمون فيها، بحيث نجهل دومًا موعد ومكان انفتاح مثل هذه الأنفاق. منها يتسللون، وإليها يعودون، ثم تنغلق دونهم قبل أن نتمكّن من الدفاع عن أنفسنا بالقدر المناسب. ولقد رصدت أجهزتنا هذه الذبذبات المتغيّرة تحدث بشكل أشبه بخطوط رسم الزلازل أو رصد ثورات البراكين قبل أن تنفتح هذه الأنفاق بدقائق قليلة. وهذا فقط ما يحذّرنا ويمكّن قواتنا من مقابلتها والتصدّي لها على نحو ما قبل أن يكون الدمار شاملًا والكارثة كبيرة.
ـ برضو ليه؟ أكيد ليهم غرض من كدا؟ أكيد قالوا حاجة.. طلبوا حاجة.. عايزين حاجة..
ـ آ... آ... آ...
سعل أكبر الحكماء متنحنحًا وهو يقول:
ـ مولاي السلطان، أعرف أنك هنا تصديقًا للنبوءة، ولم تكن لنا اختيارًا، ونحن محمولون على أن نؤمن بالحل الذي سيأتي على يديك، ولقد علّمَتْنا الأيام أن نؤمن بما لا نعرفه، لأن حدود ما نعرفه سيظل قليلًا مهما زاد. كلام أسلافنا

والرسوم الموجودة في الغرفة المقدّسة كلها أخبرتنا بك أو ما نحسب أنه أنت. لذا فنحن نثق بك على الرغم من صغر سنّك وغربتك عن عالمنا، ربما لأنه لا يوجد ثمّة اختيارات أخرى.

ـ يا سيادة الحكيم.. صدقني أنا كمان ما اعرفش أنا هنا ليه.. وما اعرفش إزاي أسلافك اتنبؤوا إني هاجي.. ومش متخيّل إزاي يرسموني في الأوضة المقدّسة.. بس أنا حياتي في العالم بتاعي بقت جحيم.. وكل دا بسبب العالم بتاعكم اللي انتوا بتقولوا إن أنا السلطان فيه.. لدرجة إن أبويَ شخصيًّا اللـه يرحمه زارني فيما يبدو إنه حلم، أو جايز اتجسّد ليَّ وأنا مش عارف، وطلب مني إني أعمل المهمة بتاعتي.. بيتي بالاقي فيه رسايل من العالم بتاعكم.. حتى الأميرة ريحانة زارتني وأنا في غيبوبة المرض تلومني إني اتأخرت عليكم.. كل حاجة في العالم بتاعي بتزقّني على العالم بتاعكم.. وأنا فعلًا محتاج أفهم كتير لأني جاهل وما اعرفش حاجة.. ومش هاعرف حاجة إلا من خلالكم.. وأهم حاجة لازم أعرفها وأفهمها هي.. الناس دي عايزة منكم إيه؟

ـ بعض الأشياء تكون واضحة يا مولاي ولكننا نرفضها ونخشى الاعتراف بها.

ـ يعني إيه؟

ـ اسأل نفسك يا مولاي وانتظر من نفسك الإجابة فالنفس الصافية أقرب للحقيقة من كلام الآخرين.

ـ يعني إيه؟ يعني إيه؟

هنا هبّ حاكم المقاطعة الثانية من كرسيه وهو يشير بيديه للجالسين بالاتهام:

ـ الكلام واضح كما يقول الحكيم أيها السلطان الذي جئتنا لا نعلم من أين. المشكلة هنا، والخيانة من هنا. ولكن صفوة القوم هنا يرفضون الاعتراف بذلك. لأننا كالعادة كبش الفداء، مهدور دمنا عبر التاريخ، فنحن نمثّل الشعب العادي الغلبان. نحن مثلًا لسنا كشعب المقاطعة الثالثة نمتلك المصانع وخيوط التجارة والمال، ولا المقاطعة الرابعة التي بها العلماء والمهندسون والأطباء، وحاشا للـه! لا نساوي شيئًا بجوار شعب المقاطعة الأولى التي منها الساسة والوزراء والجيش. نحن يا سيدي السلطان ملح الأرض الذين لا ثمن لهم. أخبروه بما تفعلونه؟ هيّا.. أخبروه؟ لماذا أنتم صامتون كأن على رؤوسكم الطير؟

هنا هبّ حاكم المقاطعة الأولى زاعقًا:

ـ هل جننت يا فضيل أم نسيت نفسك؟ أليست مقاطعتك هي أول من حاولَ التواصل مع شعب القوات السوداء؟ ألستم من بعتم لهم بعض منتجاتكم ومحاصيلكم واستعنتم بهم في تخصيب الأرض وتهجين المحاصيل بدعوى العوز والحاجة؟ أنتم أوّل من تعامل معهم والوحيدون الذين يمكن لهم أن يصفوهم، بل إن بعض أبنائكم يقال إن حوّامات كبيرة من عالم القوات السوداء قد جاءتكم فأخذتهم للعمل في عالمهم؟ أنسيت ذلك يا فضيل؟! الخيانة التي تتهم بها

زملاءك هنا كنتم أنتم أول من قام بها.. أنتم الخائنون! وأنتم من فتحتم علينا بوابات جهنم التي لا نعرف كيف أو متى ستنغلق، أو نهلك جميعًا دون ذلك. على الأقل أنا أفقد من رجالي العشرات بل المئات في كل مرة يهجمون علينا، ولكننا نؤمن أن هذا هو واجبنا، وعلينا أن نبذل أرواحنا فداء مملكتنا وشعبنا ووحدة أراضينا.

صفّق فضيل في تهكّم واضح وواصل هجومه المرّ اللاذع:

ـ شعارات جوفاء وكلام تخاطبون به الشعب الأبله فيصدقكم!

ـ تأدّب يا فضيل ولا تنسَ نفسك!

ـ بل أنت الذي نسيَ نفسهُ يا أكثم.. أم أتأدّب وأقول يا سيادة القائد المبجّل أكثم! ألا تتعاونون أنتم أيضًا مع شعب القوات السوداء لشراء الأسلحة ووضع المملكة في حالة من الفوضى والقلق ليرزح الناس تحت نير الخوف فتهبّون أنتم لنجدتهم كالملاك الحارس وحينها تطالبون بمقاليد الحكم وعندها لن يكون في وسع أحد الاعتراض؟ فالخائف يلبّي أي رغبة من رغبات من يتوسم فيه الحماية من الخطر المجهول! أتنكرون محاولاتكم المستمرّة التأثير على القصر وقراراته، بل لجنة الحكماء والوزراء والمستشارين بإيعازكم المستمر عن مدى صحّة قرارٍ ما، دون غيره؟

وبّخه حاكم المقاطعة الثالثة:

ـ لقد تجاوزت حدودك يا فضيل! هيا اجلس وكفاك إثارة للشغب!

ـ شغب؟ نحن من نثير الشغب؟! أنتم شعب المقاطعة الثالثة سبب كل شغب! فأنتم مستحوذون على المال والتجارة والصناعة وتقيمون العلاقات الاقتصادية والتجارية مع شعب القوات السوداء بل تتحالفون مع الشيطان ذاته لخدمة مصالحكم. أنتم من تغذّون وتمولون القادة والسياسيين والجيش وتصوغون من القوانين ما يخدمكم ويخدم مصالحكم فقط. أنتم من تحرّكون كل شيء كعرائس الماريونيت الخشبية من خلف الأستار دون أن تزجّوا بأنفسكم في أي مشكلات أو مواجهات. وحتى لو احتلت القوات السوداء مملكتنا فستجدون طريقًا ممهدًا للتعاون والتكيّف والخلاص!

ـ هل نسيت أن أغلب عمالنا وموظفينا من مقاطعتكم، ولولانا لمتّم من الجوع والعطش؟! نحن من نوفّر لكم سبل العيش الكريم ونعمل على رفاهيتكم ورفعة شأنكم.. ولولانا ما كنتم، ومن دوننا لن تكونوا!

صفّق فضيل بيديه أكثر فأكثر في سخرية وهو يقول في تهكّم أشد:

ـ نشكرك كثيرًا يا أستاذ يا قدير، فأنتم أولياء نعمتنا بلا شك!

قلّب قدير شفتيه في عدم اكتراث..

هنا هتف رحيم بهم في صوت متضعضع:

ـ ماذا تفعلون أيها التعساء؟! أهكذا يكون أبناء المملكة الواحدة وقت الشدائد؟ أهذا ما نستقبل به سلطاننا الذي ما جاء إلا لمساعدتنا؟ رحماك يا ربي! متى ضرب الفساد والكره والبغضاء جذورهم في أعماقنا هكذا؟ أبعد ذلك نندم من هجمات القوات السوداء علينا؟ واللـه لو تركونا وحدنا لقضينا على أنفسنا دون أي مساعدة منهم! أهذا ما كان يأمله الأجداد والأسلاف فينا؟ هؤلاء الذين أقاموا الحضارة وأنشؤوا المملكة من لا شيء تقريبًا! سحقًا لكم ولخلافاتكم الصبيانية!

أطرق الجميع بوجوههم أرضًا وسليمان يراقب كل ذلك في حنق وقد أيقن أنه لا يمكن له بأي حال من الأحوال أن يصلح من شأن هذه المملكة. ما الفارق بين هنا وعالمه؟ لا شيء.. لا شيء البتة.

كيف يمكنه هو الشخص الضعيف الواهن أن يصلح شأن كل هؤلاء وهو لا يستطيع أن يحل مشكلات حياته الشخصية؟ كيف ينجح مع تلك الشروخ الضاربة في عمق الأعماق، وهو غير قادر على رأب الشرخ الذي بداخله هو؟

مالت عليه ريحانة للمرة الثانية لتهمس في أذنه:

ـ حان الوقت.

ـ وقت إيه؟

ـ استكمال الجولة.

ـ طيب وأنهي الخناقة دي إزاي؟ أنا مش عارف أنا هاساعدكم إزاي ومشكلتكم كبيرة كدا؟

ـ أنت السلطان يا سليمان! يمكنك أن تنهي أي شيء متى أردت. أنسيت؟!

الحقيقة أن صوت ريحانة الخافت ونبرة صوتها العذبة بالإضافة إلى عطرها الأخّاذ قد بعثوا بعض الهدوء في نفس سليمان المضطربة الخائفة وقد عاودته ذكريات من جولتهما السابقة. فهبّ من كرسيه ليقوم الجميع احترامًا وتوقيرًا. فقال في لهجة حاول أن يجعلها واثقة:

ـ متشكر جدًّا يا جماعة.. واضح إن عندنا مشكلات كتير وأنا محتاج أفكّر فيها شوية ونشوف مع بعض هنحلها إزاي.. اتفضلوا دلوقتِ..

بدأ الجميع في الانحناء والاستئذان تضطرم بينهم الهمهمات والغمغمات الغاضبة، إذ يبدو أن خرّاجًا كبيرًا قد فُتح لتوّه، والقيح المخبوء فيه أكثر مما كانوا يظنون.

مال على أذن رحيم وأخبره أنه ذاهب مع ريحانة قليلًا، فأومأ برأسه علامة الفهم ووجهه حزين أسود مملوء باليأس والقنوط.

هكذا خلت القاعة في ثوانٍ ولم يبقَ فيها إلاه وريحانة فبادرها متسائلًا:

ـ هنروح فين المرة دي؟

ـ اتبعني فقط يا سليمان ولا تخف.

ـ أخاف؟ هه؟ منك إنتِ يا ريحانة؟ دا إنتِ الوحيدة اللي باتطمّن لها هنا..

ابتسمت ريحانة في خجل وتورد خداها فقد استشعرت في كلماته بعض الإطراء. واصطحبته عبر دهاليز القصر وممراته لحائط مصقول مُصْمَت. وفي بقعة معيّنة مدت راحة يدها المفرودة لتلصقها بالحائط، لينطبع أثر كفّها باللون الأزرق، الذي سرعان ما تحوّل للأحمر، فالأخضر، فالأصفر، وأخيرًا الأبيض، ليندلح الحائط كاشفًا عن غرفة ذات جدران مرمرية وأرض من الرخام الموشّى بالعروق الذهبية. كانت الغرفة خافتة الإضاءة لكنه ميّز على جدرانها ما يبدو أنه نقوش أو كتابات بلغة لا يعرفها، ثم لوحات قديمة شبيهه بلوحات المعابد الفرعونية، مرسوم عليها رجال سود يهجمون على أناس بسطاء، وفي أخرى فتحة في السماء يهبط منها الرجال السود، وفي ثالثة شاب بملابس ملكية يحمل كمانًا ويهاجم بقوسه الرجال السود، فرابعة، وخامسة، وسادسة.

أدرك كنه هذه الغرفة سريعًا فهمس في وجل:

ـ الأوضة المقدسة؟!

غشاء لطيف من دموع التأثر في عيني ريحانة ولم يخفَ عليه تلك الرعدة الخفيفة التي تسري في جسدها ولا شعورها بالوجل والتقديس وهي تطوف بعينيها بين الجدران، حتى إنها اكتفت بإيماءة الرأس علامة الموافقة. فسألها سليمان:

ـ وجايباني هنا ليه؟

فأشارت بيديها لمنتصف الغرفة تمامًا حيث يسقط شعاع ضوئي من نور صافٍ من فتحة ما في سقف الغرفة على ما يبدو أنه هيكل أو ضريح فور ولوجه.

ـ انظر يا مولاي.

اقترب سليمان قليلًا ليتبيّن ما أشارت إليه فوجد أربعة أعمدة من رخام مصقول تحمل فوق كل منها تكوينًا بلّوريًّا له مئات الأضلاع. هذا تكوين بلّوري أزرق، ثم أحمر، ثم أخضر، ثم أصفر. وفي الوسط تمامًا عمود أقصر قليلًا فوقه ماسّة ضخمة تنعكس ألوان التكوينات البلّورية الأربعة عن سطحها فتصنع ألف لون ولون متلألئ. نظر سليمان للسقف، فوجد الانعكاسات اللامعة الملونة تتراقص على السطح في أشكال هندسية متغيّرة باحتمالات وتباديل وتوافيق لا تنتهي.

كان المنظر باهرًا، فقال مشدوهًا:

ـ إيه دا؟ إيه دا يا ريحانة؟

نظر لها في ترقّب الطفل الذي سأل أمه قطعة من الحلوى، فقط ليري انعكاس الألوان عن صفحة وجهها الرائقة وعينيها العسليتين، فيظن أنها قد ازدادت جمالًا على جمالها، وأحس بنبضة قلب زائدة، وهي تقول بصوت يقطر عذوبة وفخرًا:

ـ هذا هو قلب المملكة يا مولاي! قلب المملكة النابض! هذا ما يبحث عنه شعب القوات السوداء! هذه البلّورات الأربع ترمز لمقاطعات المملكة الأربع، تنعكس أضواؤها وألوانها عن ماسة المنتصف التي ترمز للمقاطعة الوسطى أو القصر

الذي يجمع شمل كل المقاطعات، يهبط عليها النور من السماء، لتظل الماسة والبلّورات الأربع في حالة من الضياء وتداخل الألوان والأضواء وامتزاجها كما ترى.
ـ رااااااائع.
نظرت ريحانة لـسليمان ربما في ولَهٍ لم يلحظه:
ـ أنت يا سليمان هذا النور الذي هبط علينا من السماء لتحتفظ ماستنا ببلّوراتها الأربعة بنضارتها وضيائها! أنت يا سليمان هذا النور فلا تخذلنا.
ـ يعني دي لو اتسرقت أو خدوها بتوع القوّات السوداء ممكن يحصل إيه؟
ـ ما الذي يحدث إذا سرقت النور والضياء؟
ـ العالم هيبقى ضلمة.
ـ بل لن يكون أصلًا، سيفنى! لطالما كان النور مطمعًا لكل المخلوقات منذ نشأة الكون وحتى اندثاره. النور هو الحياة، هو الروح، هو الجمال والبهاء والرقي والعُلا. الملائكة من نور، ألا تبحث كل المخلوقات عمّا صنعت منه الملائكة؟!
سكت سليمان وأخذ يتأمل النقوش واللوحات مرّة أخرى، ثم يعود ببصره لماسة وبلورات قلب المملكة.
ينظر لوجه ريحانة الذي يتأمله في أمل.
يرى النور في عينيها، والضياء في وجهها، والبهاء من طلّتها.
يرى الكون كلّه كأنه هي.
يرى الديمومة والصفاء والنقاء والخلود الذي لا تشوبه ذرّة من خبث أو دنس أو دونية.
الآن يدركه التعب، فينام، فيعود كل شيء كما كان، ويجد نفسه على سطوح عمارته وتلألآت قلب المملكة ما زالت تلمع في عينيه. وعلى الكومودينو المجاور استقرّت علبة مخملية خضراء منقوش عليها حرف لا الموسيقي.

الوتر الرابع

ـ وتر مِي ـ

«إلا أن تلك الأخيرة لم تستطع أن تضعف من مركز آلة الكمان أو أن تنال من سيادتها، ذلك أن البيانو والكمان آلتان لا تتضاربان، بل تتعانقان، فلكل منهما خصوصيتها حتى لكأنهما يتكاملان».

٢٤. صفعات كثيرة تؤلم أكثر

ارتبك الشاعر الشاب قليلًا رغم اعتياده إلقاء قصائده على الملأ.
ربما كان ثمّة فَرق بين الجمهور الذي اعتاده، وبين جمهوره الآن. ربما لم يرَ مكانًا كهذا من قبل. وربما لأنه مندهش من كونه يظهر في المشهد بدورين مختلفين، فهو نادل في المكان يقوم بخدمة الزبائن، والمثير للدهشة أكثر أن أغلبيتهن من النساء، وبالتحديد فئات عمرية معينة، إذ كيف يتسق هذا مع ظهوره على خشبة المسرح الصغير ليؤدي عرضًا ارتجاليًّا يتضمّن بعض قصائده؟! المكان نفسه خديج مهجّن من أثر اقتران حانة بمقهى وربما الحانة نفسها كانت ابنة ماخور في أحد مراحل تطورها. ألا يرتبك الشاب قليل الخبرة بعض الشيء من وجوده في مثل ذلك المكان. حتى تلك الملابس الضيّقة التي يضطر لارتدائها كرداء رسمي للمكان، التي تشبه كثيرًا زيّ راقصي الباليه، تثير لديه الشعور بالعري. ما شعور تلك المانيكان البلاستيكية التي يعرضونها في الڤاترينات الزجاجية؟ بطريقة أو أخرى هو نفس ما يشعر به جلال الآن. بالطبع لم يكن لدى الشاعر الشاب المبحر في محيط مجهول بسفينة اسمها نرمين.. أيُّ نوع من رفاهية الاعتراض. أراد أن يعمل، وها قد نال مطلبه. زيادة المرتب، وارتقاء المستوى الاجتماعي لمرتادي المكان، بل كمية البقشيش، ونوعية عملاته، كلها أمور تدل على ارتقائه سلم الطموح درجة عن كونه عاملًا في محل للملابس. أليس كذلك؟
رويدًا رويدًا، يبدأ الشك ليزداد، ثم يتطوّر، ليصبح شبه يقين، فيغدو يقينًا، حتى يمسي يقينًا كاملًا، كأنما لم تكن الفراشة دودةً يومًا ما. لذا فإن الطريقة التي كان يرى بها زملاؤه وهم يتحدثون مع الزبائن، ولغة أجسادهم أثناء الحديث، ثم رؤية بعضهم يغادر قبل انتهاء فترة الدوام الرسمي، ورؤية البعض الآخر بعد انتهاء الدوام وهم بصحبة بعض الزبائن في سياراتهن الخاصة، تلك الأحاديث الهامسة وأحيانًا الضاحكة في غرفة خلع الملابس عن سهرات الأمس وما فعله فلان أو علان مع فلانة أو علانة، كلها، كلها، أكّدت ظنونه عن كُنه المكان برمّته. وللمرة الأولى منذ اختار جلال لنفسه أن ينجذب لبريق الفرصة، يستشعر بعضًا من الخزي والندم. تلك الأشياء التي لا يجلبها المرء لنفسه دون بصيص من مبادئ أو أخلاق، الأمرين اللذين صنّفهما لنفسه كرفاهية، أو كمالية، أو شيئًا لا لزوم له لأن الحاجة تميتهما. الآن يكتشف أن الموت نفسه شيء نسبي، وأن كثيرًا مما نظننا أمتناه ودفناه وأشبعناه موتًا، ما هو إلا بمثابة النار تحت الرماد، أو أن الرماد نفسه لم يكن سوى رماد عنقاء تنتظر بعثها من جديد حينما تجد الجذوة المناسبة لانبعاثها. ربما لمسة تلك الخمسينية غير البريئة لإليته، أو محاولة

تلك الأربعينية شبه السكرى لإلقاء نفسها على صدره، أو تلك العشرات من أرقام التليفون التي وجدها على مناديل المكان وهو يسترجع الأكواب والأطباق الفارغة، ربما كل هذا وذاك هو ما أشعره أنه حتى الانحدار، ربما له حدود عليه ألا ينجرف عنها. يملأ المرء كأسه يومًا بعد يوم حتى يصل إلى تلك النقطة التي يختار فيها أن تحدث المواجهة. هي نفس النقطة التي لا يعود أي قدرة للكأس على إضافة المزيد فيقول لنفسه إنه آن له أن يواجه حبله السُريّ ويحدّد لنفسه لحظة الفكاك.

لذا خفّفت المرأة الخبيرة من سرعة جريها على المشاية الكهربائية وأزاحت السماعات عن أذنيها وبدأت تجفف عرقها الذي ينضح غزيرًا ثم تناولت زجاجة عصير البرتقال لترشف منها على مهل رشفتين أو يزيد.

كانت مدام نرمين تنتظر هذه اللحظة هي الأخرى، إذ إنها قد استشعرت الملل أخيرًا في علاقتها بـجلال، بل إنها قد استقر بها الرأي بالفعل على البديل بعدما رأت ذلك المطرب الشاب الذي يذكرها صوته كثيرًا بمحمـد قنديل في حفلة موسيقية خاصة. كما أن تكوينه الجسماني أفضل بكثير من جلال، وبشرته داكنة أكثر، وهي لا تنكر انجذابها للبشرات الداكنة.

كان الانفعال يمزّق داخل جلال حتى لو أن ما يشعر به الآن قد صار قصيدة، فلا بد أنها ستكون الأروع. أما نرمين فكانت هادئة كأنما تخضع لتصفيفة شعر جديدة.

ـ ولا يهمّك يا جلجل. نو بروبليم يا بيبي. إحنا قضّينا يومين حلوين. وهنفضل صحاب زي ما ابتدينا صحاب.

ازدرد لعابه بصعوبة فقد كان يحتاج لغضبها حتى يطفئ ما يشعر به من إهانة. إلا أنه حاول أن يبدو هادئًا وهو يناوش مناوشاته الأخيرة:

ـ بس أنا ما كنتش أتخيل إنك تودّيني مكان زي دا يا نرمين.

ـ مدام نرمين يا جلجل. ما تنساش. الموضوع خلاص أوڤر. وإحنا مش في أوضة النوم هنا.

ـ أنا كنت فاهم إني حاجة بالنسبة لك يا مدام نرمين. وكنت فاهم إني لما أطلب منكـ...

ـ من حضرتك. (ثم رشفت من العصير مرة أخرى).

ـ كنت فاهم إني لما أطلب من حضرتك شغل، إنه يكون شغل محترم، مش أكون شخشيخة ولعبة لشوية ستات.

ـ أنا شغّلتك في اللي جرّبتك فيه ولقيتك بتعمله كويس. أمّال كنت فاكر نفسك إيه؟ إوعى تفتكر الكلمتين الفاضيين اللي بتقولهم دول ليهم قيمة يا بيبي. دول مجرّد إفّيه، لازمة كدا لزوم التميّز. إنما انت حيلتك إيه تاني غير شبابك؟

ـ الشعر مالوش قيمة؟ أمّال كان بيعجبك إزاي؟

ـ ما انكرش إنه بيعجبني، بس هو بالنسبة لي جزء من الصورة الكاملة، مجرّد ميزة بتميّزك عن الباقيين. عجبتني شوية فقلت أدّيك الفرصة بس انت رفضتها. حقّك طبعًا، بس الحقيقة إن أنا كمان زهقت، ودورك بالنسبة لي انتهى. خلاص يا بيبي. الحفلة خلصت، والناس روّحت.

ـ دوري؟ حفلة؟ بس؟

قهقهت بصوت عالٍ وهي تواصل جلده بسياط من لهب:

ـ أنا مستغربة قوي يا جلال، وبصراحة كنت فاكراك أنضج من كدا، وفاهم أكتر من كدا. إخص عليكِ يا نرمين، للدرجة دي خبتِ وبقيتِ ما بتفهميش في الناس؟!

تناولت حقيبة يدها لتخرج رزمة من الأوراق المالية دفعتها نحوه وهي تصنع خروجه المسرحي من الأحداث:

ـ سوري يا جلال أنا كنت فاكراك فاهم وعارف وراضي وموافق. سامحني. أنا اللي حطّيتك في دور مش بتاعك. بس لازم تعرف يا جلال إن كل واحد في الدنيا دي ليه نغمة معينة الناس مستنية تسمعها منه، يعني ما ينفعش تعزف على مزاجك وإلا الناس هتحدّفك بالبيض والطماطم. ما تنساش يا جلال، لازم تكون زي ما الناس عايزاك.. لو كنت فعلًا عايز الناس يعوزوك، غير كدا... هاااا.. بيض وطماطم. ما تنساش... باااااي.

* * *

آمنَت دومًا أن طريقين مختلفين ربما يصلان بها لنفس المكان.

وهو ما رقّ بسببه قلبها وطوّعت شغفها ليتخذ مسارًا موازيًا أو مغايرًا أكثر رصانة ورزانة وهدوءًا. وحينما تتوقف المناوشات والمناقشات والجدالات الصغيرة المحبّبة بين مختَلِفَيْن من الأحباء فإن هذا لا يعني أبدًا وصولهما للمنطقة الرمادية الدافئة الآمنة. مخطئ كل مَن يظن السلامة والأمان في أنها توقّفت عن انتقاء واختيار الأذواق والقرارات التي يعترض عليها خطيبها عادةً، وإن حدث، فإنه هو أيضًا قد كفّ عن لفت النظر والاعتراض. الفتور مقدمة الصمت، وعادة ما يقترن الصمت بالموات، وإكرام الأموات دفنهم، حتى لو كانت الأموات مشاعر وأحاسيس.

لذا فبعد محاولات عديدة من علا للتغلب على تردّدها ومعاودة الاتصال بـسليمان، وسماعها لمقطوعته الموسيقية آلاف المرّات، وجدت نفسها في نفس المكان الذي عادة ما يجمعها بخطيبها ـحتى الآنـ ياسر، وليّ النارجيلة في يدها، وإن لم تتصاعد أبخرة الحجر، ربما الحرارة التي تمسّ سطحه الآن غير كافية لأن يصدر عنه دخان أو تفوح منه نكهته وطعمه. حتّى ياسر الذي تقمّص دور الفارس لفترة كانت كافية لوضع ذلك الطوق المعدني خافت اللمعة على بنصره الأيمن باسمها الذي ينقش داخله، صار واجمًا عاديًّا تمامًا كما كان. صوت أديل Adele يصنع الموسيقى التصويرية، والنادل الذي اعتاد مضايقتهما

ومقاطعتهما قبلًا قد تغيّب اليوم دون عذر.
أحيانًا ما يكون الصمت بليغًا عندما تتحدّث العيون عوضًا عن الألسنة، لكن حينما تتشاغل العيون بتأمل فراغات الكون الفسيح، ورسم الأشكال الهلامية المصنوعة من أدخنة الآخرين، يصير الصمت عندها هو الكلام المقصود قوله.
الأفكار أراجيل تقرقر في صوت يكاد يهتك أستار الصمت المهيب.
تكاد الشفاه تفترّ عن كلمات لكنها أوهن من أن تفلت من عقالها.
تمر السنوات الألف كاملة بلا نقصان فيستدير كل منهما جهة صاحبه.
ينبسان بالكلمة الأولى لهما في الوقت ذاته:
ـ علا.. عايز أقول لك حاجة/ ياسر.. عايزة أقول لك حاجة!
طريقان مختلفان لكنهما التقيا هاهنا، لذا فإن علا حينما تركت ليّ النارجيلة الصامت وبدأت تلملم حاجياتها في حقيبة يدها، بينما ياسر يشير لنادل آخر ـغير نادلهما المعتادـ لإحضار الفاتورة داسًّا يده الأخرى محضرًا محفظته من جيبه الخلفيّ، كانا فعليًّا قد قالا كل ما يودّان قوله.
على الطاولة حيث اعتادا الجلوس وكان الحديث بينهما يومًا رائقًا طازجًا كخبيز الفرن، استقرّت الحلقتان المعدنيتان الباردتان التي يظن بعض الناس دومًا أن لها معنى.

* * *

ـ سيداتي.. آنساتي.. سادتي.. وحشتونا جدًّا.. جدًّا.. جدًّا.. ويسعدنا النهاردا نقدم لكم حلقة جديدة ومتميزة من برنامجكم الساخن قوي.. والحرّاق قوي.. واللي بتقدروا من خلاله إنكم تلتقوا بنجوم المجتمع وصفوته وتتواصلوا معاهم وتسألوهم في كل حاجة وأي حاجة.. برنااااااامج نجم في المحكمة.. وضيف حلقتنا النهاردا رجل أعمال متميز ظهر مؤخرًا بمشاريعه وطموحاته وأعماله الخيرية.. دا بالإضافة لامتلاكه لعدة قنوات فضائية متنوعة.. نجمنا اليوم قرّر مؤخرًا إنه يخوض معترك السياسة علشان يقدر ينفع بأفكاره وطموحاته شرائح أكبر من المواطنين على حد قوله.. وعنده خطط جديدة خصوصًا في المجال الاقتصادي والتجاري وكمان السياسي.. نجمي ونجمكم اليوم.. رجل الأعمال المعرووووف.. نااااادر عبدالرحمااااان!
ضجّ الاستوديو بتصفيق الحضور المأجورين، وبدأت الأضواء والكاميرات تنتقل من المذيعة الشقراء للجمهور للضيف المهم الذي رسم ابتسامة واسعة وهو يبادل الجماهير التحيّات في أسلوب مسرحي مستهلك، ثم أخيرًا استقر بها المقام على ذلك الحائط في خلفية المتحاورين الذي يحمل مجسّمًا ضخمًا لشعار البرنامج على شكل محكمة ونجمة ذهبية كبيرة خلف القضبان.

.....

تستعيد ذاكرته ذكرى ضبابية خاطفة كأضواء الاستوديو، عن شجار معتاد بين والديه. الأم قد اشترت له هدية ما لحصوله على نجمة ذهبية في أحد الامتحانات المدرسية. الأب يتشاجر معها متهمًا إياها بإفساد الصغير بتدليله وتعظيم شأن ما يفعله مهما كان صغيرًا. الأم تتهم الأب بإفساد الصغير بقسوته، فيرد الأب أن الشدة مع الذكور مما يحث عليه الدين، فترد عليه بجهله بالدين وأنه لا يعرف منه سوى المظاهر، فاتهمها بأنها ستصنع منه بنتًا كما كانت تود، وأنها ستكون السبب في إفساده، تعترف الأم ربما بخطأ تدليلها، ولكنه رد فعل على خطئه هو في تشديد العقاب والقسوة. ينتهي الأمر بتلك الصفعة المدوّية على خد أمه فيراها ترتج كأنما أصابها زلزال. يرى الدموع حبيسة مآقيها. ولا ينسى أبدًا تلك النظرة المتحسّرة في عينيها. تدوّي الصفعة مرّة أخرى فيذكرها طازجة كأنها تحدث الآن، فيستشعر ألمًا حارقًا مكان بصقة حسنية في وجهه، صفعة أمّه، وبصقة حسنية، الصفعة، البصقة...

.....

ـ ... يا ترى فعلًا حضرتك هتقدر تعمل كدا لما تنجح في انتخابات مجلس النوّاب؟

انتزعه تساؤل المذيعة الشقراء من ذكرياته المؤلمة، وبمنتهى القدرة والحنكة استعاد صفاء ذهنه وهدوء نفسه ليجيب عليها إجابته المدرّبة بعناية فائقة:

ـ مجلس النواب زيه زي الحياة، أنا من الناس، وطول عمري باخدم الناس من برا المجلس، وأنا عارف ومتأكد ومؤمن بقدرتي على خدمتهم أكتر وأنا جوّاه.. حب الناس وثقتهم فيَّ.. طبطبة على روحي.. الحب لازم يكون قصاده حب يا افندم.

مرّة أخرى تدوي صفعة أمه، وتؤلمه بصقة حسنية أكثر. يتكرر المشهد مرّات عدّة في ذلك البعد غير المرئي من خياله...

ـ ... علشان التقرير دا وحاجات تانية غيره، بعض الناس ربطوا بين حضرتك وبين الجماعات دي، فإيه رد حضرتك على الناس دي؟

مرة أخرى يتجاهل نادر ألمه ومعاناته ليغتصب ضحكة مجلجلة ويتبعها بتفنيد ما جاء في السؤال من اتهامات بمنتهى الحرفية والإقناع:

ـ ما فيش ولا دليل واحد.. وكل الحاجات اللي حضرتك ذكرتيها دي وعرضتيها في التقرير فيه ناس كتير غيري عملتها وعملت أكتر منها وما حدش شكك في وطنيتهم أو ولائهم للبلد وللنظام.. زي ما قلت لحضرتك.. مش معقول كل حد يخدم الناس نطعن فيه ونتهمه بالشكل المبالغ فيه دا... أنا صريح جدًّا وما ليش أكتر من وش.. نادر عبد الرحمن اللي قدام حضرتك دلوقتي وقدام السادة المتفرجين هو نادر عبد الرحمن الوحيد.. (ثم أردف بلهجة تهكمية إعلانية).. ليس لنا فروووع أخرى.. هههههههه.. هههههههه...

استمرت المذيعة تكيل له الاتهامات الواحد تلو الآخر، وتستعين ببعض المواد الفيلمية، والأحاديث المسجلة وعناوين الجرائد والمانشيتات، بينما يرد عليها

نادر بنفس الهدوء والثقة والابتسامة لا تفارقه.
ينتهي اللقاء، ويجلس في سيارته متجهًا لثيلا التجمع حين يصله الاتصال من الشيخ إسماعيل مثنيًا على أدائه ومستحسنًا إجاباته ومهنّئًا بحسن اختيارهم له ومتنبّئًا بعلو شأنه مستقبلًا أكثر فأكثر.
ابتسم في مرارة وقد أحس بالإعياء الشديد متسائلًا في قرارة نفسه عن الجانب الذي يميل إليه الآن؟ كل الكروت في يده، وعليه فقط أن يحسن اللعب ليحصد أعلى المكاسب على الطاولة، فطاولات اللعب لا تحتمل الخاسرين.
فرد أم جماعة، كم فائزًا تحتمل طاولات اللعب؟
أم تراه يثبت لذلك الرجل الذي اتهمه بأنه لن يصلح وأن تدليل أمه سيفسده، أنه لم يفسد؟
وأنه ناجح بكل المقاييس والمعطيات والأسانيد؟
فقط إخفاق وحيد مع شيء رغب في امتلاكه فعلًا وفشل! حسنية! أيستحق هذا انتقامًا منها ثأرًا لكرامته؟! الأمر لا يبعد عنه سوى بمقدار مكالمة تليفـــــ...
الآن ترده المكالمة التليفونية الجديدة، ينظر لكُنه المتصل في توجس وقلق.
في تردد يرد، ليأتيه صوت ثلاثيني أنثوي يبكي وينتحب:
ـ يا شيخ نادر.. الحاج.. تعيش إنت!
كلمات ثلاث فقط نطقت بهن زوجة أبيه الشابة، وقعهن كأنهن أول ثلاث كلمات يسمعهن بشر.
كلمات ثلاث كنّ يعنين له الكثير.
الآن يذكر آخر ذكرى راودته، ذكرى قسوة والده وصفعة أمه، فيستشعر ندمًا خافتًا كأنه سلاح فاسد لأن هذه الذكرى كانت آخر ما فكّر فيه نحو والده. بالطبع خلف نظارته الشمسية الداكنة وذلك الفاصل الزجاجي الداكن الذي يفصل بينه وبين السائق، لم يكن بمقدور أحد أن يرى تلك الدمعتين المترقرقتين في صمت مهيب على وجنتيه الناعمتين. تنهّد في حرارة وقد مرّت كل ذكرياته مع والده في سرعة فائقة، ولم يستشعر تلك الدمعتين المتسللتين دون أن يعي التفسير المناسب لهما.
أمه ماتت.. والآن مات أبوه.
أدرك الآن شعور المسجون الذي تفنّن سجّانه في تعذيبه وتهذيبه وتشذيبه وفقما ارتأى له، حتى ظلّ حبيس ظل هذا السجان حتى بعد ابتعاده عنه، ثم يرده الآن خبر وفاته.
أصحيح أن جزءًا منه سيفتقد هذا السجّان؟
أم أن كلّه سيلعنه؟
أيبتهج هذا المسجون الذي ارتبط العمر كله به بعد موته؟

أم سيبكي ذلك الجزء الملعون داخله عليه؟
ثلاث كلمات.. صفعة وبصقة.. دمعتان.. ومئات الأسئلة.

٢٥. الذين لا يتمكّنون من كتم مشاعرهم

ـ شايفة الست هند بقت عاملة إزاي؟

مصمصت الأخرى شفتيها وهي تغمغم:

ـ كانت في جرّة وطلعت لبرّا..

ـ ما حدش يشوفها يوم ما جت الشركة.. كانت بتلبس الجزمة فردتين غير بعض!

ـ ولا لبسها! واضح إن سفرية فرنسا جابت نتيجة.

ـ وواضح كمان إن المستر راضي عليها قوي، دا أنا سمعت مدام سيلفيا بتقولنا تعليمات إن ما فيش حاجة تروح للمستر إلا لما تعدّي على هند الأول.. وإن دي أوامره من هنا ورايح.

ـ بس.. بس.. لاحسن شكلها جاية أهي...

حوار عادي بين زميلتَي حسد، فالأمواج ترفع شأن البعض، فتعلو بهم فوق هامات آخرين. مجرّد فتاتين من نصيب كل الناس في الدنيا، إذ لم يفشل الناس دومًا في إيجاد أسبابهم الخاصة للشكوى من أنصبة الآخرين في الحياة، كأنما هذا الكون كمٌّ مهمل لا يجد من يسيّره ويحكمه. هكذا دخلت عليهما هند مفرودة الظهر، لامعة العينين، مصففة الشعر في عناية، بلباس بسيط أنيق رفيع الذوق والآيباد في يدها تتأكّد من شيء ما عليه. ألقت عليهما تحية الاعتياد تمهيدًا لدخول مكتبها المجاور لمكتب مستر كمال مباشرة، الذي صار مواجهًا لمكتب مدام سيلڤيا الآن.

ـ واضح إن وجهة نظري كانت صح.. على فكرة.. شيك قوي الطقم دا، والميك أب بتاعك كمان راقي وهادي.. شابوه.

ابتسمت هند لرئيستها المباشرة وصاحبة الفضل عليها إلى حد كبير ولسان حالها يلهج بالشكر والثناء. مكتفية بالابتسامة، ولسان الحال الواضح، استأنفت سيلڤيا:

ـ ما تنسيش يا هند تزوّدي ميتينج النهاردا الساعة ثلاثة وربع مع مجلس أمناء شركة چي. آر. سي.

ـ حاضر يا مدام سيلڤيا.

ـ ولازم تأكدي بالميل على الجروب الصيني لاحسن متأخرين كتير.

ـ حاضر يا مدام سيلڤيا.

ـ وتبعتي بوكيه ورد حلو كدا باسم مستر كمال لمستر محمود الدمياطي صاحب الدمياطي جروب لأنه اتحجز في آي سي يو القلب في دار الفؤاد.

ـ حاضر يا مدام سيلڤيا.

ـ و... و...

انتظرت هند وهلة وعيناها ترقبان شفتي الأربعينية المخضبتين بحمرة قانية. إلا أن سيلڤيا توقفت لوهلة وامتدت يدها في رقة نحو رقبة هند في شغف، وبرقة متناهية أمسكت بين أناملها بدلّاية العقيق الأحمر المتعلقة بسلسلة رفيعة قصيرة حول جيدها مباشرة أو أوسع قليلًا. التمعت عيناها لمعة حارت هند في تفسيرها وقد بدأ الترقّب ينهشها نهشًا.

ـ رووووعة.. دي نادرة قوي يا هند.. جبتيها منين؟ ما فيش عقيق بالصفاء دا خالص.

ارتبكت الشابة التي ترتقي مصعد النجاح بثبات، وتنحنحت، وتلعثمت، ولم تجد إجابة مناسبة. شيء ما داخلها منعها من أن تحكي ما دار بينها وبين نوّارة. شيء ما أخبرها أن بالأمر سحر وغموض من نوع ما، وأن هذه القصة تخصّها وحدها، فليست كل القصص للمشاركة. الآن دار بخلدها اسم شخص واحد فقط جدير بأن تحكي له كل ما دار، لِمَ لا إن كانت طريقة أوراق التاروت نفسها حملت اسمه...؟

سليمان.

كان تليفونه مغلقًا منذ عادت. فأدركت أنه في زيارة للمملكة، فاعترتها غصّة سريعة خوفًا من عدم عودته، أو غيابه فترة طويلة على الأقل. ارتباك بسيط أسفل معدتها، سببه شبيهة لها... اسمها ريحانة!

أفاقت من شرودها سريعًا ومن حظّها أن سيلڤيا لم تنتظر الإجابة كثيرًا بل واصلت:

ـ خدي بالك منها كويس يا هند.. دي هتفرق معاكِ.. العقيق بيجمّع طاقة الكون وبيدخّلها جوانا من خلال القلب.. علشان كدا لازم تحافظي على الاتنين.

يتصاعد رنين هاتفها دلالة ورود رسالة. تتجاهل سيلڤيا وجبيرة يدها فتنظر للشاشة في حركة شبه بهلوانية لتجد رسالة باسم سليمان تقول «الرقم متاح الآن يمكنك الاتصال به. حوّل لنظام ح...» تجاهلت باقي الرسالة الدعائية.

يكفيها أنها قد أدركت أن المحبوب (اللي مش داري بيها على حد تعبير نوّارة) قد عاد.

* * *

ـ مستر سليمان.. ممكن تتفضّل معايا؟

نظر سليمان للرجل الآلي الذي يعرفه الناس غالبًا باسم حاتم عارف مستغربًا انتظاره له أمام عمارته مباشرة. فاستأنف قائلًا:

ـ مدام مَلَك عايزة حضرتك ضروري.

ارتبك العازف المنهك الذي يعاني نقاهة مرض عجيب التهم جسده فصيّره واهنًا ضعيفًا، كما أنه عائد لتوّه من إحدى رحلاته لمملكته العجيبة، وكانت العودة مؤلمة فقد ترك خلفه ما ينوء بحمله أعتى الجبال، ويا ليته يعرف للسبيل سبيلًا. فحاول أن يتملّص من طلبه الغريب، ويحاول أن يتجاهل نبرة التهديد المستترة في كلامه:

ـ حاتم بك.. أنا لسا جاي من سفر، وطالع من عيا، وأحوالي ملخبطة، وكنت غايب بقى لي فترة، ووراياَ ألف حاجة أعملها.. أستأذنك تبلّغ المدام تحياتي وإني بإذن اللـه هاكلّمها في أقرب فرصة.

من المفروض أن ما قاله سليمان مقدّمة لاعتذار، أو جملة حوارية، أو تمنيات بالسلامة وإتمام الشفاء.. إلا أن حاتم الذي ربما لم يسمعه فعلًا.. كرّر جملته بصرامة:

ـ مستر سليمان.. ممكن تتفضّل معايَ؟ مدام مَلَك عايزة حضرتك ضروري!

تساءل العازف الشاب عن مغبّة افتعال شجار مع ذلك الهارب من حديقة الحيوانات، فوجد أنه بكل السيناريوهات الممكنة وغير الممكنة، سيخسر. ثم إنه ليس من المعقول لسلطان شاب أن يقود حربين مختلفتين في مملكتين بعيدتين، فاستسلم لأمره تاركًا نفسه لبراثن هذا الرجل الحاسم، ومحاولة منه لغلق هذا الباب المريب إلى الأبد. ولم يتمكّن سليمان وهو يلج السيارة السوداء بإذعان من رؤية أو سماع نداءات حسنية الجذِلة وشبه المستغيثة من شرفة شقتها بعد أن استشعرت وقع أقدامه على سلَم العمارة. كانت هذه هي نفس اللحظة التي أرسل فيها حاتم برسالة طمأنة لمخدومته التي تنتظر ظهور سليمان على مسرح الأحداث على أحرّ من الجمر.

وللمرة الثانية يلج هذا القصر ولكن المشاعر هذه المرة مختلفة كل الاختلاف، ليس ثمّة رهبة، أو انبهار، أو دهشة، ربما بعض من ملل، أو تحفّز، أو ثقة. وعلى نفس الكنبة التي شهدت إغواءه قبلًا لولا تماسكه، منتظرة بزيّ نهاري متّزن، وتبرّج رزين، وعطر زهري خفيف وكوب من عصير الرمّان الطازج في يدها ترشفه على مهل. من خلف زجاج الكوب الذي يقترب كثيرًا من شفتيها، رمقته بنظره واثقة وهي تتحكم في انفعالاتها الداخلية التي أشبه ببركان يمور ويغلي، كانت نظرتها من قبيل ألم أقل لك إني سأحضرك؟ أو.. ألا تعرف من أنا لتتجاهلني؟ أو أي شيء من هذا أو ذاك، إلا أنها بصوت ثابت هادئ النبرات قالت:

ـ إيه يا فنان؟ ينفع كدا برضه؟ مختفي مننا ليه؟ إحنا مش بقينا أصحاب؟

أخذ سليمان يغمغم بما لا يُفهم، ولسان حاله يسألها الاختصار والوصول لطلبها مباشرة، فاستأنفت:

ـ دلوقتِ أن باجهز لحفلة كبيرة في الأوبرا.. وهاعزم فيها ناس كتير.. وهاجيب رعاة وهنعمل تسويق حلو.. وكنت عايزاك انت تبقى نجم الحفلة دي؟ هه؟ قلت

إيه؟
كانت الأنثى المتمرّسة الخبيرة بعلوم الرجال قد توسمت أن رجلًا كسليمان لن يتردد لحظة في قبول فرصة كتلك لإظهار فنه وموهبته. كانت متأكدة من الموافقة لذا اختارت لنفسها هذه الهيئة البسيطة والتزمت بنبرة الصوت شبه الجادة كأنها تعرض صفقة ما أو تأخذ رأيه في شيء عادي. الذي لم تتوقعه تلك المرأة التي تحوّلت كالمسحورة من حال إلى حال وقد غيّرها سليمان أو على وجه الدقة موسيقاه، أن فتاها الآن يخوض معركة ضروس لا يعلم كُنهها ولا السبيل للفكاك منها. الأمر الذي تبدو به كل تلك المحطّات المكتوبة في خط سير حيواتنا كأنها تحدث لشخص آخر سوانا. فيما مضى كان خبرًا كهذا كفيل بأن يطير العازف الشاب من الفرح، لِمَ لا ومُضيّفته تخبره أنه سيكون نجمًا لحفل كامل بالأوبرا، تلك التي يعتبر ظهوره على خشبة مسرحها كعازف احتياطي ما بين الفينة والفينة من كُبريات النِعَم. لكن الملك/ السلطان سليمان المهموم بشعب مريض، فقير، يحتضر. نظر لها في قلة حماس وقال:
ـ عرض ما ينفعش يترفض يا مدام مَلَك.
لمعة انتصار خاطفة تبدو في عينيها ولكنه لا يلحظها لأنه استأنف مجدّدًا:
ـ بس الحقيقة إن حياتي مدربكة قوي الفترة دي.. وما اعرفش الدربكة دي هتخلص امتى.. فيا ريت نعتبر عرضك اللطيف دا حلم مؤجل.. زي أحلام كتير في حياتنا.. وأنا أوعدك إني هاكلمك أول ما ظروفي تسمح.
لم تتمكّن مَلَك من التحكم في نفسها أكثر من ذلك فقد كان وقع الصاعقة عليها مزلزلًا للحد الذي يستعصي عليها وهي الخبيرة المحنّكة أن تتمالك أعصابها كليّة. كانت تمور وتغلي وتكاد تنفجر في وجه الرجل الذي رفضها مرتين للمرة الأولى والوحيدة في حياتها. كانت الآن امرأة مهزومة جدًّا، ومغتاظة جدًّا، وغاضبة جدًّا، بل ومكسورة جدًّا. انهار القناع الذي كانت تضعه منذ بداية اللقاء واهتز كوب العصير في يدها حتى كاد يسقط، بل إن نقطتين أو أكثر قد تمردت على سطح الكوب وتركت أثرًا قانيًا على ردائها الفاتح اللون. انقلبت نظرتها إلى ما يشبه الرجاء، فهي تود حقًّا أن تفهم، تود أن تعرف السرّ الكامن خلف هذا العازف الذي عصف بكل مجدها، وليس مرة واحدة، بل اثنتين! ارتعش صوتها وهي تسأل:
ـ ليه يا سليمان كدا؟ هو أنا وحشة قوي للدرجة دي؟ هو انت ليه على طول رافضني كدا وبتخلّيني أحس حاجات مش كويسة؟
كانت صراحتها تصدمه، فهو قد اكتسب القدرة على مقاومة أنثى النمر المتوحشة مَلَك، ولكنه للمرة الأولى يقابل العصفورة المكسورة المنهزمة مَلَك. شيئًا ما في نظرتها، في صوتها، في اهتزاز جسدها، في ارتعاش شفتيها، ربما كلّها معًا، أورثاه إحساسًا جارفًا كموجة عاتية من الندم والذنب. اقترب منها كأنه

موشك على حضنها، وكان دوره الآن في اللهجة الصادقة الحانية:
ـ والله العظيم يا مدام مَلَك.. يااااا مَلَك.. أنا اللي فيَّ حاجة غلط اليومين دول.. صدّقيني.. وأوعدك.. والله العظيم أوعدك.. إني هاقبل عرضك الرائع دا قريب لو رجعت بالسلامة.
تساءلت مندهشة:
ـ رجعت بالسلامة؟ ليه؟ هو انت هتسافر البلد تاني؟
ـ أسافر البلد؟ وإنتِ عرفتِ منين؟
أطرقت مَلَك خجلًا، إذ لم يكن ثمّة جدوى من الإنكار، فبدا إطراقها مصبوغًا بالاعتذار، مما وأد ثورة كادت تتولَّد داخل سليمان الذي تجاهل تساؤله الاستنكاري السابق، ومجيبًا سؤالها الأول:
ـ لأ يا مَلَك مش البلد.. هي شغلانة صعبة.. ادعي لي بس أرجع منها على خير.
كان صادقًا، وهي استشعرت من كلامه القلق، إلا أنه لم يكن ثمّة مساحة لاستئناف الكلام بشيء جديد. وضعت كوب العصير على الطاولة أمامها ومدّت يدها تصافحه فيما يشبه الصداقة وهي تقول:
ـ وأنا يكفيني الوعد دا وهانتظر مكالمتك ليَّ أول ما ترجع بالسلامة.. بس بليز خد بالك من نفسك (اغتصبت ضحكة مفتعلة وهي تستأنف) أنا مش عايزة حفلتي تبوظ يا فنّان.
استنسخ سليمان ضحكتها بالكربون ومصافحًا إيّاها في حماس علامة الانصراف.
غريب جدًّا أن كليهما الآن كان يشعر بالقلق.
القلق الذي جعله ساهيًا عن تغيير وضعية تليفونه من الوضع الصامت، متجاهلًا بذلك ثلاث مكالمات من هند ورسالتين!

* * *

بالرغم من كل الظروف التي واجهتهما الفترة الماضية، التقيا.
هي محمّلة بالمشاعر المتقدة، وثقة بالنفس، وتغيير شامل في شكلها وشخصيتها.
هو محتاج لصديق يسمعه ويستنير برأيه ويعلم كُنه ما يواجهه ولا يجد غضاضة فيه.
وهكذا اتفقت الأهداف برغم اختلاف المشاعر، حتى إن بدت لهفتهما واحدة.
اللهفة متعددة الآباء والأسباب ولا يأخذها قرينة لأي شيء سوى ضعاف النفوس! وبكل التفاصيل أفضى كلٌّ منهما لصاحبه، إذ أخبرته هند عن نوّراة وبطاقات تاروتها، وإن تعمّدت إغفال بعض التفاصيل، وأخبرها سليمان عن صراعات المملكة والغرفة المقدسة بماستها المتلألئة وكريستالاتها الأربعة وإن تعمّد إخفاء بعض التفاصيل.

ـ بص يا سليمان هو الغريب إن بالرغم من إن نوّراة ما تعرفكش وأنا ما حكيت لهاش عنك بس أنا حاسّة إن كلامها عن التلات كروت الأخيرة ما ينفعش غير إنه يبقى عليك مش عليَّ. يعني مثلًا الخامس بيتكلم عن عالم تاني وشموس وقمر ونجوم، ودا ممكن تفسيره بالعالم اللي انت بتروحه، والسادس بتاع الوسيط واضح إنه إنت، والسر في اللحن، لأن عزفك هو اللي بيوديك عندهم، وأكيد برضه دا ليه حكمة، والسلام بين الناس، ممكن يكون دا عن الناس اللي هناك والخلافات بتاعة حكّام المقاطعات اللي انت حكيت لي عنهم، وآخر واحدة كانت بتتكلم عن العدل، وإن العدل هو الحل. لدرجة إنها قالت لي منه هو مش منك، يعني قصدها عليك يا سليمان.

ـ هو إحنا هنصدق كلام دجّالين ومشعوذين يا هند؟

ـ هو يعني الحاجات اللي بتحصل معاك دي ممكن تتصدّق؟ لحن وبوابة وقصر وقوّات سوداء ورحيم وأكثم و.. و... ريحانة؟!

ـ ما لها ريحانة؟ وحتى دا برضه ممكن يكون وهم ومش حقيقة.

ـ لسا بتقول عليه وهم؟ إزاي بقى.. ورسايل والدك ليك والكتابات اللي على الحيطة والمراية و...

اتسعت عيناها لآخرهما وهي تتأمل نقشًا تراه للمرة الأولى في باطن كفّ سليمان على شكل بيضاوي أحمر محاط بالزخارف، فأردفت:

ـ ودا!

نظر للنقش في ذهول غير عارف متى وكيف أتاه، فهتف بحسم:

ـ أظن إني لازم أرجع تاني يا هند.

ـ ترجع لها؟

ـ أرجع لهم.. أرجع لهم يا هند..

ـ متأكد إنك مش عاوزني أكون موجودة؟

ـ بس إزاي.. أنا ما جربتش أروح غير من سطوح بيتنا.. وأظن إن بوابة زي دي ممكن تكون مرتبطة بمكان، زي ما هي مرتبطة بلحن.

ـ طيب ما نجرّب هنخسر إيه؟ نروح مكان فاضي ونجرّب فيه ونشوف النتيجة.

ـ والخطة؟

ران عليهما الصمت.. قطعته هند قائلة:

ـ بص يا سليمان الفترة اللي فاتت اتعلمت حاجات كتير. منها إنك كل يوم هتكتشف نفسك أكتر من اليوم اللي قبله. كل يوم تجربة جديدة وعالم جديد. فما دام ربنا اختارك لحاجة زي دي، فدا معناه إن حلّها موجود عندك، والسر كامن فيك. دوّر جوّاك يا سليمان أكيد هتلاقي الإجابة.. أكيد.

أطرق برأسه موقنًا أنها على حق. تكمن الأسرار وأجاباتها بداخلنا طوال الوقت،

لكننا نضيع الوقت انتظارًا لإشارات خارجية أو علامات إلهية. أمسكت هند الدلّاية بين أناملها وقد بدا عليها التردد والتوتر. نظر لها سليمان في استغراب، كان من الواضح جدًّا أن ثمّة مزيد ترغب هند في أن تضيفه. أطرقت في خجل وغمغمت:

ـ سليمان...

سكت في ترقّب وهي تستأنف:

ـ أنا... باحبك!

إنه الاعتراف الذي يصدم من يسمعه، ويصدم قائله إذ ينسكب منه دون مقدمات أو تحضير. هي حتى لم تسأل نفسها إن كان سليمان يبادلها الشعور نفسه. معتادون نحن على مصارحة الذكور لإناثهم بما يشعرون. لكن يبدو أن هند لم تعد هند التي تعرفها. لم يبدُ عليها أي شعور بالذنب أو التجاوز أو خرق المألوف. فقط كانت تشعر بالخجل، وتنتظر أي إجابة من الرجل التي اختارت تصنيفه أخيرًا. الصاعقة ضربت سليمان في مقتل، فأن تشعر بالشيء يختلف تمامًا عن التصريح به.. التوقيت.. الظروف.. المشاعر التي يشعر بها حقًّا الآن. ضغط كبير وقاهر يشعر به سليمان وهو يرى التساؤل عن الرد باديًا على هند التي صارت صديقته المقرّبة فيما يبدو... لكنه أبدًا لا يمكنه أن يصنّفها في نفس الخانة التي وضعته فيها. الآن تذكر هند تحذير نوّارة لها من الاندفاع بعاطفتها، وطلب سيلقيا بأن تحافظ على قلبها.

ها هي قد عصفت بكلماتهما عُرض الحائط وقدّمت قلبها وروحها وعواطفها على طبق من فضّة لرجل تدرك تمامًا أنه ربما لا يشعر نحوها بنفس المشاعر والأحاسيس.

كيف فعلت هند بنفسها ما فعلت؟

الحقيقة أنه لا أحد يعرف.. كما أن سليمان لم يجد ما ينطق به أيضًا!

يرن تليفون سليمان فينظر لكُنه المتصل، يجد على شاشته «My Angel يتصل بك...».

تذكّر أنه ما زال يحتفظ برقم علا، ولقبها على تليفونه وإن غيّر رنتها المميزة التي لم تكن سوى القطعة الموسيقية التي ألّفها لها.

ارتبك سليمان وتلعثم وضغط زر إلغاء الرنين دون أن يرد.

عاودت علا الاتصال، ولكنه لم يرد.

نظرت له هند في حيرة دون أن ترى شاشة تليفونه أو تدرك كُنه المتصل.

غريبة هي أشباح الماضي حين تعاود الظهور!

مساكين هؤلاء الذين لا يتمكنون من كتم مشاعرهم طويلًا..

مساكين أكثر من يكتمونها طويلًا!

٢٦. أشكال متعددة لل-موت

كفأر ماهر نجح في أن يتسلّل إلى داخل الڤيلّا التي عاش بين جنباتها أيامًا كان فيها مسموع الكلمة ومحمود الفعل. يسترجع ذهنه الحوار الأخير فيستشعر غصّة مؤلمة لا ينجح في تجاوزها. خطير هو تذوّق النعمة، فهو جدير بأن يفقد بعض الناس عقولهم، خصوصًا حين زوالها المفاجئ. لم يتكيّف الشاعر الشاب مع فكرة تشييئه وتحويله إلى أداة مادية قابلة للاستغناء والتخلّص منه كأي قطعة ملابس قديمة ممزّقة، أو جهاز إليكتروني سابق خرِب لا إصلاح له. يقولون دومًا إن الانتقام وجبة لا تأكلها إلا باردة، لا يؤمن هو بهذه العبارة كثيرًا، فبساطته وتلقائيته زيّنتا له فكرة التهامها ساخنة. هكذا عقد جلال العزم، وأعدّ نفسه لسرقة نرمين عشيقته التي أهانته وألقت به مرّة أخرى لحياته البائسة التي كان قد نسيها فترة علاقتهما معًا، وزادت في إهانته بالمكان المشبوه الذي أرسلته إليه بحجّة العمل، شيء ما انكسر داخله لا يدري كنهه، انكسر شيء لم تحسب نرمين له حسابًا.

راقب المكان لفترة وأدرك أنها قد استبدلته بذلك المطرب الأسمر مفتول الجسم والعضلات الذي أخبرته عنه قبلًا، وها هي تغدق عليه من نعمها الزائلة. هما الآن يتناولان العشاء في أحد المطاعم الفاخرة، والخدم في عطلة لأن الأربعينية المتصابية، التي امتصّت رحيقه يومًا وها هي الآن تمتص رحيق زهر آخر، قد أعدّت العدّة لليلة استثنائية متكرّرة تحتفي بها بالفارس الجديد في مجون، ولأنها بالرغم من كل شيء لا تشعر بأي ذرّة من الأمان تجاه العاملين في خدمتها، ولا ترغب في أن تسمح لأي منهم بأن يمتلك ما يمكنه أن يبتزّها به بعد ذلك، لذا فقد كانت عادتها أن تمنح الجميع إجازة في مثل تلك الليالي، لا يبقى منهم سوى حارس الڤيلّا العجوز، الذي بطبيعة الحال غافله، وبالطبع لم تنبح كلاب الحراسة، فهي قد اعتادت رائحته من طول إقامته السابقة.

كانت خطّته متكاملة للغاية، قفّاز مطاطي، كشّاف نور صغير، ملابس داكنة، ولثام، وتوقيت وظروف مواتية. ما نوع الخطأ الذي يمكن أن يحدث له الآن؟

مطمئنًا مستمتعًا هادئًا متلذّذًا..

يضع قطع المجوهرات الصغيرة الحجم الغالية الثمن في حقيبة قماشية صغيرة، هنا تحتفظ بالخاتم السوليتير الذي حصلت عليه من زواجها الأخير، وهنا تحتفظ بالدولارات والجنيهات الإسترلينية لزوم الطوارئ. كل شيء إلى جوف الحقيبة!

ماذا لو مزّق لها بعضًا من قمصان نومها المستوردة الباهظة الثمن؟

ذاك الأحمر الصارخ بكرانيشه السوداء، أم ذلك الذي على شكل جلد النمر، أم

الآخر الأسود الشفّاف الموشّى بالخيوط الفضية والماسات الصغيرة؟
استحضر ذكرياته السابقة مع كل قميص منهم، لا بد أنها قد جلبت قمصانًا جديدة للعشيق الجديد. استحسن الفكرة فاستلَّ من بين ملابسه مطواة ذات نصل حاد، فتح دولاب ملابسها لتدهمه الروائح المغرية المثيرة لعطورها الثمينة الغالية من بين طيّات الملابس. أمسك بقماش القميص الأسود الشفّاف، قميص ليلته الأولى معها. أغمض عينيه مستعيدًا اللحظات اللذيذة التي ولّت بغير رجعة. أحس ببعض وهن يتسرّب إلى أوردته لا يعرف من أين، كان الوهن باردًا كأنه ثلج، يفتح عينه مفزوعًا، ليعاوده خاطر الانتقام الجميل، يبث إحساسًا ساخنًا مشتعلًا يزحزح الوهن البارد ويستبدله بنار مستعرة!
في تشفٍّ بدأ يُعمل مطواته في قمصان النوم محوّلًا إيّاها إلى قطع قماشية مهلهلة ممزقة.
وحينما فرغ كان صدره يعلو ويهبط في انفعال شديد.
إحساس خانق بالعجز والقهر، متسائلًا عمّا يفعل الآن!
جلال الشاعر الشاب الواعد الذي تشرئبُّ الأعناق نحوه حين يحضر ندوة أو عرضًا موسيقيًّا أو مسابقة ما، صار مسخًا مشوّها يستلذ بتمزيق ملابس أربعينية خسيسة استغلته لبعض الوقت تاركة إياه مهزومًا محطّمًا.
أيّ درك أسود انحدر إليه؟!
انبثقت دموع عينيه من العدم، وغامت الرؤية أمامه، لتسقط المطواة من يده.
أمسك الحقيبة القماشية التي بها ما خفّ حمله وغلا ثمنه ووضعها فوق سرير نرمين، في الوسط تمامًا، بل فتحها ليبدو ما بداخلها ظاهرًا لحظة إضاءة النور، لكأنه يقول إنه كان قادرًا على حرمانها كل ذلك، لولا...
لولا... ذلك الإحساس القاهر بالخزي والعار اللذّين داهماه على غير توقع أو اختيار.
ململمًا أذيال خيبته، تاركًا ما كان قادرًا على سرقته وراءه، منسحبًا وقد تعمّقت هزيمته أكثر فأكثر كجندي عائد من ساحة معركة خسرها خسارة فادحة.
يتسلّل من تلك الثغرة في سور الفيلّا في نفس التوقيت التي تفتح فيه البوابة المعدنية الضخمة لتلج منها نرمين وعشيقها الأسمر الجديد تتنامى أصوات قهقهاتهما الماجنة إلى أذنيه لينهزم أكثر فأكثر. لوهلة خاطفة تلتقي عيونهما، فتتسرّب دموع قهره في صمت، بينما تمنحه هي ابتسامة مفرطة الثقة ولا مبالالية.
ينسحق وقد ضاقت عليه الدنيا بما رحبت.
لقد أمعنت نرمين في إذلاله بالرغم من أنها لم تمسّه أو تتعامل معه بشكل مباشر هذه المرة، لا يعرف المرء أيّ أذًى من الممكن أن يتسبّب فيه لآخرين

وهو لا يراهم من الأصل. كيف يموت المرء من داخله، رغم أنه لا زال حيًّا يتنفس ما يظنّه هواء!

هو قد خسر نفسه ربما للأبد، وهي ربما قد خسرت بضعة قمصان نوم!

* * *

أحسّت بالصداع الرهيب يكاد يفجّر جمجمتها إذ تفتح أمها ستائر الغرفة آذنة لضوء شمس منتصف النهار في الولوج إلى الغرفة. لم تكن علا قد نامت سوى بضع ساعات قليلة، إذ إن ضوء الشمس كان قد لاح وظهر منذ مدة طويلة، لكنه ظلّ مخبوءًا خلف حُجُب من ستائر ثقيلة مسدلة لتستحضر ظلامًا صناعيًّا يمكنّها من أن تنام بعدما سهرت الليل كلّه تتسكّع بين صفحات التواصل الاجتماعية، وتتحدث عبر الواتس آب مع مجموعة من صديقاتها.

الحياة مملة للغاية، ولا تجد فيها المرح الكافي.

كانت نزقة ومزاجها حاد بشكل لم تعهده في نفسها من قبل. نار مستعرة تشتعل داخلها ولا بد لها من إطفائها. لم تكن علا معتادة هكذا على الانكسار والخذلان بل الفشل.

هذه هي الأوقات التي يتحوّل فيها المرء إلى شخص أخرق كلية.

يقوم بما لم يظن يومًا أن يفعله.

قلّبت عبر صفحات الفيسبوك ليستقر بها العزم على شاب رياضي وسيم اسمه رامز يعمل مدربًا للياقة البدنية في إحدى الصالات الرياضية التي اصطلح على تسميتها بالـ«چيم». صوره وهو يرفع الحديد بعضلات صدره البارزة كانت مثيرة للغاية، جفّ ريقها وهي تلاحقه عبر الـ«تايم لاين» الخاص به لتعرف كل شيء عنه، الفتيات اللائي رافقهن من قبل، منشوراته على حائطه الخاص، المنشورات التي قام بمشاركتها أو إبداء الإعجاب بها، كما استمعت إليه في مقطعي ڤيديو «لايڤ» سجّلهما في رحلة بحرية بشرم الشيخ.

بدا لها رامز الشخص المناسب للخروج من فسخ خطوبتها بياسر، وإهمال سليمان الرد عليها بعد أن حاولت العودة إليه طائعة نادمة ذليلة.

هكذا أرسلت له رسالة على الخاص، ولم يكن رامز ليفوّت هكذا فرصة للتعرّف على فتاة منطلقة ومتفتّحة الذهن كما يقولون هذه الأيام، خصوصًا أن كل صورها الخاصة على صفحتها الشخصية تشي بجمال ورقة ورشاقة وذوق بالغ.

لا يستغرق الأمر كثيرًا من كلام، ولا يحتاج لتوافق ذهني أو ثقافي أو نفسي. هما فقط يبحثان عن المرح وتقضية وقت لطيف لا أكثر ولا أقل. علا قرّرت أنها قد جرّبت حظّها في العلاقات الجادّة المؤدية إلى شيء، مرتين! وفشلت! آنَ الآنَ أوانُ العلاقات التي تذهب للّاشيء، فهي تبدو برّاقة ومثمرة وناجحة أكثر!

هكذا التمعت حولها الأضواء المنعكسة عن الكرة الدوّارة الضخمة بمراياها الألف الصغيرة، فصارت كمن يسبح في شلّال من الألوان الباهرة المتداخلة، ترفع

ذراعيها العاريين إلى عنان السماء، وتهزّ شعرها الغجري المتماوج في حرية وهي تتأوّد يمنة ويسرة على أنغام «كريستينا أجيليرا» في أغنية من أغانيها القديمة بعنوان «فقط كوني حرّة»... أليس ذلك قرارها بالفعل؟!

كلمات الأغنية تناسبها بشكل غريب إذ تقول:

Just be free

فقط كوني حرّة

Never stop moving, no way

لا تتوقفي عن الحركة، كلّا البتة

On your feet

قفي على قدميك

Move it to the rhythm

تحركي مع الإيقاع

Just be free

فقط كوني حرّة

Never stop moving, no way

لا تتوقفي عن الحركة، كلّا البتة

On your feet

قفي على قدميك

Move it to the rhythm

تحرّكي مع الإيقاع

هي الآن حرّة، واقفة على قدميها، ولا تتوقف عن الحركة مع الإيقاع..

تصرخ صرخات عالية مع اللحن الصاخب، ورفيقها يراقصها في احترافية شديدة ويجذبها نحوه في تناغم فتستشعر فيض شبابه وحيويته وقوّة عضلاته وجمالها، مضافًا على كل ذلك وسامته وتصفيفة شعره الرائعة وعطره الرجالي النفّاذ.

انتهت الأغنية فوقفا يلهثان، فبادرها رامز:

ـ عطشانة؟

ـ آها.

ـ طيب هاطلب حاجة نشربها.

ـ تمام.

ـ ڤودكا أون آيس، أوك؟

تلعثمت علا لبرهة خاطفة تتأكد من اسم المشروب الذي سيطلبه لها رامز،

فحاولت أن تلملم ارتباكها وتبدو متفتّحة الذهن إلى حد كبير وهي تجاهد اللهاث:

ـ لا.. لا.. مش هقدر.. خليها أورانج چووس أحسن.

ـ لا.. لا.. مش هياكل معايا الكلام دا. ما انا مش هاشرب لوحدي. لازم تشربي معايَ. ممكن أطلب لك حاجة خفيفة. كونياك ماشي؟ دا خفيف قوي.. وبيقولوا عليه مشروب الفتاة المهذّبة... (أعقبها بقهقهة مجلجلة وهو يواصل).. مش حضرتك فتاة مهذّبة ولا إيه؟

كانت لهجته تضايقها، وتلميحه سخيفًا، وهي لم تشرب خمرًا من قبل، ولكنها لن تسمح لشيء بإفساد ليلتها ومرحها. ولم يكن الوقت ولا المكان ولا الحالة المزاجية تسمح لها بالاستطراد في التفكير في هذه النقطة.

تساءلت في ارتخاء، أيّ أذًى من الممكن أن تُحدثه كأس كونياك واحدة؟!

* * *

لا يعاني مرضى اختلال تعدد الشخصيات مع أنفسهم، إلا إذا أدركوا مغبّة ما فعلوا أثناء ممارسة الحياة بشخصية مغايرة، ثم ارتدادهم إلى شخصياتهم الأساسية بعد ذلك، بيد أن أصحاب الحيوات المزدوجة أو المتعددة يعانون طوال الوقت. هم فقط يشعرون أنهم مدركون لتلك الازدواجية أو التعدد، مما يعطيهم الشعور الزائف بأنهم متحكّمون في الأمر، ممسكون بتلابيبه كما يجب أن يكون، فيصل بهم الغرور أحيانًا للاقتناع بقدراتهم الفذّة على خداع الكل في آن معًا، والسير بمنتهى الحنكة والرشاقة على الحبال كلها، دونما اهتزاز أو خلل. هم فقط يغيّرون الأقنعة، ونبرات الصوت، بل معجم الكلمات المستخدمة كل مرة.

هكذا جلس نادر «بك» كما يليق بنا أن نسميه الآن مع أصدقائه من ذوي الأكتاف المزدانة بالنجوم والصقور والنسور، هؤلاء الذين بيدهم دومًا كل الخيوط. لِمَ لا؟ وهم صانعوها في الأصل، ومانحوها إذا ما عنّ لهم في ساعات الرضا لهذا أو لذاك.

ابتسامته الراضية تملأ صفحة وجهه وهو يعقد تلك الصفقة الهامة، متعهّدًا بحفظ نسب أولي النِعم حين أوان القطاف. هذه عقود لا تسجّلها الأوراق، وبنود لا تحتاج إلى شهود إثبات أو مستندات حفظ.

تدخل عليهم سكرتيرته الشابة نرجس بالمشروبات الساخنة وابتسامة متحفظة وتوتر لم تنجح في إخفائه عن ملامحها الشفّافة.

يصرفها نادر سريعًا كأنه يخشى أن يثير وجودها حفيظة حلفائه وأصدقائه الجدد.

تعلّم من الدنيا أن الشروط المجحفة تأتي دومًا بالامتيازات الخفية، لذا فقد أهّل نفسه لقبول كل شيء وأي شيء وبأي ثمن.

يدرك أن ما يفعله الآن لن يكون خافيًا على أحد، خصوصًا المجموعة التي ينتمي لها منذ رحلته مع تبديل الطرق والمصاير. ولكنه كان جاهزًا بالرد، سيخبرهم أنه

يكتسب ودهم وقربهم وصداقتهم، وأن هذا أفضل نجاح لقضيتهم، سيكون رجلهم بالداخل كما كانوا يودّون، ولكنه سيكون في الداخل أكثر وألصق وأقرب.
ابتسم نصف ابتسامة، بل إنها بدت منطقية للغاية وهم يصلون في اتفاقاتهم للبنود الأخيرة، وهو يمنّي نفسه بتلقّي استحسان الشيوخ والإخوة.
ـ ما تنساش يا نادر إننا شايفينك ومراقبينك كويس.. يعني أي حاجة كدا ولا كدا.. ها.. إنت عارف بقى.. مش محتاجين نقول لك..
كان التهديد صريحًا وواضحًا لا مراء فيه، ولكنه ظل هادئًا، رابط الجأش، لا يبين عليه شيء كلاعب «بوكر» محترف وهو يؤمّن على الكلام:
ـ ودي تيجي يا حسام باشا.. حد برضو يرفص النعمة برجليه.. خير وجاي لي.. هاقول له لأ؟
حاول أن يبدو جشعًا إلى أقصى حد، فهذه هي الكيفية الوحيدة التي يمكنه من خلالها أن يبث في أرواحهم الطمأنينة والثقة من ناحيته.
تبادل الجميع الضحكات.. ليعقّب سامي «باشا» على كلامه:
ـ براڤو قوي يا نادر بيه.. لازم تبقى فاهم إن دي نعمة وإنك بكدا تبقى فعلًا إنسان وطني وبيحب بلده بجد وخايف عليها وعلى مصلحتها.
ـ أنا فدا البلد يا سامي باشا.. دي حبيبتي.
أطفأ حسام «باشا» سيجارته الأخيرة ووقف معلنًا تمام الرضا وإتمام الاتفاق، هكذا أتبعه سامي «باشا» بإطفاء سيجارته هو الآخر وراشفًا الرشفة الأخيرة من فنجان قهوته الذي برد.
ربّت نادر على ظهورهما في حميمية لدى الباب، وهبّت نرجس بابتسامة بلهاء تودّعهم، لم يفتها تلك النظرة الحادة المهدّدة من نادر، فارتجفت الشابة في وجل مؤقت، قبل أن تقوم بمكالمة تليفونية خاطفة وتومئ برأسها في طاعة.
وما إن استقر نادر في مكتبه حتى رن تليفونه برقم كان يتوقعه جيّدًا.
نظر للشاشة «إسماعيل.. يتصل بك...».
قهقه في صوت مسموع، وغمغم لنفسه في مرارة:
ـ لحقتِ يا نرجس.. دا الناس لسا ما اتحركوش من تحت الشركة.
تساءل الشيخ إسماعيل عن سبب هذه الخطوة التي لم يخبرهم بها قبل أن يقدم عليها، وطلب منه المجيء للاجتماع وتبرير ما حدث.
منذ البداية ونادر يجهّز كل الردود والمبرّرات المقنعة، ويعرف أنه من الآمَنِ له أن يكون الأمر هكذا. بالطبع هو لم يخبرهم لأنه لم يكن متأكّدًا من قدرته علىَ إقناع حسام وسامي بالاجتماع معه، بل في مكتبه هو. سيبادر هو بالهجوم إن هاجموه وسيخبرهم أنه هكذا تجري الأمور الآن، وأنه قد أضاف للأمر لمسته الشخصية من واقع خبرته ولخدمة مصالحه ومصالح الجميع!

هكذا يكون المرء مطمئنًا للغاية، وواثقًا إلى حدود السماء.
خيوط الكون كلّها بين يديه، والرقص على كل الحبال هو موهبته الطاغية.
لا يغيّر من الأمر شيئًا.. أن الشيخ اسماعيل والشيخ ناجي والشيخ مؤمن.. أظهروا اقتناعهم الزائف المغلّف بابتسامة باردة بعد اجتماعهم به.
لا يغيّر من الأمر شيئًا.. تلك الرصاصة الدقيقة التي اخترقت قلب نادر وهو يترجل من سيارته الفارهة أمام بيته الجديد في التجمّع الخامس، التي أطلقها قنّاص ماهر لن نعرفه أبدًا، من فوهّة بندقيته الريمينجتون المعدّلة بشكل حديث.

٢٧. حين ينقشع الضباب

أما زال حب علا عالقًا في قلبه؟

هكذا سأل سليمان نفسه وهو يتأمّل سقف غرفته في شرود، يقلّب الأمر كله على أوجهه. لا ينكر الأذى البالغ الذي لحقه من هجرها له. يترك جرح كهذا ندبة في قلب المرء وربما روحه ذاتها لا تندمل، حتى إن خفق القلب مرة أخرى، فإن أثر الندبة فيه سوف يبين. الأمر لا يتوقف فقط على عقد المقارنات، التي تتجاوز نطاق مقارنة الأشخاص، لتشمل مقارنة الأحاسيس والمشاعر؛ كيف للمرء أن يقارن أشياء لا مقاييس لها من الأصل؟! الأمر أعقد من ذلك بكثير، إذ إن هذا القلب المندوب سيخفق بشكل معطوب أو مغاير للطبيعي، وتلك الروح المجروحة، سيتغيّر فيها ما يفقدها الثقة بالأمر برمّته. هذا هو التفسير المنطقي لعدم مبادلته هند نفس المشاعر، بل ذلك التردد الكبير في تفسير مشاعره المضطربة تجاه أميرة العالم الآخر ريحانة.

المرة الأولى عادة لا تنسى..

مهرجان فني غنائي شعري تنظمه أسرة من الأسر في كلية التجارة. هذه هي نفس المرة التي تعرّف فيها إلى جلال، ورأى علا. يذكر تلك الشرارة الأولى، عينيها اللامعتين في شغف، نلك النار المتقدّة داخلها وتلك الروح النارية المتفجرة بالحيوية، رأسها الذي يتمايل مع النغمات، وشعرها يتطاير مرسلًا قلبه إلى جزر لا خرائط لها. اقتحمته وأسرته منذ ذلك الحين، ويبدو أن جزءًا منها ما زال داخله لم ينطفئ.

حاول أن يغلق هويس الذكريات المؤلم قبل أن ينفتح على مصراعيه. فأسوأ ما في الذكريات أنها لا تموت ولا تُنسى، هي فقط تستنزف جزءًا من طاقتك في دفعها بعيدًا، بأقصى ما تملك من قوة إلى ذلك الجانب المظلم من ذاكراتنا، حيث يقبع كل شيء قاهر وقادر على زلزلة كيانك رأسًا على عقب لدى الاستدعاء الأول.

كيف كان ضعيفًا هكذا أمام هالتها التي تطوّقها حتى كان المسمار الأخير في نعشه الذي حمله بيده؟!

كان قد انتهى لتوّه من التدريب على يد مايسترو عصام البرديسي أسطورة الكمان في الكونسرڤتوار وقد ملك حب علا كل أمره، واقترب موعد مناسبة لقائهما الأول، لقد مرّت سنة بالفعل. هو لا يملك المال، بل إنه ما زال يعيش في غرفة بشقة قريبة من الكونسرڤتوار بنظام المشاركة ويدّبر نصيبه بالكاد، وأحيانًا بالشحاذة من أحد أصدقائه، هي على العموم سكنه الثالث أو الرابع منذ استقر

به المقام كمواطن مدينة. لم يكن يملك سوى موهبته يقدّمها لحبيبته التي يذوب في كيانها كقطعة السكر، فسهر ثلاث ليالٍ بشكل متواصل، لا يأكل إلا الفتات، لا يشرب إلا للضرورة، لا ينام إلا إذا سقط لعدة دقائق في سِنة من النوم. وحين قابلها في الموعد وعزف مقطوعته التي سمّاها باسمها... علا... كانت دموع تأثرها جائزته الكبرى، أعقبتها بقُبلة طويلة، ثائرة، متمردة، حارّة.

كانت تلك قُبلتهما الأولى.

ارتعد لوهله وقد عاوده مذاق شفاهها مرة أخرى.

هاجمه المغص والصداع والدوار ورغبة القيء العارمة، فضلًا عن دموع سخيفة حبيسة لا لزوم لها الآن.

ما كل هذا الهراء الذي يحمله بداخله؟!

يتيم الأب منذ كان في الرابعة أو أقل، عائل النساء، المجنون الأرعن، الذي أسلم قياد أمره لمهرة لم يكن يومًا ليروّضها، عاشق النغمات التي لا يدري غيرها طريقًا، والذي حملته الأقدار ليخوض تجربته التي هي للخيال أقرب، هي للجنون والأحلام أقرب، هي للهذيان والتخيّل أقرب. حسنية بكل إغراءاتها البدائية وضعفها واحتياجها الدائم لوجوده الذي يشعره أنه مفيد على نحو ما. هند بكل طموحاتها ورغبتها في أن يكون لها دور رئيس في حياته، بل إنها قد أراقت دم حيائها وسكبته طواعية عند عتبة قدميه ولكنه غير قادر على أن يبادلها الشعور ذاته، ومَلَك الخبيرة المتمرّسة المغوية التي تحاصره وتحاوطه بشباكها وهو يفلت المرة تلو المرة مفوّتًا عليها فرصة الوقوع في حبائلها.

وريحانة...

وأي شيء يمكن للمرء أن يقول عن ريحانة؟!

هي حلم متجسّد، وهذيان لا يرغب في معرفة حقيقته، بل هو فقط مستمتع بالنهل من منبع الحكمة والجمال والرقي والأنوثة الصافي.

ملعونة أنتِ يا علا... ملعونة...

ملعونة يا علا...

يزداد ألمه ودواره، يقوم فيقيء بشدة حتى ينهكه التعب فيسقط فيما يشبه فقدان الوعي.

يبدأ الضباب الأبيض الذي يعرفه جيّدًا في التكاثف.

لا يشعر نحوه الآن إلا بالألفة، لا ذرة من قلق أو توتر أو توجّس.

بل انتظار شخص محبّب كان قد اشتاق إلى لقياه.

وأخيرًا تجسّد الوجه، واضحًا، رائقًا، جليًّا، كأنه لم ينبثق من ضباب.

ـ وحشتني يا سليمان.. وحشتني يا حبيبي..

في تردد نطق، دون أن يتحرك لسانه، في لهجة تبدو أقرب للتساؤل:

ـ بابا؟
ـ أخيرًا عرفتني.. كل المرات دي زرتك وانت مش عارفني.
هلّل في جذل حقيقي كأنه يقابل والده في الحقيقة، ولولا أنه ضباب وهو شبه فاقد للوعي لصفّق بيديه في فرح طفولي، وهو يهتف مكرّرًا اللفظ في سعادة:
ـ بابا.. باااابا.. أنا كنت شاكك واللـه.. طيب ليه بس ما عرّفتينيش بيك؟
ـ هو من امتى فرع الشجرة بيتوه عن جدره؟
ـ ما انا ما كنتش عارف.
ـ زي حاجات كتير.. وكل ما تعيش تعرف.
ـ بس أنا مش فاكر خالص.. زي ما تكون دماغي اتمسحت.
ـ مش فاكر؟ لا اسمها مش عاوز تفتكر..
ـ إزاي بقى؟
ـ هو أنا عمري سِبتك.
ـ أيوه سِبتني.. وسايبني.. وبتسيبني.
ـ يعني نسيت يوم ما جيت لك عند العمارة اللي في آخر البلد وآخدتك معايَ رحلة للمملكة أيام ما كانت حلوة وجميلة وعرّفتك على الناس هناك وبعدين رجعنا تاني؟ نسيت ساعة لما جيت لك أول ما أخدت الابتدائية وأمك كانت فرحانة بيك قوي وبتقول عليك راجل وجيت لك وقلت لك إنك فعلًا بقيت راجل ولازم تتحمّل المسؤولية؟ فاكر يوم ما اتخانقت مع المدرس بتاعك وانت في ثانوي وكان مشتكيك للمدير اللي مُصِرّ يرفدك لما جيت وأقنعتك إنك تعتذر وتعترف إنك غلطان فالمدرس سامحك والمدير ما رفدكش؟ وفاكر ساعة التنسيق والكونسرڤتوار لما قلت لك اتوكّل على اللـه وما تسمعش كلام والدتك علشان تحقّق حلمك؟ فاكر لما كنت متردد بين الكمنجة والبيانو تكمّل على واحدة فيهم، وقلت لك إني أنا كمان كنت بالعب كمنجة وانت كمان هتلعب كمنجة وهتبقى أحسن مني مية مرة؟ ولما كنت عيّان في البلد قبل ما تروح المملكة؟ كل دول ونسيت؟
ـ أيوه.. أيوه.. افتكرت.. افتكرت.. يااااه.. كل المرّات دي وكنت ناسي.. وما كنتش عارف إنه انت.. سامحني يا بابا.. أنا آسف..
ـ اوعى تفتكر إني كنت عاوز أسيبك وانت صغير كدا.. إنت حتة مني.. حد يسيب حتة منه بمزاجه؟
ـ أنا عارف يا حبيبي.. سامحني.. سامحني..
ـ طبعًا انت مش عارف أنا جاي لك المرادي ليه؟
ـ لأ.. ليه؟
ـ علشان دي المرة الأخيرة...

ـ إيه؟! ليـــــــه؟! دا أنا ما صدقت إني لقيتك.. معقول تسيبني تاني وانت روح، بعد ما سِبتني زمان وانت جسد؟
ـ ما بقيتش محتاج لي خلاص يا سليمان.. دلوقتِ أنا بقيت متطمّن إنك عارف المطلوب منك وهتنفّذه.
ـ المطلوب مني وهانفّذه.. اللي هو إيه بالظبط؟ أمي واخواتي؟
ـ لأ يا سليمان.. مملكتك.
ـ انت كمان يا بابا.. أنا ما اعرفش ممكن أعمل إيه في الموضوع ومتردد إني أرجع تاني لأني مش حاسس إني هاعرف أعمل حاجة.. الموضوع كبير عليَّ قوي.
ـ اللي يعيش.. هيعرف.. ما تنساش.. هتعرف يا سليمان.. هتعرف.. هتعـــــ...
انقطع الصوت وبدأ يبهت في سرعة حتى عاود الاختفاء بين طيّات الضباب، ثم انقشع الضباب نفسه مخلّفًا سواد الفراغ ولا شيء غيره...

* * *

نقش بيضاوي أحمر في باطن كفّه أخذ يتأمله مليًّا وثلاث علب من القطيفة وجدها جميعًا بألوانها الأزرق والأحمر والأخضر تحمل نقوش ثلاث نغمات موسيقية كانت على الكومودينو.
زالت كل النقوش من غرفته ومرآته وبالخارج ليحل محلها أربعة حوائط ملونة.
أزرق وأحمر وأخضر وأصفر.
ووالد ترك له رسالته الأخيرة عبر العالم الأثيري ومطالبًا إيّاه بمواصلة السعي لمصيره المقدّر له سلفًا.
لم يكن يحتاج لنداء خفي من ريحانة أو رسالة من عالم غيبي هذه المرة ليدرك أن الأمر قد خرج عن سيطرته وأن ما يسيطر عليه الآن شيء أشبه باللعنة التي ينفّذ مقاليدها بكل استسلام.
لم تعد أمه ولا أخواته، ولا جلال الذي اختفى تمامًا من حياته، ولا حسنية الدائمة الاستغاثة به، ولا نادر الذي يضايقها، ولا علا بماضيها، ولا هند بحبها الذي اعترفت به ولا الكونسرڤتوار والمايسترو وتدريس الكمان وأمور المعيشة والحياة يشغل باله. هو فقط يشعر بأنه متأخر عن موعده على نحو ما.
هو لن ينتظر الساعة الثانية عشرة، فالوقت سيف بتّار، وما يضيع منه لن يعود.
هكذا وجد سليمان نفسه وحيدًا في قلب سوق من أسواق المنطقة الثانية بالمملكة حسب ما يظن.
ملابسه ملابس العامة، ولا يبين عليه سلطان ولا أبهة.
فكّر سريعًا أن وجوده في مكان كهذا وكمان في يده سيثير الريبة بلا شك، فخبّأه في حقيبة قماشية علّقها خلف ظهره، مواصلًا السير في حذر، فهذا

الكمان هو تذكرة ركوبه التي لا يمكن الاستغناء عنها.
تجمهر كبير حول بائع ومشتري يتشاجران ويتسابّان في حدّة.
المشتري يتهم البائع بزيادة السعر بشكل مبالغٍ فيه، يزعق فيه البائع مبرّرًا السعر الجديد بالزيادة في الضرائب والجباية التي يجمعها القائد أكثم ومجلس الوزراء والمستشارون بدعوى أن المملكة في حالة حرب وتحتاج لأي مورد إضافي للاستعدادات والتجهيزات اللازمة للتصدّي للمخرّبين والمعتدين من القوّات السوداء التي صارت كابوس السنوات الأخيرة، والمبرّر الجاهز لأي قرار غريب يلقي بظلاله السوداء على الشعب، وخصوصًا أهل المنطقة الثانية.
تطوّر السباب إلى تشابك بالأيدي مع الاقتراب الحذِر لسليمان.
بطرف عينه كان يمكنه أن يرى أفراد حفظ الأمن على مقربة، دون أن يعنّ لأيٍ منهم التدخل فيما يحدث، كأنه لا يعنيهم.
في هدوء يفلت نفسه من محيط الجمع، لتقع يد ثقيلة على كتفه وصوت خشن يسأله:
ـ ماذا تحمل على ظهرك يا رجل؟
نظر لرجل حفظ الأمن الذي اقتحمه على غير موعد في ارتياع. يتعرّق في خوف، إذ لا يرغب في أن يكشف ستره بهذه السرعة. لم يكن سليمان يومًا من سريعي البديهة أو المميّزين بالفطنة. فبدأ يتلعثم ويغمغم لتخرج كلماته بلا معنى.
كانت تلك هي اللحظة التي ظهرت فيها فتاة تداري جزءًا كبيرًا من وجهها بغطاء رأس يرفرف كأشرعة سفينة كبرى. وضعت يدها على كتف سليمان الأخرى وهي تهتف:
ـ أين ذهبتَ يا سماحة؟ أتترك أختك وحدها هكذا وسط الشجار؟ أتلك وصية أمي لك؟ كونك أبكم وأصم لن يعفيك من لومها حين نعود.
نظر لها سليمان في ذهول وقد تعرّفها على الفور فجاراها في حجتها وتصنّع عدم الفهم والبلادة. أرخى رجل حفظ الأمن قبضته، وجذبته ريحانة مبتعدة به عن بؤرة الخطر.
ـ ما الذي جاء بك هنا يا سليمان؟ أتود أن تقضي نحبك قبل أن تنقذنا؟
ـ الحقيقة ما اعرفش. البوّابة جابتني هنا من نفسها بدل القصر. الظاهر إنها كانت فاهمة إني عاوز أعرف المشاكل من وجهة النظر التانية بتاعة الناس بدل كلام وتخاريف الوزراء والحكماء والمستشارين.
أمّنت ريحانة على كلماته ومعترفة له أن الأمور تسوء يومًا عن يوم. وأنها أصبحت تشك في الجميع، ما عدا العجوز رحيم بالطبع. الناس يضجّون ويرزحون تحت وطأة الفقر والجوع والمرض، والجميع تحت رحمة الهجمات المدمّرة للقوات

السوداء.
أشار إلى مبنى كبير في نهاية السوق متسائلًا عن كُنه هذا المكان، فأجابته بأنها دار للعبادة. أشار لها بالدخول، فاستجابت له وقد بدا عليها الفتور.
جمع كبير من البسطاء يزعق فيهم رجل مهيب يرتدي زيًّا مميّزًا عرف على الفور أنه زي رجالات الدين هنا. لغة الرجل متشدّدة، يلوم الناس على ابتعادهم عن الدين وفساد أخلاقهم وعدم تسليمهم بالقضاء والقدر واعتراضهم الدائم على المكتوب والسخرية من أولي الأمر. لن يندهش إذا عرف أن القوات السوداء هي جنود سماوية تهبط عليهم لمعاقبتهم على فعالهم الشنيعة وذنوبهم التي جاوزت الجبال طولًا.
استشعر سليمان اختناقًا شديدًا وود لو أخرج كمانه من جعبته ليعزف في الناس ولو على سبيل البهجة والتسرية. سحبته ريحانة من ذراعه في حزم وعيون رجل الدين تحدجمها بنظرة نارية حانقة.
أمام دار العبادة يتعلّق بذراعه مخبول قذر مشعث الشعر تزكم رائحته العطنة أنفيهما، مثله مثل الكثير في الشوارع والأزقة. يصرخ فيهما كالمجنون:
ـ الموت للجمييييييييع.. لن ينجووووووووو أحد... سنمووووووت كلللللناااا..
أفلت سليمان ذراعه في قرف شديد وبدأ يحثّ الخطى مبتعدًا عن كابوسه المتجسّد في كثافة غير طبيعية. كان يتنفس في ثقل شديد. فبدأت ريحانة تمسح بباطن يدها على كتفه في محاولة لتهدئته وطمأنته:
ـ هوّن عليك يا سليمان. هذا غيض من فيض. لنذهب لمكان آخر. ما رأيك بمكاننا السريّ حيث ما تبقى من المروج الخضراء التي تحب.
نظر لها سليمان في قلّة حيلة وهو يقول في لهجة مستسلمة:
ـ ليه أنا؟ إيه المفروض اللي أعمله أنا؟ أنا ما باعرفش أعمل حاجة في الدنيا غير إني أحب الناس وأعزف على الكمنجة؟ دا ممكن يحل إزاي؟
ـ أتظن أن الدنيا تحتاج لشيء آخر؟
التفت لها كالملدوغ هاتفًا: قصدك إيه؟
ـ لو أنك أحببت من حولك، وأشعت بينهم الموسيقى فلن يبقى مكان لأي شرّ أو خبث أو ظلام.
ـ بس أنا ضعيف.. ولوحدي.
ـ أنا معك، وأنت المصطفى المنشود، فلا بد أنك تستطيع ذلك على نحو ما. أنت فقط تجهل ما تقدر عليه.. بل كلنا كذلك.
التمعت الفكرة في ذهنه فنظر لها باشًّا وهو يقول:
ـ ريحانة أنا عاوز أقابل العلماء.. همّ بس اللي هيقدروا يردوا على الأسئلة بتاعتي. مش عاوز حكماء ولا وزراء ولا مستشارين. بس المستشار العلمي

وأفضل العلماء اللي عندنا.
ابتسمت له في ثقة وهي تقترح عليه:
ـ أظن أنه من المناسب أن نبادرهم نحن بالزيارة. القصر لم يعد المكان الآمن لأي شيء، كما أن وجودك هناك الآن فيه خطورة، فلا تنسَ أن الغرفة المقدّسة متعلّقة بك، وكل أسرارنا والكنز الذي نحميه مرهون بك.
نظرت له في حنو يصهر أعتى الرجال وهي تواصل:
ـ ابقَ بعيدًا يا سليمان. أنت الأمل الأخير. دعني أحميك وأساعدك.
اقترب منها سليمان في ودٍّ حقيقي.
اتسعت عيناها، فبدأ يشعر بالدوار وهو يسبح في فلك بؤبؤهما.
تدور قزحيتاهما كدوامتين صغيرتين يذوي ويذوب فيهما سليمان كذَرّة ملح ضعيفة لا حول لها ولا قوّة.
جسده يسري فيه خدر لذيذ وشفاهه ترتعد وقد اشتهت الوصل والاقتراب.
تتوتر أصابع ريحانة وهي تشعر بنفسها منجذبة على نحو لم تعرفه قبلًا.
توقف بهما الزمن.
وبدا كما لو أنهما يسمعان ويستمتعان الآن بلحنهما الخاص.
لحن لا يسمعه سواهما، ويعزفه الكون لهما.

٢٨. بـدايات ونـهايات

شيء يضايقك وشيء يفرحك،
كلاهما في المكان نفسه،
وكلاهما اختفى،
ما شعورك إذًا؟
ضيق أم فرح؟
هكذا لم تشعر حسنية بأي فرق بعدما ترك نادر وأمهات أبنائه الوهميين شقتهم التي تواجهها، حتى إنها لا تعلم من الأصل ما آل إليه، ربما لأن الحبيب المرجو من الدنيا متغيّب هو الآخر، كعهده في الفترة الأخيرة، لا يوجد إلا لمامًا ويختفي بالأيام والأسابيع.
لحنها الوحيد الذي ارتضته صبرًا على دنياها..
وأملًا في غدٍ ربما يأتي بشيءٍ مغاير.
لم تدرِ كم هي محقّة في انتظارها وإن جاءت الرياح بما لا تشتهي السفن.
إذ تسير الأمور على نسق واحد ووتيرة واحدة حتى تنقلب الدنيا رأسًا على عقب، فحينما يهدأ الموج، لا تطمئن، فهو مجرّد موج وقد هدأ، ألا يثور الموج فيصير غولًا غادرًا يكسح كل شيء في طريقه، بل إن بعض الأمواج قد تتعاظم لتصير موجة تسونامي قاهرة قاتلة مدمّرة.
هكذا تحوّلت دنياها إلى موجة التسونامي العظيمة تلك التي تقتلع الأخضر واليابس في طريقها.
جاءت على شكل نوبة تشنج محمود هذه الليلة، والمنقذ الأسطوري غائب، في سخرية تتساءل عن مدى قدرتها على الاستعانة بنادر لينقذها لو أنه ما زال موجودًا؟!
ماذا لو أنه ترك البيت دون سابق تحذير أو إخطار؟!
أنّى لحسنية الضعيفة المتهالكة أن تتصدّى لموجة تسونامي وحدها.
صرخت منادية الجيران رغم أن الساعة قد تجاوزت منتصف الليل، هكذا تسارعت خطوات عدّة نحو بابها هبّت استجابة لاستغاثاتها، وضعت السرنجة البلاستيكية في فم محمود بعد جهد عظيم كيلا يعضّ لسانه فيقطعه وأعطته حقنة مهدئ لم تفلح في إيقاف الزلزال الذي اختار جسد محمود الناحل الواهن مُستَقرًّا ومُقامًا.

وحينما وصل الجميع لاستقبال المستشفى الحكومي القريبة من الحي كانت حالة محمود حرجة للغاية، تحلّقت حوله مجموعة من الأطباء الشبّان وقد أُسقط في أيديهم. ارتباك الممرضات، وتدافع أطباء آخرين بملابس العمليات الزرقاء والأرجوانية والخضراء إلى الترولّي الذي يرقد عليه محمود وقد صار رواله زبدًا كرغاوي الصابون بيد أن لونه أحمر، لون الدماء التي تختلط بلعابه، قرقعات مخيفة تسمعها حسنية التي بدأت تبكي وتنشج فتضرب كفّ يدها بصفحة صدرها البيضاء اللامعة الظاهرة من بين طيّات العباءة السوداء التي التحفتها على عجل. تراهم يوصلونه بشاشة عليها خطوط متعرّجة وأرقام، يجاهدون لتثبيت الكانيولا في أوردته ليتسنى لهم تعليق المحلول له، ممرض عفيّ ضخم الجثّة حاول تثبيت جسد محمود المتشنج الذي يتصاعد صراخه ممزّقًا نياط القلوب، أيقنت حسنية أن الأمر ليس على ما يرام.

ـ لازم يدخل الرعاية حالًا..

ـ مش راضي يستجيب للأدوية..

ـ ضربات القلب مش منتظمة..

ـ خديه بسرعة على حتّة فيها رعاية...

ـ الواد بيمووووووووت...

ـ اتحركوا بيه بسرعة...

ـ ما تسيبنيييش يا محموووووود.. ما تسيبنييشش يا اخوووويااااا...

يرتبك الجميع ولا يعرفون كيفية التصرف، مشادات من أحد الجيران مطالبًا بإدخاله الرعاية في المستشفى هنا متحدّثًا عن الفساد والمحسوبية وحقوق الغلابة، جار آخر حاول تهدئته مستعينًا ببعض النصائح والموروثات ذات الصبغة الدينية، جارة تتوعّد بفضحهم وتأليب الرأي العام عليهم، و... و... و...

ـ أووووسسسنييييياااااااااااه...!

جاءت صرخته باسمها متحشرجة ضعيفة مستسلمة يتخلّلها صوت كالصفير.

فارتعش جسده ارتعاشة أخيرة.

ثم خمد.

صمت الجميع، حتى حسنية صمتت، إنه جلال الموت المهيب.

اقتربت من جسد أخيها الناحل الذي استكان وكفّ عن التنفس.

صرخ طبيب:

ـ ابدؤوا السي بي آاااار.. يلّا... حاااااالًااا...

مع صرخته دب النشاط مرة أخرى في زملائه وهم يبدؤون في معاونته لإجراء التنفس الصناعي، أحدهم ثبّت «الأمبوباج» على وجه محمود وآخر بدأ في الضغط على قفصه الصدري في قوة هشّمت ضلوع الجثة المستسلمة.

في ارتياع بدأت حسنية تجذبهم بعيدًا عن جثة محمود صارخة بكل ما فيها من قوة:
ـ سيبووووووه.. خلاااااااص.. سيييبووووووه.. خلّووووه يرتاااااح... سيبووووووه يا ولاد الكلب.. سيبووووووووه...
واصل الأطباء ما كانوا يفعلونه وبدأت طبيبة شابة في تجهيز سرنجة كبيرة محمّلة بمادة الأدرينالين ووجهتها نحو صدر محمود عند منطقة القلب تمامًا. في هستيريا واصلت حسنية الصراخ وقد خلعت نعلها وبدأت في ضرب الجميع، وشدِّهم، بل عضِّهم وركلِهم.
اقترب الجيران من حسنية وقد أيقنوا أن نوّارة الحي قد فقدت عقلها بعدما مات أخوها الذي وهبت نفسها لخدمته مضحيّة بالغالي والنفيس. امرأة من الجيران تطبطب على ظهرها وهي تجذبها بعيدًا لتحضنها، آيات قرآنية ودعوات من جار آخر، بينما بدأ الثالث يحدّثها عن النصيب والقدر وأنه قد ارتاح الآن من كل عذاباته.
رفعت عينًا باكية محمرّة تنظر في شزر، مخاط أنفها مختلط بلعابها مشوّها شكل وجهها وملامحها، وقد أدركت صدق ما قاله الجار.
كم يكون الموت رحيمًا في كثير من الأحيان!
نحن فقط لا ندرك ذلك قبله، أو في حينه، بل ربما بعده أيضًا..
متشكّكين أحيانًا في خيرية كل ما يقوم به القدير العالم ببواطن الأمور..
متسائلين عن كُنه اختيارهم بالذات دونًا عن سائر الكائنات..
الأسئلة...
الأسئلة التي لا إجابات لها...
أكبر قاتل على مدار التاريخ..
وأكبر جريمة ترتكبها في حق ذاتها..
وتظل الأسئلة دومًا بلا إجابات.
لقد خلق اللـه البشر جاهلين ومذعورين وخائفين على الدوام.
حسنية الآن كذلك!

* * *

«أنت لا تولدين أنيقة، الأناقة ابتكار»

جملة خبير التجميل البولندي الأشهر ماكسميليان فاكتوروڤيتش ومؤسس ماركة المكياج الشهيرة التي عُرفت فيما بعد باسم «ماكس فاكتور» حين اخترع مكياجًا مختلفًا وقصّة شعر جديدة للممثلة نورما چين التي عرفها العالم كله بعد ذلك كنجمة الإغراء والأنوثة الأولى في العالم، مارلين مونرو.

هكذا غيّرت مَلَك من مكياچها وقصّة شعرها في عملية «ميك أوڤر» سريعة لم تستغرق سوى أسبوع بالعاصمة اللبنانية بيروت، جاءت منها مستعدة لحياة جديدة، ورجل جديد.
هذه المرة رجل أعمال جديد، وصفقة جديدة، وزواج جديد.
هشام السروي اسم يعرفه القاصي والداني وسيرتبط اسماهما عمّا قريب.
كانت مستعدة لأن تدوس على قلبها وتطفئ رغبتها العارمة وتستأنف ما تجيده أفضل من أي شيء آخر غير عابئة بفشلها الأخير الذي لن تتوقف عنده كثيرًا بطبيعة الحال.
هكذا انحسرت رويدًا رويدًا نغمات سليمان التي ربما اختلطت بجدران المنزل وتوغّلت في تكوينه.
من الجميل أن تحتفظ مَلَك التي لم تعتد الخسارة يومًا في أي صفقة من صفقاتها بسر دفين كهذا بين طيّات روحها، فهذه الدروس المجانية لا تأتيك بسهولة.
تقرأ بنود عقد الزواج في عناية ويدان مُدَرّبتان تدلِّكانها.
تضع علامة هنا، وتعليقًا هناك.. ستغيّر هذا البند فهو لا يعجبها...
محاميان يتجالسان فيعدّلان ويغيّران ويصيغان ويستفيدان.
لتوقّع بعد عملية «ميك أوڤر» المحامِين الصغيرة السريعة على العقود بقلم من الذهب الخالص.
وهكذا وضعت سماعات الأذن مستمتعة بنغمات ليدي جاجا والطائرة الخاصة تقلّهما إلى جزيرة مؤجرة من الجزر التايلاندية التي لم يسمع اسمها أحد، حيث سيقضيان أسبوعَي عسلهما بعيدًا عن أعين الغرباء والمتلصّصين.
هكذا تكون البدايات الجديدة.
والحيوات المتجدّدة.
والصفقات الجيّدة.
ومن يدري، لربما واتتها الفرصة مرة أخرى في طلاقها الجديد.
أليس الغد البعيد، بقريب؟!

* * *

مئات من الشباب يبدؤون رحلتهم اليومية باكرًا بحثًا عن «الاصطباحة» أو سيجارة الحشيش. قد تبدأ تلك الرحلة ليلًا في بعض الأحيان.
اعتاد رامز أن يجري مكالمة سريعة مع الديلر الذي يتعامل معه، في أي وقت من اليوم، فيحضر له طلبه كل يوم أينما يريد وفي أسرع وقت. يفاجأ الليلة بالديلر يخبره أن هناك نقصًا شديدًا في الحشيش، والنوع المتوفر مغشوش، لا ينصح به. بالطبع لا يترك الديلر زبونه طويلًا لحيرته، فيعرض عليه نوعًا آخر من

المخدرات، أغلى قليلًا لكن مفعوله أقوى، وأنظف، اسمه الشعبي المنتشر بين مروجيه ومتعاطيه هو «استروكس». يخبره الديلر أن ثمّة نوعين من الاستروكس، الأخضر وهو عبارة عن نبات البردقوش تضاف إليه المادة الفعالة عن طريق رشه. والنوع الثاني تبغ جولدن فيرچينيا، يُضاف إليه المخدر بالطريقة نفسها. ولا تسمى سيجارة الاستروكس بكلمة «چوب» كالحشيش، إنما تسمى «اسبلف»، وهو ما يعادل ثمانية أنفاس للسيجارة الواحدة.

يرغب رامز لشريكته ورفيقته لهذه الليلة تجربة جديدة من نوع خاص، وقد طمأنه الديلر أنه من السهل أن ينقطع عن هذا المخدر عندما لا يكون متوفرًا، أنت لا تدمنه إلا حين تتاح لك إمكانية أن تصل إليه. كما أنه لا يظهر في تحليل بول أو دم.

بدا الأمر مشجّعًا لعُلا، وهكذا استقر «الاسبلف» بين شفتيها وهي ترشف رحيقه في شبق كقبلة محمومة.

مرّ النفَس الأول.

وبعد النفس الثاني بدأت تقل رؤيتها لتصبح مزدوجة، وانعدم تركيزها تقريبًا، بدأت تدخل فيما يشبه الحلم، أو الكابوس، تتولّد لديها الرغبة الملحة في عمل أي شيء جديد. شيء لا تستطيع تحديده، لكنه سؤال في داخلها يطاردها بعنف، والسؤال يزيد كلما مر الوقت، حتى خطر على بالها سليمان فتتساءل فيما يشبه الهذيان متى سيأتي، ربما استحضرته الآن بحثًا عن أي شيء تطمئن إليه، فصارت في حالة انتظار له ولمحادثته لتشعر معه بالأمان.

مع الوقت ازداد الأمر لتنخرط في بكاء مرير.

أما رامز فقد اكتفى بتغميضة عينين وقد استشعر موتًا قريبًا ورأى أقرب أصدقائه يغسّله ليكتشف سيجارة حشيش في جيبه، يأخذها منه وهو يستأنف تغسيله في برود.

بعد ساعة تقريبًا زال أثر الاسبلفَين اللذين تناولاهما وتبادلا النظرات.

كانا في حالة مزرية للغاية.

كلاهما يشعر ببؤس فظيع، وإحساس قاهر بالوحدة والنقص.

تمتد يده في تمرّس أسفل ملابسها، وهي لا تجد غضاضة في الأمر.

تعض شفتها السفلى في مرارة من فَقد شيء لن يعود.

مقطوعة سليمان تدكّ أرجاء عقلها في شماتة.

تذكرها أنها هي من أنهت الأمور بيدها.

هي التي افتعلت كل مرات الشجار معه وهي ترى العيون تلتهمه أثناء العزف.

هي التي خافت على نفسها المنافسة وفقدت ثقتها بذاتها فطوّحت الأمر كله بعيدًا عنها.

هي التي لم تقبل على نفسها أن تبذل جهدًا أكبر في علاقتها به ففقدته للأبد.
اليد المتسللة تصل إلى مناطق أعمق وألصق وأكثر حميمية.
لا يثيرها الأمر، ولا ينفّرها، وكأنه جسَدُ أخرى وليس جسدها.
أنفاسه اللاهثة على جلدها لا تشعر بها.
وقبلاته المنهمرة على الأجزاء التي بدأت تبين منها في اطّراد.
عادة ما تكون هذه اللحظات هي البداية لسلسلة لا تنتهي من الأفعال التي يندم عليها المرء فيما بعد.
الأشياء التي نفقدها لا تعود.
الأشياء السيئة التي تحدث للمرء لا حدود لها.
ليس الاستروكس أسوأها بالطبع.

٢٩. السلاح الفـتّاك

للناس روائحهم المميزة، هالات نورهم الخاصة، بل ذبذبات من نوع خاص. هكذا يقابل بعضنا بعضًا، ليتولّد الانطباع والرأي الأول فنقرّر القبول أو النفور. هكذا أحس سليمان بالأمان وريحانة تقوده عبر طرق ودهاليز خفية كيلا تترصّدهما عيون رجالات أكثم الذي يبدو أنه قد توغّل بيديه في أعماق المملكة وسخّر كل قياداتها وصانعي قراراتها ليكونوا تحت إمرته وملك إشارته. لم تكن ترغب في أن تتواصل مع رحيم مباشرة لأنها موقنة بأنهم يراقبونه هو الآخر. في حياتنا نتساءل دومًا عن نيّات الآخرين تجاهنا طوال الوقت، تُرى ماذا يضمرون لنا، بل للجميع. الكلام أسوأ اختراعات الكون، لأن الكلمات مراوغة ومداهنة. يمكنها الادعاء والاختباء خلف رايات الشرف والحق والخير والصدق والأمان والجمال. وقد أثبتت كل التجارب أن هذا محض هراء. أخذ سليمان يتأملها وقد بدت بارعة الحسن وفائقة في الجمال وقد أغمضت عينيها محاولة أن تبعث برسالة لرحيم بمكانهم الحالي وطالبة منه المشورة. وبعد برهة ليست بالقصيرة فتحت عينيها وانفرجت أساريرها.. ففهم أن رحيم قد أخبرها بالمكان المناسب ليتوجها إليه. في الطريق وجه لها عينيه المتسائلتين وهو يقول:

ـ ممكن أسألك إنتِ إزاي عرفتي إني موجود في السوق؟

ـ أنت أخبرتني.

ـ نعم؟! إزاي يعني؟!

ـ روحك أخبرتني بمكانك. الأرواح كلها متصلة على نحو لا نعرفه يا سليمان. ألم أزرك أنا في أرضك لأستغيث بك؟ هذا أيضًا ما فعلته روحك حين مجيئك المملكة. هي أخبرتني بمكانك.

ـ وهي طبعًا اللي كلمتِ بيها عم رحيم.

أومأت برأسها إيجابًا وقد بدا عليها التحفّز المفاجئ. فذعر سليمان وسأل في خفوت شديد:

ـ حصل إيه؟ اتكشفنا؟ حد شافنا؟

ـ الرؤية لا تكون بالعين فقط.. ولكن لأطمئنك فالإجابة: ليس بعد.. ولكنهم بالجوار. فقط تمهّل ولا تتحرك الآن.

هكذا أعادت ريحانة غطاء الرأس على وجهها ورفع سليمان قلنسوة مثبتة في ملابسه مغطيًا بها رأسه وأطرق بوجهه ليخفيه. جذبته ريحانة في مسلك جانبي لم يكن باديًا للوهلة الأولى. حتى وصلا في نهاية المطاف للبيت الآمن

عبر دروب وعرة ودهاليز بين الجبال المتاخمة لحدود المنطقة الثانية. كانت رحلة وصولهما مرهقة للغاية، حتى استقبلهما العجوز رحيم في مودة وترحاب شديدين وقد أعد لهما طعامًا ساخنًا وبعض المشروبات. أكلا وشربا في نهم فقد بلغ بهما الإعياء مبلغًا شديدًا. أخبرهما أن أكثم والآخرين قد أحكموا قبضتهم على القصر، ولولا أنه لا يمكن فتح الغرفة المقدسة إلا لمن تأذن له لحصل ما لا تحمد عقباه. أخبره أيضًا أن هجمات القوات السوداء صارت يومية وفي أكثر من مكان وبشراسة ووحشية أكبر وأن الأمر لن يطول قبل أن تهجم هجمتها الأخيرة لتستولي على كل شيء. الناس يضجّون ولكن ليس في يدهم ما يفعلونه، وهو مضطر لمجاراتهم والبقاء في محيط القصر وقاطنيه محاولًا كشف الخيوط والبحث عن الثغرة التي ستمكنهم من مقاومة ما يواجهونه. أخبره سليمان برغبته في مقابلة العلماء فهو على يقين أن العلماء هم الطريق الصحيح لمواجهة هذا الخطر. تبادل رحيم وريحانة النظرات فما يقوله سليمان لم يكن مفهومًا له. كانا يتخيّلان أن سليمان لديه قوًى سحرية خاصة يستعيد بها السيطرة على كل شيء، فيطرد أكثم ويستبدل الفاسدين. يصلح الناس ويؤلّف ما بينهم مرة أخرى ليعملوا ويتكاتفوا ويحاربوا العدو بشجاعة في معركة كبرى ينالون بها حريتهم أو يموتوا دون ذلك. كان رحيم فارسًا بحق، ويؤمن بأفكار الفرسان. لذا لم يتشكّك يومًا في النبوءة ولا امتعض حين وجد أن السطان المنشود مجرد شاب من عالم آخر لا سلاح لديه سوى آلة موسيقية. رحيم نفسه الذي عاش طوال سنوات عمره خادمًا للمملكة ومنتظرًا ظهور المخلّص الذي سيعتقهم مما هم رازحون تحت وطأته لم يعرف كُنه ما يحدث من صراع. ولا يعرف سببًا منطقيًّا أو وجيهًا لوجود الشر في العالم. رحيم العجوز يبدو أنه لم يعش يومًا، فهو ما زال جاهلًا تمام الجهل، ويقينه يقين الأطفال السُذّج. عاش طوال حياته على الأمل. أخبرهم أن هذا هو بيته القديم، وكان من المفروض أن يورثه لأبنائه لولا أنه لم يتزوّج قط. فبقي هذا المنزل مخفيًّا عن الأعين هكذا بعد أن غيّر رداء بساطته وبراءته وارتدى عباءة الوزير وصار من سكان القصر. ما لم يعرفه أحد أن رحيم أصلًا من أهل المنطقة الثانية وأن الملك السابق اختاره لأمر لا يعلمه رغم أنه كان مجرد عامل من عمّال القصر. جالت بخاطر سليمان فكرة طارئة فسأله:

ـ عم رحيم ممكن أسال حضرتك سؤال.

ـ أمر مولاي.

ـ هو أبويَ كان بييجي المملكة هنا؟ كان ليه دور هنا؟ كنت تعرفه؟

ترقّبت ريحانة الإجابة وقد وجدت أن أسئلتها الشخصية قد بدأت تطفو على السطح.

تنحنح رحيم وهو يقول:

ـ بعض الأسئلة تبدو بلا جدوى يا مولاي. أسئلة الماضي عمومًا لا طائل منها. هذه هي كل الإجابات المحتملة. فأي منها سيفيدنا فيما نحن فيه الآن؟

كانت إجابة رحيم محبطة للحد الذي وأدت بها ريحانة أسئلتها الخاصة.

كان الليل قد خيّم على المملكة، ولم يعد آمنًا أن يذهبوا لمقابلة العالم «مجيد» الذي يعلم أكثر من غيره فيما يتعلّق ببوابات القوات السوداء وتلك الظواهر المتعلقة بمجيئهم واختفائهم. أحس سليمان بخيبة الأمل فهو لن يستطيع النوم، لأنه إن فعل فسيعود إلى أرضه مرة أخرى دون أن يحرز التقدم المرجو ويتوصل لطريقة محاربة الغزاة. في كل مرة نام فيها أو غاب عن وعيه، وجد نفسه قد عاد، وهو لا يرغب في أن يخاطر هذه المرة. تساءل سليمان عن مدى ثقة رحيم بمجيد هذا، فأخبره أنه أهل للثقة وأنهما أصدقاء منذ الصغر ولن يكون في مقدور أحد أن يمد يد المساعدة مثله.

هكذا وجد سليمان نفسه مضطرًا أن يدخل غرفته محاولًا ألا ينام خصوصًا مع الإعياء الذي يشعر به، وقد ثقل جسمه بعد الطعام والشراب. فكّر أن يغتسل أولًا لينفض عن جسده آثار الإعياء ثم يعود إلى غرفته. وبالفعل نجح في ذلك، وربما التحفّز والإثارة التي لم يعهدهما سليمان قبلًا سببًا في إحجام النعاس عن زيارته متماشيًا مع رغبته.

لم يكن أمامه أي تسلية يقوم بها سوى أن يتواصل مع رفيقة دربه وحياته.

في هدوء أخرج الكمان من جعبته وكان سعيدًا للغاية لأن بيت رحيم في منطقة نائية للغاية لكأن أحدًا لا يعيش هنا.

كأنها المرة الأولى أحس سليمان أن النغمات تأتيه دون أن يطلبها. لحن جديد كأنه وحي آخر. أراد أن يوقظ رحيم وريحانة، ولكنه أبى. واصل العزف ليسمع قرقعة عنيفة فارتعد وخاف. فكفّ عن العزف وهو لا يدري سببًا لذلك أو ذاك. لا يعلم ما الذي حمله على العزف، ولماذا هو خائف الآن من المواصلة.

لدهشته وجد أن ضوء النهار قد بزغ.

مع بداية حركة سائر الكائنات احتمى ثلاثتهم بزحام الناس، حتى وصلوا لغايتهم فاستقبلهم العالم مجيد في ود وترحاب بالغين. أحس نحوه سليمان بالراحة منذ الوهلة الأولى. أخبرهم مجيد أن ثمّة نظريات لتفسير ما يحدث، منها نظرية الأكوان المتعددة التي تعتمد على وجود عدة أكوان موازية أو متطابقة وأن ثمّة طرق أو دروب خفية توصل بينها. النظرية الأخرى هي نظرية الأرض المجوّفة وهي أن كل العوالم تبدو كالطبقات المتتالية فيبدو غلاف كل أرض كأنه سماء الأخرى وهكذا، ولكنه لا يميل كثيرًا لهذه النظرية، والبوابة ما هي إلا بوابة بين الطبقات تمامًا كأبواب الغرف داخل البيت الواحد. ثم بدأ يعرض عليهم مواد فيليمة لمشاهدات انفتاح البوابات وغلقها وأن أجهزة الرصد عادة ما كانت تستشعر ذبذبات هائلة وتغيّرات في الأغلفة الجوية لسماء المملكة قبل وبعد كل اختراق. المشكلة أنه لم يكن ثمة مكان واحد ثابت، بل يتغيّر ما بين المرة والأخرى. بعض الأماكن تكرّرت ولكن ليس بنسق منتظم، وفي بعض الأحيان

كانت تنفتح أكثر من بوابة في آنٍ معًا. تساءل سليمان عن بوابته هو، التي يجيء منها، فأخبره أنها تسجل نفس الذبذبات ولكن بصورة مغايرة أو معكوسة. وهو ما يقودهم لنظرية ثالثة وهي نظرية الأكوان المعكوسة أي إن كل كون هو انعكاس كون آخر، وتلك البوابات هي أماكن التماس أو نقاط ضعف في الحيّز ما بين العالمين. هذا يعني أن ثمّة عوالم ثلاثة تمثل المملكةُ القاسمَ المشترك بينها، وربما أن هناك عوالمَ أخرى ولكن بواباتها لا تؤدي إليها. وهنا خبط على جبهته في ندم وهو يخبرهم أن الأمس شهد ظاهرة فريدة من نوعها. فقد انفتحت بوابة سليمان وقت الظهيرة وفي وقت متأخر من الليل حدث شيء عجيب للغاية. نظر ثلاثتهم بعضهم إلى بعض في قلق. فأن تسجل أجهزة مجيد حضور سليمان بهذه السهولة والبساطة يعني أن آخرين من الممكن أن يكونوا على علم بوجوده الآن في المملكة. هكذا هتف فيهم مجيد وهو يعرض مادة فيليمة جديدة، يظهر فيها بدايات انفتاح بوابة على شكل بقعة زرقاء مضيئة، بدأت تتسع تدريجيًّا لتصبح دائرة أو فجوة مع تغيّر لونها للحمر، فالأخضر، وهنا حدث الشيء العجيب للغاية، بدأت الدائرة في الانحسار، مع عودة لونها للأحمر. تبدأ الفجوة في الاتساع ثانية لتتحوّل للأخضر وتبين بعض النقاط السوداء الصغيرة ضمن هالة الضوء التي تصنعها الدائرة التي بدا كما لو أنها في طريقها للتحوّل للّون الأصفر. لولا أنها عاودت الانحسار وتغير اللون بشكل عكسي، ثم صدر صوت قرقعة مخيفة فاتسعت عينا سليمان في دهشة بالغة وتألقت عيناه في شدّة. هو يعرف تلك القرقعة جيّدًا. بل يعرف الآن ربما كل شيء.

نظرت له ريحانة في جذل، وكاد رحيم يصفق في سعادة كالأطفال، وسليمان يخبرهما أنه الآن قد أدرك كل شيء.. وأن الأمر كله متعلق بالذبذبة والنغمات، ما هو إلا موجات أو ذبذبات، كل شيء في الدنيا وله نقيضه.. الخير والشر، الضوء والظلام، القبح والجمال، وكذا الألحان والذبذبات. هذا سر وحي الأمس، كأن الأمر كله معتمد على نبوءة فوحْي فوحْي آخر. الأمر كله مرهون بتصاريف القدر، وهي تسيّر الأمور أنّى شاءت. وها هو الآن مجرد شخص غريب في بلاد غريبة تحت اسمٍ لا دخل له به ولم يختَره لنفسه. سليمان سلطان المملكة العازف الذي جاء لينقذها من الهلاك المحتوم.

والسر في اللحن.

والسر في قدرته على استقبال وحي الألحان وترجمتها إلى واقع.

هو مجرد أداة، تمامًا كقوس الكمان التي يُتلاعب بها لتصدر النغمات، هو كقوس كمان في يدي القدر والصدفة والنصيب. شكر مجيدًا في حرارة فهو لم يخيّب ظنّه فيه. قهقه رحيم مؤكدًا حسن اختياره لأصدقائه.

ثم حدث كل شيء بسرعة.

اقتحم المكان عدّة رجال بملابسهم السوداء الكاملة.

لم ينطقوا ولم يحاولوا أن يفعلوا أي شيء.
في سرعة كانوا يحاولون القبض على الجميع.
لقد صدق خوف سليمان.
بدؤوا في مقاومة ساذجة لصد ضربات الملثمين، حاول أن يدافع عن رفيقيه ويصد عنهما الهجوم، إلا أنه كان أضعف من أن يتحمل الضربات المتتالية. صرخات ريحانة تخترق أذنيه فتكاد تفتك برأسه. كان يشعر بالوهن الشديد رغم أنه كان يقاتل بضراوة، والغريب أن كلًّا من رحيم ومجيد كانا على قدر لا بأس به من القوّة والرشاقة للاشتباك مع المعتدين.
استطاع أن يوقع أحدهم بضربة قوية في فكّه، عندما لمح ذلك السلاح يلتمع في قبضة أقرب مهاجميه. لم يكن وحده من رآه، بل كان رحيم أيضًا. وفي اللحظة الأخيرة دفع رحيم نفسه في الفراغ الكائن بين سليمان ومهاجمه ليتلقّى عنه الطعنة الغادرة.
صمت كل شيء.
وتوقف الجميع عما يفعل والوزير العجوز ينزف دمًا على أرضية مختبر مجيد الذي تحطمت بعض من أجهزته.
انخرطت ريحانة في بكاء مرير.
صرخ مجيد صرخة بائسة وقد فقد صديق عمره الآن.
توقف المهاجمون وأزاح أحدهم اللثام عن وجهه وهو يقول في لهجة آمرة:
ـ أيها السلطان لقد انتهى كل شيء. لسلامتك نرجوك أن تصاحبنا في هدوء وتجلب كمانك معك.
كان رجلان آخران قد تمكّنا من إحكام وثاق ريحانة ومجيد اللذين استسلما في قهر وعجز بالغَين. فلم يجد سليمان بدًّا من الاستسلام لهما في غضب شديد. فأوثقه أحدهم ووضع غمامة على عينيه. وبدؤوا في اصطحابهم خارج المكان وقد أدرك سليمان أنها النهاية التي كان يخشاها منذ البداية.
لقد فشل كالعادة.
لم يكن يومًا مناسبًا لأيٍّ من هذا العبث.
كانت دموعه تتسرب من تحت الغمامة في مرارة حتى وصل بهم آسروهم إلى قائدهم الذي لم يكن غريبًا عنهم بطبيعة الحال.
هكذا أزاح أحدهم الغمامة من عينه، فنظر له أكثم في قرف شديد وهو جالس على كرسي العرش مكانه. استجمع سليمان بعض الشجاعة وهو يهتف فيه بلهجة آمرة:
ـ انت اتجننت يا قائد أكثم. بتقبض على السلطان بتاعك وتموّت وزير المملكة.. إنت لازم تتحاكم وتتسجن وتتشنق كمان.

ضحك أكثم ضحكة مجلجلة وهو يقول في تهكّم:
ـ مرحى! مرحى! عالمٌ وعازفٌ وأميرة مخلصة حالمة وعجوز مخرّف قضى نحبه مدافعًا عن القضية الخاسرة. لقد انتهى كل شيء أيها السلطان المنتهي الصلاحية. ولن يكون في مقدورك أن تخرّب بعد الآن. لقد عشنا طوال تلك السنوات نرزح تحت نير نبوءتك الخرِفة وهذيان البسطاء وبقايا رجال ملك اختفى منذ سنوات لا حصر لها. ليست هَكذا تدار الأمور يا عزيزي السلطان. لا مكان للهواة والحالمين والمؤمنين بالأساطير والخرافات. هذا العالم للرجال.. للرجال فقط.. الرجال الذين يعرفون كيف يحصلون على مبتغاهم ويسعون له، ولا ينتظرون هدايا السماء وحكايا الجدّات.
أشار بيده لأحد مساعديه فناوله كمان سليمان.. فواصل أكثم تهكّمه:
ـ أهذا هو سلاحك السريّ الخطير؟
وفي حركة واحدة خاطفة انهال به على مقبض كرسي العرش الذي غيّر لونه للأصفر فتهشم إلى قطع صغيرة. لكأن شيئًا ما كان يصل بين سليمان وكمانه، أحس بغصّة شديدة في حلقه، فاختناق رهيب يمنع الهواء من الدخول إلى صدره، وصداع عنيف أعقبه دوار أسود شديد يكتنفه، وفي لحظات سريعة غاب عن الوعي واختفى عن أنظار الجميع تاركًا إياهم في ذهول شديد.

٣٠. الغريب ابن الغريب

صوان منصوب في مدخل الحي وأصوات مقرئ تجلجل في الفضاء برجع الصدى الشبيه بأسطوانة بطيئة مشروخة، رجالات مهيبة يبدون تمامًا كما يبدو الأعمام والأخوال الذين لا مكان لهم في حيواتنا باختيارهم الحر، يتوسّطهم بالطبع ذلك الصبي اليافع الذي تبين أصابع قدميه من فتحات الشبشب الرخيص الذي يرتديه بشكل لا يناسب الحدث ولا الحديث.

هكذا تقدّم نحوهم سليمان ليسلّم على مجهولين، وصولًا إلى أشباه معروفين، فجيران، فوجوه مألوفة، يميل على أحدها فيدرك أن محمودًا قد مات. ها هو قد فقد الفرصة ليسمع «إيليماه» أخيرة دافئة، وهكذا فقدت حسنية ما كنت تظنه هدفًا لحياتها، ومسوّغًا لا بأس به لتوصيفها وتكييفها حسبما يظنّه الآخرون واجبًا وصائبًا وصحيحًا.

انفض مولد العزاء، ليجد سليمان فرصته في الاقتراب من حسنية التي بدت عجوزًا مطفية، لا نضارة بها ولا حيوية. في وهن رفعت نحوه عينًا لائمة، لكنها لم تنطق. أطرق سليمان أرضًا وود لو صارحها بالأمر كله لتتفهم سر تخليه عنها حين الاحتياج. مع الأسف لا نستطيع دومًا أن نقول كل ما نعرفه، أو نظن أننا نعرفه!

رويدًا رويدًا تنفض النسوة عنها كأنهن يفسحن المجال لهما أكثر فأكثر.

العيون كلمات، والصمت لغة.

أيسمح الموقف بحضن جديد؟!

مع الأسف، الحضن كالحقيقة، ليست كل الأحضان الواجبة ممكنة، هذا وإن ظننا أنها واجبة!

يرن تليفون حسنية، فتتجاهل الرنين في زهد.

يرن ثانية، فتستحثّها عيون سليمان للرد.

في عدم اكتراث ردّت على المتصل المجهول فيصله صوت ذكوري يتحدث في حماسة شديدة، بل قد تناهت إلى أسماعه ألفاظ شبيهة بالتهنئات.

العيون أسئلة، وسليمان ملك هذا المجال بلا منافس.

هكذا انتهت المكالمة بشكر مقتضب، أعقبته دعوة من حسنية لشرب القهوة بالشقة ومن ثمّ استكمال الصمت إن أحب.

على خلفية من قرآن عبدالصمد الشجيّ رشف رشفته الأولى. أخبرته ما حدث في غيبته، وزيارتها للمحامي وهو من كان يهاتفها منذ قليل.

غريبة هي الدنيا عندما تأتيك الفرصة في وقتك غير المناسب.
الأمر ببساطة أن حسنية لا تحتاج لرفع قضية لأن العديد من ذوي الضحايا الآخرين قد رفعوا قضايا بعد الحادث مباشرة، تكاثرت القضايا على الشركة فاضطرت لعرض المصالحة وصرف تعويضات كبيرة لهم، فأعدّت لائحة بكل الضحايا وخصّصت مبلغًا معقولًا كتعويض وتم إيداع هذه اللائحة مشفوعة بتنازل الأهالي لدى المحكمة، كل ما تحتاج إليه هو بطاقتها الشخصية وشهادتا وفاة والديها بالإضافة لبعض المستندات البسيطة التي شرع بالفعل في استخراجها وإعدادها بالتوكيل الذي لديه منها بالتصرف في هذا الشأن. صارت تملك مبلغًا لا بأس به من المال، وتحرّرت من أسر أخيها المريض، وتخلّصت من مضايقات نادر الذي لملم أذيال خيبته تاركًا لها الحي بأسره.
لاحت شبه ابتسامة على وجه سليمان وهو يقول في رزانة:
ـ اللـه غالب.. احمدي ربنا يا حسنية.. الدنيا حلوة..
نظرت له في مرارة وهي تئن قائلة:
ـ مبقاش ليها عازة يا سي سليمان، اللي كنت عايشة له مات.. (ثم بدأت تنشج وتنهنه لتنخرط في البكاء مرة أخرى)...
مواسيًا في صدق:
ـ ما تقوليش كدا يا حسنية. كل حاجة في الدنيا ليها حكمة وإنتِ تعبتِ وشقيتِ كتير.. والفلوس دي جت في وقتها علشان تعوّضك عن سنين الحرمان.. وتعملي بيها حاجة تفيدك وتخليكِ تقفي على رجلك مرة تانية.. الحياة لسّا ما خلصتش.. الحياة لسّا بتبتدي..
لا يعرف لماذا ذكرته كلمات مثل نهاية الحياة وبدايتها بمشكلات المملكة وريحانة ومقتل رحيم. رنا نحوها في رجاء، وهي توقفت عن النهنهة والبكاء لهنيهة كانت كافية لتلتقي الأعين، وتهدأ النفوس ولو قليلًا. هكذا انتقلت النظرات المتسائلة منه إليها، وكأنها تستحثّه أن يستأنف ما كان يقول، تطلب منه المشورة التي راودتها في ذهنها ألف مرة ولكنها لم تغادر شفتيها منطوقة أبدًا، وها هي الآن تواصل العادة، تاركة لعينيها مهمة طرح السؤال والطلب. ولدهشتها استوعب سليمان ما يدور في خلدها، ليستطرد قائلًا:
ـ مش إنتِ بتشتغلي على المكنة كويس؟ (أومأت إيجابًا).. طيب.. ما تعملي حاجة بالفلوس دي، مشروع مثلًا ولا مشغل ولا حاجة.. وتجيبي بنات تساعدك.. وتكسبي وتمارسي الحياة والعيشة.. على فكرة العيشة ممارسة ولما نبطل نمارسها.. نموت!
انخرطت حسنية مرة أخرى في البكاء لدى ذكر لفظة الموت، فاستشعر سليمان ندمًا رهيبًا وأدرك أن التعبير قد خانه ليغمغم معتذرًا، ومحاولًا توضيح ما كان يقصد في كلمات لم تتضح ولم تسمعها حسنية من الأصل.

انسحب سليمان في هدوء مربّتًا على كتفها في ود ومعزيًا مرة أخرى جديدة.
هو لا يدرك الآن أن كلماته سيكون لها وقع السحر على حسنية، تمامًا كما كانت نغماته من قبل، التي ستأخذ فكرته بجدية وتنفّذها بحذافيرها، وستتحوّل شقتها تلك إلى مصنع صغير يضم بين جنباته العديد من فتيات الحي المتحمّسات.
لا يعرف أن الأمر سيتطور أكثر فأكثر لتبدأ حسنية في النمو والارتقاء سلم الأعمال درجة تلو الأخرى، وأنه سريعًا جدًّا سيكون هناك خط إنتاج لملابس شعبية نسائية تناسب أذواق تلك الفئات من الشعب يحمل اسمها...
«حسنية».

* * *

ليالِيَ وأيّامًا عدة حاولَ سليمان العودة دون جدوى، لكأنه نسي اللحن أو لكأن الأقدار تمنعه من العودة بعد ما دنا من الحقيقة وتمت محاولة اغتياله.
كان مدركًا أن خسارته لكمانه هناك دخلًا بعدم قدرته على العودة.
كان من القهر والضعف والذل أن يتوصّل للطريقة المثلى لإنقاذهم ولكنه عاد قبل أن يعدّ العدّة للمواجهة الحاسمة. وها هو الآن غير قادر على العودة. وربما أن الصلة الروحية بينه وبين أهل المملكة قد انقطعت هي الأخرى.
طال الوقت وهو يحاول دون كلل أو ملل على كمان آخر، فآخر، بل إنه استعار كمانًا من نوع المونتانيانا يشبه كمانه المكسور تمامًا، دون جدوى.
حاول أن يستفسر الأمر من هند، ولكنها كانت مثله بلا إجابة.
جزء منها كان سعيدًا لعدم قدرته على العودة.
كل يوم هو في جوارها سعد وهنا.
هي خائفة جدًّا من قدرته على اكتشاف بوابة العودة من جديد.
عاودت التمرين معه بعد أن شفيت يدها.
صارت تجمع بينهما اللحظات الهانئة.
وهو لا يفتأ يذكر ريحانة ورحيم وأكثم والمملكة.
بل إنها بدأت تستقطب الفكرة الشاذة بأن كل ما جرى كان وهمًا في محاولة ساذجة منها لإبعاده عن العزم.
بهرته بتحسّنها الشديد في العزف، روحها الجديدة، ملابسها المنتقاة بعناية، وعطورها الأخّاذة، بل التغيير الشامل في شخصيتها.
كانت أميرة تدافع عن مملكتها الخاصة.
عن مليك قلبها ورفيق روحها الذي اختارته لنفسها بعد أن وضعته الأقدار صدفة في طريقها.

شيء ما داخلها كان لا يزال يشعر بالذنب تجاهه، بل تشفق عليه من رغبته المحمومة في العودة. شيء ما في نظرة عينيه، في نبرة صوته، في تغييره لتصفيفة شعره التي كانت تميّزه.

وحين أوشكت الجذوة أن تنطفئ والرغبة أن تخفت جاءته مكالمة من والدته تخبره أنها قد وجدت علبة من القطيفة لونها غريب للغاية، إذ إن العلبة صفراء. أجفلت الأم وارتعبت فقد وجدتها في غرفته منذ أقام فيها مرته الأخيره حين كان مريضًا.

أدرك سليمان كنه العلبة، بل عرف أيضًا ما تحتويه.

تساءل في قرارة نفسه عن جدوى ظهور الوتر الرابع في غرفته بالبلدة عوضًا عن مكانها المعتاد. ثلاث علب مخملية من ثلاث زيارات بألوان ثلاثة تحمل أوتارًا ملوّنة لم يرَ مثلها من قبل.. يجدهن على الكومودينو المجاور لسريره في غرفته على السطح حيث بدأ الجنون كله. والآن تظهر العلبة الرابعة في مكان آخر.

في لهفة أخبر هند بالتطور الجديد، فأدركت أن سيرة المملكة لن تموت.

كان الشعور قد تولَّد لديه بأن حكمة ما خلف هذا المكان الجديد.

تذكر كلام أبيه في تجلّيه الأخير عن اصطحابه للمملكة من عند العمارة المهجورة في آخر البلدة. هذا يعني أن ثمّة بوّابة أخرى هناك يمكنه أن يذهب من خلالها. لا بد أن البوابة التي فوق سطح عمارته هنا قد استنفذت مرات المرور منها مثلًا، أو صارت لا تستجيب لذبذبة لحنه، أو أن القوات السوداء أو المتآمرين عليه قد نجحوا في غلقها تمامًا كما أثّرت ذبذبات عزفه على انفتاح بوابة القوات السوداء في زيارته الأخيرة بالمملكة.

السر هناك في موطن طفولته والذي شهد السنوات القليلة لوالده معه.

استبد الخوف بهند وقد استشعرت قلقًا عارمًا فأبت إلا أن تصحبه في رحلته تلك.

لقد تحرّرت هند الآن وصارت صاحبة قراراتها بعد أن تغيّرت جذريًّا، ولم تكن لتسمح لحبيب قلبها أن يخوض تلك التجربة وحيدًا مرة أخرى، وربما أخيرة!

هكذا حملتهما الظروف والطرق ليجالسا أمه التي ظلت تتأمل الفتاة في فضول من يقيس الأمر بمقاييسه الخاصة. بالطبع هي تظهر الود والترحاب تجاه ضيفة ابنها، ولكن التساؤلات تنهشها والفضول يأكل كبدها فانتحت بابنها جانبًا تسأله وهي تمثّل أنها تعدّ الشاي للضيفة خصوصًا أن أخواته في الخارج الآن:

ـ مين دي يا سليمان؟

ـ هند يا أمي.

ـ أيوه يعني، هند مين؟

ـ طالبة عندي وصديقة عزيزة.

ـ دي بقى اللي كنت جايب لها الخاتم اللي نسيته عندي؟
ـ خاتم؟! خاتم إيه؟
ـ اللي في العلبة الصفرا.
ـ آاااااه.. العلبة الصفرا! لا يا أمي دا مش خاتم.
ـ أمّال إيه؟
ـ دا وتر.
ـ وتر؟
ـ أيوه يا أمي وتر كمنجة ونسيته المرة اللي فاتت.
ـ وتر؟! هو انتو بقيتو بتخطبوا اليومين دول بوتر؟!
تعالت ضحكته مجلجلة من فرط طيبة أمه.. ولم يجد ما يرد به عليها. تململت هند في جلستها وقد بدأت تتساءل عن مدى صحة ما فعلته من مرافقة سليمان في رحلته تلك، وكنه الحوار الدائر بينه وبين أمه الآن. تُرى هل تسأله عن علاقتهما؟ هل أخبرها أنها تحبه؟ هل قال شيئًا عن حقيقة مشاعره نحوها؟ في عصبية بدأت في قضم أظافرها وتعديل جلستها مرة تلو الأخرى. الآن تدرك أنها قد أخطأت.
ـ لا مش خطوبة يا ماما، أنا جاي علشان العلبة دي، وهند معايَ لأنها طلبت دا وأنا وافقت. بالبساطة دي.
ـ غريب زي أبوك.. صحيح غريب ابن غريب.
ـ أول مرة أسمع منك الكلمة دي.. غريب ابن غريب؟! يعني إيه؟
كانت أمه تضيف أوراق النعناع الطازجة في أكواب الشاي تمهيدًا للخروج.
تبعها سليمان في حنق.
أجفلت هند حين قدّمت أم سليمان كوب الشاي الساخن لها، ولكن دفء الكوب، ورائحة النعناع الطازجة التي تفوح منها وابتسامة الأم الطيبة، كلها أمور شجّعتها وبثّت داخلها بعض الطمأنينة الزائفة.
ولأن التسميات عند الأم الطيبة كانت بسيطة مثلها، فقد تعاملت مع هند كخطيبة ابنها أو كخطيبة محتملة في المستقبل، لذا لم تجد غضاضة في أن تتحدث أمامها عن سر جهله طوال تلك السنوات لتستأنف:
ـ أبوك يا سليمان ما كانش من بلدنا. كان لسا جاي مستوظف عندنا. كان جاي يشتغل حاجة غريبة قوي وعمرنا ما سمعنا عنها قبل كدا في البلد.
سكتت لتترك كلماتها الأثر المطلوب.
ـ مدرس مزيكا.. آه واللـه العظيم. بلد زي بلدنا الغلبانة دي يجيبوا لنا فيها مدرس مزيكا.. وإحنا عمر ما كان عندنا حاجة اسمها مدرس مزيكا. كان كويس

وكان محترم بس ما لوش أهل ولا كنا نعرف جاي منين ولا حكايته إيه.. شوية بشوية خالك حسن بقى صاحبه.. ما انت عارف إنه راخر كان مدرس عربي في نفس المدرسة وفضل فيها لحد ما بقى ناظر وطلع معاش.. كنا ساعتها مسمييينه الغريب علشان كنا مش عارفين له لا بلد ولا أهل.

أطرقت في الأرض حزنًا كأنها تتذكر شيئًا مؤلمًا على وشك أن تبوح به.

ـ أبوك كان عامل زي الملايكة. طول ما هو ماشي يعمل الخير.. فلاح في غيطه مزنوق يساعده، ست بقرتها تحرن يساعد الرجالة يعقّلوها، حريقة تقوم ف دار يطفّيها أول واحد، حد عاوز فلوس يسلّفه. كان يتحب وكانت إيديه إيدين خير. بس يا قلبي كان صاحب مرض وابن موت وما حدش داري.

صمتت الأم وضربات قلب سليمان المتسارعة تكاد تكون مسموعة. هند تستشعر انقباضًا في قلبها من الجملة الأخيرة والأم تستأنف:

ـ شوية بشوية بقى حد مهم قوي ومحبوب وبقى صاحب خالك الروح بالروح. مدرس جغرافيا ما ييجيش للمدرسة يدرس بداله، مدرس حساب يغيب يوم ولا يومين يدي بداله. شوية بشوية البدل بقى هو الحقيقة وبقوا ياخدوا منه حصص المزيكا يدّوها للحاجات التانية علشان لسا الحاجات ما خلصتش. الآلات بتاعته اتّاخدت واحدة ورا التانية وما فضلوش غير كمانجته الشخصية اللي معرفش هو اتعلم عليها فين ولا امتى ولا ازاي وكان يقعد لوحده يعزف عليها وخالك يبقى مستغربه ويقول له: ما لقيتش غير البتاعة دي تلعب عليها. قالوا له ما حدش عاوز مزيكا وانت بقيت كويس قوي في الحساب والجغرافيا والناس بتشكر فيك.

استأذنت الأم لوهلة ثم غابت في غرفتها لتعود حاملة حقيبة كمان متربة وعتيقة قد تهتك جلدها وتقشّرت طبقاته لتقدّمه لسليمان قائلة:

ـ أهي يا سليمان.. كمانجة أبوك.. كنت عايناها من ساعة ما مات علشان هي الحاجة الوحيدة اللي باقية منه من ساعة ما اتخطف. هو طول الوقت كان يشتكي وكان عيان. صداع.. ترجيع.. دوخة.. إغماء.. تشنجات.. لحد ما في مرة جالة دور حرارة ما عرفناش سببه.. بعد الشر كدا زي الدور اللي جا لك لما كنت هنا المرة اللي فاتت. علشان كدا كنت ملهوفة عليك وحاسة إنك هتروح مني زيه.

بدأت بضع دموع تغالبها فاقترب منها سليمان يحتضنها في رقة وبدأت هند تربّت على ظهرها في حنوّ.

ـ مع الوقت هو وخالك حسن ما بقوش يفترقوا، وخالك حب يكرمه قام جوّزه لي. وزي ما يكون ربنا عارف إن عمرنا مع بعض قصير فعلى طول جبنا أختك بسنت وبعدين إنت وبعدين آلاء لحد ما ربنا افتكره وانت لسا ما جبتش الأربع سنين وآلاء لسّاها لحمة حمرا على كتفي. كانوا خلاص لغوا دروس المزيكا من المدرسة وبقى أبوك يدرس الحاجات التانية اللي ما لهاش لازمة وعاوز يمشي

ويسيب البلد. هيموت عاوز يرجع مصر.. يروح بلد تانية.. يسافر برا.. كان بيغيب عني بالساعات وما اعرفش هو فين ويرجع ما يتكلمش وألاقيه داخل بالكمانجة يحطها في الشنطة ويرجعها تحت السرير. كنت باقول جايز بس متضايق.. جايز بس بيفضفض مع نفسه.. جايز ندمان بس مش عاوز يتكلم..

نظرت لابنها وكأنها ندمت على كلمة ما قالتها فاستطردت:

ـ أبوك كانت أخلاقه زي الفل ولولا كدا كنت شكيت فيه.. بس أنا قلت تلاقيه زهقان وبيقعد لوحده يعزف ويفك عن نفسه ولو كان فيه حاجة كان قال لي. ما كنتش عارفة إنه كان مربوط بيكم وبأهلي لأنه ما عندوش أهل. كان خايف ياخدنا ويمشي في حتة تانية برضه مش عاوزة مزيكا. تلاث عيال وأمهم يربطوا أي راجل ويخلوه يستغنى عن أحلام كتير. تلات عيال وأمهم شيلة تقيلة قوي لو كنت حابب تطير وتفرد جناحاتك في السما. كان بيحبني قوي، وبيحبكو أكتر. بس أنا كنت عارفة إن حاجة جواه انطفت. علشان كدا ما كنتش عاوزاك تتعلق بالمزيكا ولحد دلوقتي ما اعرفش ازاي ولا إيه اللي خلّاك تتعلّق بيها وتحبها.. لا والكمانجة بالذات.. كان زي ما يكون قدر وما قدرتش أقف قصاده.. زي ما تكون ندّاهة وندهتك زي ما ندهت أبوك. كل حاجة كنت بتعملها وانت صغير كانت غريبة. علشان كدا الناس كانت بتندهك وتقول عليك الغريب ابن الغريب.

احتضنت سليمان في قوة وهي تقول فيما يشبه الرجاء:

ـ اوعى تروح زي أبوك.. اوعى تسيبني يا سليمان..

لمعت قلادة العقيق في رقبة هند وبثّت حرارة كادت أن تلسعها فالتقطتها بين إصبعين مباعدة بينها وبين جلدها.

تبادل سليمان وهند النظرات القلقة وقد تسرّب إليه الشعور بالندم الشديد.

فها هي أمه تتمزّق الآن وقد استحضرت من صندوق ذكرياتها ما أخفته طوال السنوات الماضية وتجرّعت ألمه ومرارته وحدها، ولكنها اختارت الآن بالذات أن تشرك ابنها الوحيد والمرأة التي من المفترض أنها تحبه هذه الأسرار.

اختارت هذا الوقت حيث ينوي سليمان الذهاب في رحلة لا يضمن العودة منها.

اختارت هذا الوقت وقد أهدته دون أن تدري وسيلة العودة للمملكة بعد أن صار كل شيء واضحًا وجليًّا.

هو لن يتمكن من العودة هذه المرة إلا من هنا، وغالبًا من نفس المكان الذي غادر منه وهو ابن الرابعة، سطح العمارة القديمة بطرف البلدة.

كمان الرحلة الأخيرة هو كمان أبيه المهجور.

وأوتاره هي الأوتار الملونة الجديدة الأربعة بحسب ترتيبها.

صول..

لا...

ري...
مي...
أزرق...
أحمر...
أخضر...
أصفر...

٣١. الأخيـرة

السطح المهجور تضربه نسمات باردة.
هند موشكة على البكاء وتتمنّى في قرارة نفسها أن تفشل نظرية سليمان الذي كان منحنيًا على كمان أبيه وهو يقوم بتبديل الأوتار القديمة بالجديدة الملوّنة، يقوم بالدوزان، ويختبر الأصوات بأذنه المرهفة المدربة.
من عين خفية كان يرقب جسد هند المرتجف، جميل أن تشعر بحب الآخر لك. ومن المناسب جدًّا وهو مقبل على هذه المغامرة الأخيرة ألّا يكون وحيدًا.
في صوت خبيث ودون أن يرفع نظره عمّا يقوم به:
ـ إنتِ عارفة انّك ساعدتيني قوي؟ ومن غيرك ما كنتش هاوصل للي وصلت له دا.
كان صوته خافتًا لا يكاد يبين، إلا أنها سمعته جيّدًا.
اشتد لمعان حجر العقيق على صدرها، ودقّ قلبها دقّة زائدة وهي تقول في غنج:
ـ بجد؟
ـ بجد.
ازدردت لعابها في صعوبة والنفس لا يكاد ينفذ إلى داخل صدرها.
تسّربت ابتسامة رضا على شفتيها وهي تغمغم:
ـ ميرسي..
رفع رأسه بعد أن فرغ من إعداد آلته واختبارها بشكل مُرضٍ.
ـ العفو.. حبيت بس أقولها لك قبل ما أمشي.. مش جايز ما رجعش؟ بالحق.. ما تبطليش عزف حتى لو ما رجعتش!
أصابتها الجملة بطعنة في منتصف الصدر واختنقت واحتبس صوتها ولم تنطق. امتدت يدها لقلادتها تنزعها عن رقبتها لتقترب منه في هدوء. تمد يدها بها نحوه، فينظر لها متسائلًا. تمد يدها ثانية تستحثّه أن يأخذها.
كانت موشكة على الانهيار، فتغلّبت رحمته بها ومد يده يلتقطها منها.
قالت بصوت متحشرج:
ـ البسها يا سليمان.. البسها وما تقلعهاش.
ثم أردفت:
ـ دا قلبي يا سليمان باعتاه معاك علشان يحفظك وترجع لي.

* * *

لم تكن غرابة رحلته هذه المرة في أنها كانت سريعة للغاية،
كما لو أن النفق من هنا أقصر،
والدوامة أسرع،
والضوء أكثر أَلَقًا.

ولكن الغريب في الأمر أنه لم يصل القصر هذه المرة، بل أرض اللعنة. الآن أدرك كُنه العلاقة وتكشَّفَ له الكثير من إجابات تساؤلاته. الوجه من الطفولة كان لوالده الذي لطالما زاره في صورته الضبابية دون أن يتبيّنه لأنه مات قبل أن يدرك سليمان الطفل الصغير ملامحه جيّدًا، أخبرته أمّه أنه قد أصيب بحمّى مماثلة لما أصابته، ولكنه لم ينجُ من براثنها. لقد كان والده الذي أوعز له بالذهاب إلى المبنى المهجور في آخر البلدة الذي صار الآن عمارة سكنية. وكما توقع تمامًا فإن هند لم تتمكن من مصاحبته ولا بد أنها ما زالت هناك على سطوح البناية تنتظره في قلق. تحسّس قلادتها بحجر العقيق المتدلي منها التي يحتفظ بها حول رقبته بناء على طلبها اللحوح. تأمّل أوتار كمانه الملوّنة الأربعة الجديدة التي يستخدمها للمرة الأولى بعد ما انقطعت أوتار كمانه القديمة ووجد هذه الأوتار عوضًا عنها والتي كانت تجيئه بعد كل مرة ذهب فيها في رحلة للمملكة، كأنما كانت تتجمّع استعدادًا لهذه المرة الأخيرة، وربما الحاسمة. ما زال مقتل رحيم في زيارته السابقة يصيبه بغصة مؤلمة في الحلق، بعد أن فداه بروحه. أدرك أيضًا سر إحساسه بالألفة في المرة الأولى، والوجوه التي رآها في حياته وظن أنه عرفها قبلًا لأنها كانت وجوه سكان المكان الذين رآهم من قبل فعلًا فتعرّفهم فيما يشبه التبصّر أو الرؤيا. القطع الناقصة تواصل التجمّع والاتحاد ليصير المبهم فيما سبق، مفهومًا جليًّا الآن. وبالرغم من أنه توقف عن العزف فور الوصول ولم يعزف ثانية، فإن السماء كانت تبرق وترعد في غضب كأنما هي تنبئه ككل شيء بأن اليوم هو يوم المواجهة. إحساس خفيّ أنبأه بأن عليه أن يصل القصر متخفيًا هذه المرة فهو لا يثق بأحد الآن ويجب أن يصل إلى ريحانة دون أن يتبيّنه أحد، يكفيه محاولة الاغتيال السابقة التي فقد فيها رحيم المسكين قبل أن يحذّره من خيوط المؤامرة التي تحاك في الخفاء ضد المملكة، وإن أخبره المستشار العلمي بأن عزفه تسبّب فيما يشبه الذبذبة المضادة أو المعادلة لذبذبة انفتاح البوابة الفضائية التي اعتادت القوات السوداء أن تنفذ منها، مما عطّل هذه الهجمه بشكل مؤقت. ما زالت الضربة في جانب رأسه تؤلمه، ولكنه يشكرها على أي حال فهي ما أصابته بغيبوبة فقد على أثرها وعيه وعاد لغرفته في عالمه الأصلي ناجيًا مما لا يحمد عقباه. أحس ببعض ندم لأنه لم يستطع الدفاع عن رحيم المسكين الذي راح ضحيته رغم كل شيء. الآن جالت بخاطره فكرة مرعبة، أيكون من المحتمل أن المتآمرين قد آذوا ريحانة؟ ولِمَ لا؟ من تآمر عليه وعلى قتله في المرة السابقة لا بد أنه يدرك أن

ثمّة علاقةً ما بينه وبين ريحانة، وأنها مقرّبة له على نحوٍ ما.. أليست قريبته وخطيبته.. بل...
حبيبته...؟
بلى.. الآن يدرك سليمان أنه يحب ريحانة، تلك التي جمعت حسن كل نساء العالم وخصالهن الحميدة، رائعة في كل أحوالها. لو أنه وضع كل ما يشتهيه في امرأة لتكون مثالية له، لكانت طلباته أقل مما هي عليه. ريحانة الحلم الذي يراه نصب عينيه ولكنه لا يدرك إن كان ثمة مجال لتحقيقه، فهو حبيس عالمه الذي يعود إليه كلما نام أو غاب عن وعيه بطريقة ما، وهي حبيسة عالمها لا تستطيع أن تتركه، هو يجهل أصلًا كيف يغادر هذا العالم، فأنّى يجد وسيلة لاصطحابها لعالمه، وحتى إن فعل فأي عالم تعس سيجلبها له؟! الحب في كثير من الأحيان يتحوّل إلى لعنة أو حريق تحرق المحبين، ما الذي يمكن أن يفعله حيال حب بين عالمين مختلفين يفصل ما بينهما خرق زمني أو مكاني أو نفق فضائي أو شيء سحري عجيب لا سلطان له عليه وليس بمقدوره التحكم فيه، أيصلح هذا ليصير حبًّا حقًّا؟!
يستشعر حرارة منبعثة من حجر العقيق الذي يلامس جلده فلا يتمكن من تفسيره، إلا أنه لم يكن شعورًا لطيفًا، لذا فقد تحفّز دون أن يدري لذلك سببًا واضحًا. الجو نفسه مقبض على نحو لم يألفه من قبل، فالسماء ملبّدة بالغيوم، ورائحة الهواء معبّقة بالموت. لسبب يجهله قرّر أن يخبئ كمانه بين طيّات ملابسه. وحين اقترب من القصر أدرك ما قد خفي عنه وتعاونت الإشارات لتنبيهه، فالحارسان المعتادان قد استبدلا برجلين يبدو من شكلهما وملابسهما أنهما ينتميان للقوات السوداء، تساءل في قرارة نفسه إن كان قد حضر متأخّرًا بالفعل وربما حصلوا على ماسة المملكة. شيئًا ما داخله أنبأه أن الأمر لم يتم بعد. لذا فقد تسلّل عبر أحد المنافذ التي أشارت إليها ريحانة ليبلغ مكانًا قريبًا من بلاط القصر، مختبئًا خلف أحد التماثيل الكبيرة بالبهو استطاع سليمان أن يرى القائد أكثم جالسًا على عرشه وبجواره رجال من القوات السوداء.
كانت خيوط المؤامرة واضحة تمامًا، فلم يُفاجأ.
بحث بين الوجوه عن أي أحد يعرفه، أو يبعث في ذاكرته أي مؤشر يساعده.
لا بد أن ريحانة في خطر الآن.. وهو للأسف يجهل كيفية التواصل معها.
اقترب سليمان أكثر ليدرك أن أكثم يبحث عن ريحانة قائلًا لمرافقيه إنها الوحيدة التي يمكنها فتح الغرفة المقدسة في عدم وجود السلطان، وإنها فرصتهم الوحيدة، ويجب عليهم إيجادها قبل أن يصل سليمان وفي أسرع وقت لينتهي كل شيء لصالحهم.
جزء منه فرح لأنهم لم يصلوا للماسة حتى الآن، ولا ريحانة أيضًا، وجزء آخر حزين لأنه صار الآن وحيدًا في مواجهة الجميع، بل إنه لا يستطيع أن يخاطر بالظهور

الآن، وإلا انتهى كل شيء فعلًا، وبشكل مؤكد ويقيني.
سمع صوت قرقعة رهيبة كأنما أبواب السماء تصطك وتفتح.
تأهب أكثم ومرافقوه وانسحبوا سريعًا.
صارت قطعة العقيق كأنها جمرة من نار، فأدرك سليمان أن ساعة الخطر قد حانت.
أرض اللعنة، ستكون أرض المعركة الأخيرة.
وسلاحه الوحيد.. كمان له أربع أوتار ملوّنة.
صول – ري – لا – مي...
صووووول – رييييي – لاااااا – مييييييي...

* * *

أجواء كافكاوية تعيسة..
السماء سوداء، ليست فوق أرض اللعنة فحسب، بل فوق المملكة بأسرها، برق ورعد يدمدمان ويتوعّدان بالنهاية المحدقة في كابوس حي سيلتهم بعد برهة كل أثر للحياة من فوق هذه الأرض الملعونة كاسمها. وفي مركز الساحة وقف سليمان منفردًا مباعدًا ما بين ساقيه، تتلاعب الرياح الخماسينية التي بدأت تهب الآن بحرملتِهِ الحمراء. يرتعد جسده مع كل هزيمٍ للرعد، ويجفل عند كل التماعة برق، وتسري القشعريرة إلى أحشائه إذ تكاد شدة الرياح تقتلعه من مكانه.
في كبد السماء وبديلًا عن قرص الشمس الذي غادر اليوم على غير ميعاد فهو لا يود أن يكون حاضرًا لمشهد النهاية الكارثي، بدأت تظهر دائرة زرقاء مضيئة، ثم بدأ اللون يتماوج نحو الأخضر والأصفر، ليتسارع إيقاع تبادل الألوان مع ارتفاع أصوات أبواق حزينة كأنها العويل وقرقعة أشد من سابقتها كأنها بوّابات جهنم تفتح الآن، إذ تتمدد الدائرة المضيئة لتتسع أكثر وأكثر كأنها رتق في السماء، وتشتد الرياح فيما يشبه دوامات أعاصير صغيرة تتقاطع وتتشابك، أنقاض وأتربه ومخلفات موتى تتطاير لتنضم إلى دوّامات الأعاصير الصغيرة لتنمو وتتضخم مع اتساع الفجوة في السماء.
الآن يشعر سليمان ببعض الخوف إذ تظهر له جلية حوّامات القوات السوداء ولا أثر للمقاومة من قوّات المملكة، لِمَ لا والقائد أكثم شخصيًّا هو أول المتآمرين وربما معه الجميع.
يستقرُّ سليمان للعزف مفتوح العينين مشحوذ الحواس ومدافعًا عن كل ما آمن به حتى لو لم تكن هذه دنياه وحياته الشخصية، سيدافع عن المهمة التي أوكلها إليه والده، سيدافع عن رحيم الذي فداه بنفسه، سيدافع عن ريحانة وآمالها وأحلامها لأنها المرأة التي أحب، سيدافع عن الغزلان وشجر التوت وبقايا

المروج الخضراء، سيدافع عن أهل مملكته الذين لم يتسنَّ له معرفتهم بالشكل الأمثل.
يبدأ سليمان العزف.
يخرج العزف خافتًا فيهتز ضياء الفجوة السماوية ولكن دون أي تأثير.
زاد إيقاع العزف، فبدأت أوتار الكمان تلتمع، زاد إيقاعه أكثر، فبدت كما لو أنها تضيء تلقائيًّا. مع ازدياد حماسه في العزف وارتفاع نسق عزفه بدأت بعض حوّامات القوّات السوداء في الاهتزاز كما لو أن موجات عزفه قد شوّشت على طيرانها. ما زال هو ضئيلًا للغاية لا تلحظه عيون القوّات الغازية إذ لا يكاد يبين من الأرض. الآن وعلى هدًى من عزفه بدأ شعب المملكة في التوافد إلى أرض المعركة فيما يشبه المقاومة الشعبية. حقيقة الأمر أن طرافة وغرابة لم يكن يخلو منهما الموقف. ففي السماء، مئات من حوّامات القوات السوداء الغازية تتسرّب إلى سماء المملكة عبر فجوة لم ينجح عزف سليمان في إغلاقها أو التشويش عليها هذه المرة، وعلى الأرض وقف سليمان متحفّزًا، عازفًا، متحمّسًا، وقد بدأ أفراد الشعب الأعزل في التوافد لمؤازرته أو ربما مشاهدته وهو يقضي نحبه قاضيًا على أملهم الأخير في النجاة.
بدأ يلاحظ أن ثمة آلات موسيقية بدائية في يد بعض أفراد الشعب، فنظر لهم في يأس، إذ تبدو المعركة غير متكافئة بالمرة بعد أن حطّت الحوامات على الأرض على مسافة غير بعيدة عنهم، ومن جوفها بدأت آليات تشبه كثيرًا الدبّابات وحاملات القذائف وسيارات الدفع الرباعي وقوّات المشاة والمدرعات والمدفعية في اتخاذ تكوينات هجومية في مواجهة عازف كمان مجنون وأفراد شعب يخطو خطواته الأخيرة نحو الفناء يتوافدون ويتجمهرون بالآلاف...
ارتفع صوت القائد أكثم من بين جحافل القوات السوداء، يحيط به حكام المقاطعات الأخرى:
ـ أيها السلطان استسلم الآن حقنًا للدماء.. سلّمنا الماسة لينجو الجميع.. ما تفعلونه الآن هزلي جدًّا...
أدرك سليمان أن القوات السوداء كالعادة لم تكن سوى الفزاعة التي اخترعها أكثم ومن معه ليسيطروا على مقاليد الحكم ويؤول إليهم كل شيء.. الأمر متكرّر بشكل ممجوج وسخيف فالتاريخ لا يمل من إعادة هذا الشريط كما لو كان شريطًا للذكريات. يدرك أيضًا أن كل الاتهامات التي كالها حكام المقاطعة والمسشارون بعضهم لبعض لم تكن سوى تمثيلية سخيفة للتغطية على كونهم جميعًا متآمرين. الأفراد المختطفون من المقاطعة الثانية هم أفراد القوات السوداء ولا شك. كما أن هذه الحوّامات لا بد من حوّامات المقاطعة الأولى، ولا بد أن التمويل والتصميم والتخطيط والتجهيز وكل شيء.. كل شيء.. كل شيء.. كان بمعرفة حكام المقاطعتين الثالثة والرابعة!

الآن يسمع بعض الهمهمات من الشعب..
تبدأ خافتة..
ثم تأخذ في الارتفاع وتنامي التأثير وقوة الوقع مع تزايد الأعداد المتوافدة وازدياد حماسهم، إذ شرعوا يقرعون ويضربون بالعصي والأواني النحاسية والقضبان المعدنية وآلاتهم الموسيقية البدائية فيما يشبه الإيقاع وهم يهتفون في صوت يرج ساحة المعركة:

اعزف.. اعزف يا سلطان..
اعزف.. اعزف يا سليمان..
اعزف..
اعزف... اعزف... اعزف...
اعزف.. اعزف يا سلطان..
اعزف.. اعزف يا سليمان..
اعزف..
اعزف... اعزف... اعزف...

يبدأ العزف ثانية فيما بدأت القوات السوداء في إطلاق النيران على أفراد الشعب الذين صاروا يكوّنون جدارًا عازلًا يحميه من ضربات قذائف ونيران القوات السوداء. كلما عزف سليمان انفجرت دبّابة أو طارت مدرعة أو تفتّت مدفع.. وكلما ضربت القوات السوداء، تطاير بعض الناس وتمزّقوا أشلاء..
دوي قنبلة تسقط هنا.. أصوات طلقات سريعة تحصد أرواحًا هناك.. وصفّارات صواريخ عشوائية تضرب هنا وهناك يعقبها صراخ أو استغاثات أو عويل...
يعزف في حماس أكبر، في سرعة أكثر، والدموع تكاد تطفر من عينيه.. تشتعل أوتار الكمان فعليًّا بالنيران وهو آخذ بالعزف في جنون محاولًا أن يقضي على قوات العدو.
الأصوات البشرية للشعب تهدر وترجّ أرجاء المملكة من بين أصوات الحرب وعزف سليمان المتقارِعَين المتناحِرَين.

اعزف.. اعزف يا سلطان..
اعزف.. اعزف يا سليمان..
اعزف..
اعزف... اعزف... اعزف...

تشتد الأعاصير وتبدأ الأمطار السوداء في الهطول بغزارة كأنه بكاء الكون...
يتزايد إيقاع عزف سليمان أكثر من أي وقت مضى، ويتناقص أفراد الشعب من حوله رغم صراخهم الجنوني له بمواصلة العزف.

نغمات كمانه تصرخ وتستغيث.
هكذا وفي الوسط تمامًا بدأت هالة كروية بلّورية من نور في الظهور وآلاف من اللألآت تتماوج وتتراقص داخلها، تمامًا كلألآت الغرفة المقدسة. ينبثق منها فيض من نور يمتد كعَمود نحو السماء إلى مركز الفجوة تمامًا، ولأن الضياء كان شديدًا واللمعان باهرًا توقف الجميع لوهلة، وهو لم يتبيّن كنه الكيان الذي يتكوّن في قلب شلال فيض الضياء الذي ظهر بجواره تمامًا، يبدأ الكيان في التجسد أكثر والضياء كما هو...
هي المحبوبة إذًا!
ظهرت تمامًا كما يجب لها أن تظهر..
فالأساطير لا تتجلّى وتتجسّد إلا بشكل أسطوري يأخذ الألباب..
هكذا ظهرت ريحانة في المكان الذي وجب عليها أن تكون فيه، بجواره تمامًا جالسة على كرسي من الذهب أمام آلة بيانو شديدة البياض، أصابعها مصنوعة من البلّور الصافي متباين الألوان...
نظر سليمان خلفه فوجد أن هيئة وملابس أفراد الشعب قد تبدّلت فصارت أقرب لملابس الأوركسترا، بل إن العديد من الآلات الموسيقية الحقيقية صارت بين أيديهم بشكل سحري عجيب.
نظرة واحدة هي كل ما كان سليمان وريحانة يحتاجان إليه ليبدآ العزف في تناغم بديع كأنما كانا يعزفان العمر كلّه معًا.
الآن أدرك لِمَ كان في مقدور ريحانة أن تقتح الغرفة المقدسة ببصمة كفّها.
لِمَ كان هذا التفاهم والتناغم بينهما منذ اللحظة الأولى.
وللمرة الأولى أيضًا يلحظ أن ثمة قلادة بحجر من عقيق تزيّن عنقها هي الأخرى كأنما كانت قلادة هند التي وهبتها له على أرضه هي الدليل الدامغ أن ريحانة هي نصفه الآخر في العالم الثاني.
الحجران يلتمعان في وهج شديد.
أوتار الكمان الملونة تضيء بشكل باهر، وأصابع البيانو تتلألأ بآلاف الألوان.
الكل يسبح في ضياء صافٍ وألوان مبهجة.
مساندًا لعزف سليمان ورفيقته، بدأ الشعب كله في العزف لتبدأ جحافل القوات السوداء في التطاير بعد أن اقتربت منهم دوّامات الأعاصير لتبتلعهم ضمنها. ينظر سليمان خلفه فيجد مَلَك تُمرّض الجرحى بالتعاون مع حسنية، وعُلا تبكي في ندم شديد وهند تنظر له في نظرة حيرى ما بين الحب واللوم والخوف والحنان. على الجانب الآخر أمه وأخواته في ملابس بيضاء كأنهن الملائكة يصلّين ويدعون في تبتّل وإخلاص شديدين. وأخيرًا جدًّا يجد وجهًا بات يعرفه جيّدًا الآن لكأنّه وجه والده بين الجموع.

يعزف الكون كله اللحن مع سليمان.
يبدو أن نغمات بيانو ريحانة كانت هي نغمته المفقودة، إذ إن القوات السوداء قد بدأت تتحوّل إلى أشلاء تتطاير مع تضاؤل الفجوة رويدًا رويدًا.
الدبّابات وسيارات الدفع الرباعي والجنود والحوّامات.
كلّ شيء يتحوّل إلى رماد تذروه الرياح.
هكذا بدأت الموسيقى واللحن تحتوي الرصاص والمدفع.
من أطراف الأفق تبدأ االزرقة في الزحف تدريجيًّا، مع بعض السحب البيضاء.
يبدأ جسد سليمان في الارتجاف، يبدأ خفيفًا ثم يزداد في شدّة وهو يقضي على آخر فلول القوات السوداء وقد صارت الفجوة مجرد دائرة صفراء صغيرة..
تتحوّل الرجفة الآن إلى تشنج شديد، يضطرب العزف وهو يجاهد حتى رمقه الأخير أن يحافظ على اللحن والإيقاع، يشتعل القوس، وتحترق الأوتار وتتصاعد النيران من حجري العقيق المشتعلين على صدريهما، جسده محموم وتشنجات عنيفة تهزّ كيانه هزًّا...
قرقعة عظيمة أخيرة لتندحر الفجوة ولا يبقى أي أثر للقوات السوداء..
يسقط سليمان مغشيًّا عليه على أرض قد صارت الآن مروجًا خضراء، وسماء صارت صافية الزرقة، سحبها بيضاء يطل منها وجه ضبابي سعيد ما أشبهه بوالده، والشعب كله يتبادل القبلات والتهنئات في سعادة، مع صرخة متعاظمة من ريحانة...

ما بعد الـخاتـمة

حائط رمادي بارد يتوسطه حاجز زجاجي غير رحيم وجسد مسجى لا يدري مما يدور حوله شيئًا، تتابعه الأعين الدامعة وتلاحقه الألسن اللاهجة بالدعوات المخلصة والأمنيات الحزينة.

هكذا استقر المقام بعازف الكمان الذي لاحقته لعنته حتى أنفذ مصيره وحقّق ما كان يصبو له منذ البداية. المصائر طرق نمشيها دون اختيار، تستسحوذ علينا الرغبات والأماني والأحلام فنكتشف في ذواتنا ما يصيّرنا شخوصًا آخرين غير الذين كنّاهم. حدث صغير هنا، اختيار صغير هناك، وجهات نظر، وظروف، وملابسات، وآراء تختلف بحسب المكان والزمان والأشخاص، حركة دائبة ما بين هذا وتلك. الأمر هنا لم يبدُ عادلًا، ككثير من الأمور.

بقعة بيضاء ناصعة تلوّث الأنسجة الرمادية في الأشعة المقطعية لمخ سليمان.

مجرّد ورم في الفص الأمامي لمخ العازف المجنون، وغيبوبة عميقة لا يعرف الأطباء إن كان العازف الشاب سينجو منها أم لا.

شاشات مراقبة تنفس ونبض وضغط، خراطيم وأسلاك ممتدة من وإلى الجسد الراقد في سكون مقيت كخيوط عنكبوت ضخمة. طنّات الأجهزة وصوت دفقات الأكسجين وطرقات قطرات المحلول المتساقطة الخافتة وتمتمات شفاه مرتعشة لهند وأم سليمان وأخواته.

الأم تنعى حظها في زوجها ونصيبها في ابنها الوحيد.

والبنات ينشجن ويبكين فلا يبين مما يقلن شيئًا.

نظرت هند بعينيها المغرورقتين بالدموع ويداها تطبعان بصمات دهنية على زجاج غرفة الرعاية المركزة رقم ٤، نحو حبيب عمرها وأستاذها سليمان.

ترى حجر العقيق على صدره يتوهج ثم ينطفئ كأنه نبض، وترى الوشم المشابه له على يده كأنه يضيء.

تود لو تفديه بعمرها، بنفسها، بكل شيء.. فقط يعود.

يعزف لها لحنًا جديدًا، حتى لو كان الأخير.

فقط... يعود...

* * *

«...أرى كل شيء بعينيّ رغم أني أسبح في بحر من الضياء والبهاء والأبّهة الخالصة، لا أعرف على وجه التحديد أين أنا، بيد أن الأمر لم يعد مهمًّا لي ولا لكم ولا لأحد. أدرك الآن أننا لا نعرف أي شيء، وربما أنا الآن أيضًا لا أعرف أي شيء. أظن أننا لسنا الأجساد التي نعرفها وعشنا واهمين مسجونين فيها

وبها. ربما نحن ذرّات ضوء مثل تلك التي تغمرني الآن من كل اتجاه، أو ربما نغمات متعددة نتلاحم ونتشارك لنصنع معًا لحن الكون. ربما نحن مجرّدون من أي شائبة، ويملؤنا شيء طاهر طيب ولكننا لا نراه ولا نستشعر وجوده، وربما ننكر وجوده من الأصل فلا نبحث عنه. لا أدعي الآن شرفًا أو قدرة مغايرة لأي أحد منكم، ولا أقول إنني من سلالة مجموعة من العازفين الذين كانت كل مهمتهم هي البحث عن النغمة الصحيحة لكل شيء وفي أي شيء. ربما كان أبي كذلك، وربما جدي ولكنني لم أعلم عنه شيئًا. ربما نحن كثيرون للغاية عبر العصور والأجيال والأراضي والأكوان. ربما أنتم أيضًا عازفون ولكنكم لا تعرفون ذلك عن أنفسكم. ربما كل شيء جميل، ورائع، ومنطقي، ومذهل على نحو لا يمكنني أن أجعلكم تتصوّرونه على النحو الأمثل. أرجوكم لا تقتلوا نغماتكم، واسمحوا للعازفين بينكم بممارسة الحياة، فأنتم لا تعلمون اليوم الذي سينقذونكم فيه. اعزفوا جميعًا.. اعزفوا..

هذا طلبي، بل رجائي، أو لنقل أمنيتي الوحيدة...

اعزفوا... ولا تتوقفوا.. واذكروني بينكم حتى أعود..

وسأعود».

تمت بحمد الله تعالى

محمد نجيب عبد الله

شكر خاص

للعازفين الذين ساعدوني كثيرًا في هذا اللحن:
مي أشرف حمدي، هدير زهدي، هدى يوسف أبو زيد، د. مرسي عبد العليم، رنا عمر، شيماء عفيفي، د. ريم أحمد البرديسي، أحمد القرملاوي، د. علاء عمر، أحمد عبد المجيد، د. شريف محمد ثابت، محمد عبد القوي مصيلحي، إيناس فيصل، محمد عصمت، حازم ويفي، محمود سلام أبو مالك، كريم آدم، أمي السامية.. وأبي الأستاذ الدكتور عبد اللـه شعبان ويفي!
وكل أعضاء صالون نجيب الثقافي دون استثناء.
وغيرهم!

عن الـمؤلـف

أ.د. محمد نجيب عبد اللـه

•طبيب بشري ـ أستاذ الأمراض الباطنة والجهاز الهضمي والكبد، بكلية الطب جامعة القاهرة.

•أديب وطبيب ومفكر مصري وأستاذ جامعي.

•عضو اتحاد كتاب مصر – عضو نادي القصة – عضو نادي القصة بنادي الصيد ـ عضو في النشاط الأدبي بنادي ٦ أكتوبر.

•ترجمت قصص مجموعته (ما قبل وفاة ملك (للإيطالية والفرنسية، وقدمت أوراق علمية نقدية عن أعماله في العديد من المؤتمرات الأدبية الإقليمية والعربية. كما حصل على بعض الجوائز في مجال القصة القصيرة وناقش أعماله عددٌ من كبار النقاد في كرمة ابن هانئ – نادي الصيد – نادي ٦ أكتوبر – اتحاد الكتاب – نادي القصة – مكتبة مصر.

•له ٥ مجموعات قصصية:

ـ ما قبل وفاة ملك. (ط١: ٢٠٠٥ – ط٢: ٢٠١٢).

ـ عندما تموت القطط. (ط١: ٢٠٠٧ – ط٢: ٢٠١١).

ـ العزف على أوتار بشرية. (٢٠٠٨).

ـ كريستال. (٢٠١٥).

ـ العابر. (٢٠١٦).

•له ٣ روايات:

ـ أسفكسيا.. أن تذوب عشقًا. (ط١: ٢٠١١ – ط٢: ٢٠١٢ – ط٣: ٢٠١٦).

ـ المبتعدون لكي يقتربوا (ط١: ٢٠١٢ – ط٢: ٢٠١٥ – ط٣: ٢٠١٦).

ـ شيروفوبيا (ط١: ٢٠١٤ – ط٢: ٢٠١٤ – ط٣: ٢٠١٥ – ط٤: ٢٠١٦ – ط٥: ٢٠١٧).

•شارك في كتابين جماعيين:

ـ زمن سيدي المراكبي (مطبوعات أخبار اليوم – ضمن القصص الفائزة بمسابقة القصة القصيرة ٢٠٠٦).

ـ اللعبة (اتحاد كتاب مصر – ضمن القصص الفائزة بمسابقة اتحاد الكتاب للقصة القصيرة ٢٠١٤ – دورة الأستاذ عبد المنعم شلبي).

•له كتاب طبي ضمن مطبوعات سلسلة كتاب اليوم الطبي بعنوان (متاعب الجهاز الهضمي في رمضان ـ ٢٠١٤).

•شارك مع مجموعة من المبدعين في كتاب جماعي بعنوان «الشوف» بعنوان جانبي (الذين ذهبوا إلى الجبل فرأوا) في تجربة صوفية فريدة صدرت عن دار عابر ـ ٢٠١٧

•له عدة مجموعات قصصية قيد التعديل والمراجعة منها: (نوبة حنين – وقائع بعض ما جرى).

•أصبح مشرفًا على النشاط الثقافي بكلية طب القصر العيني من ٢٠١٦ حتى الآن، ثم صار منسقًا عامًّا للنشاط الطلابي بكلية طب القصر العيني بدءًا من العام الدراسي الجامعي ٢٠١٧/ ٢٠١٨.

•له صالون أدبي باسمه يقام شهريًّا في الخميس الثاني بعيادته بالجيزة الرابط:

https://www.facebook.com/NaguibCultureSalon/

كما أسس صالوناً أدبيًّا يقام بصفة دورية بكلية طب القصر العيني.

•أنشأ جائزة سنوية أدبية باسم صالون نجيب الثقافي بدأت دورتها الأولى في ٢٠١٦.

•للتواصل مع المؤلف:

بريد إليكتروني:

mnwifi@gmail.com

الصفحة الرسمية على الفيسبوك:

محمد نجيب عبدالله ـ Mohamed Naguib Abdalla الرابط:

http://www.facebook.com/Dr.M.Naguib

على تويتر:

mnwifi@

على انستجرام:

(mnwifi(MohamedNaguibWifi